القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

obeikandl.com

قبل أن يخيم الظل على ملامح القرن التاسع عشر لاحت في الافق ملامح عصر جديد خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى .

الا أن ذلك لا يجيز الاعتقاد بأن كل شيء قد نيط بالكارثة التي أحس بها وخشيها وأعدها رجال هذا الجيل .

ما زال الاقتصاد الرأسمالي يمتلك قوة حقيقية ، ولكن نزعته الاحتكارية تعاظمت بعد أن باتت المنافسة أشد عنفا يوما بعد يوم ، فكانت تلك الايام أيام الدول الاستعمارية الكبرى . واذا ما وطدت البورجوازية مراكزها ، فان الطبقات الكادحة قد أحرزت بعض التقدم ورُشّحت الاشتراكية لخلافة فرضية ممكنة .

أشارت بعض الدلائل منذئذ الى ان اوروبا خلفت وراءها ساعات اولوية لا جدال فيها . اجل لقد جاء الاسهام السامي في الفتوحات التقنية والعلمية المستمرة والتجدد المدهش في الخلق الفكري والفني برهانا على ديمومة حيوية فكر قوي وحازم ؛ ولكن الارتيابات التي حامت حول قيمة النجاحات المحققة عبرت عن قلق يمت بصلة الى تأزم الخلافات الاجتماعية والدولية . وكي لا يحدث ما لا يرتقى فتقه ، كان من الواجب ان يدوم السلم – مهما بلغ من وقتيته ، من حيث هو سلم مسلح .

الفصل الأول

وثبة جديدة الى الأمام

تكاثر البشر

لم يستمر ارتفاع عدد سكان العالم استمراراً فحسب ، بل ازداد ازدياداً مطرد السرعة . فارتفعت نسبة الزيادة السنوية بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ ارتفاعاً اسرع منة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . الا ان هذه الزيادة ابطأت في اميركا الشمالية واوقيانيا ، بينما هي اتصفت بمزيد من الزفوف في آسيا واميركا اللاتينيةواوروبا . وانها يلفت الانتباه من جهة ان كندا كانت اكثر استفادة ، من حيث ان تقدم الولايات المتحدة كان محدوداً ، ومن جهة ثانية ان نسبة النمو الاوروبي ، اذا ما استثنينا روسيا الاوروبية ، ربما كانت اقل حجما كذلك (اذ ان نصيب روسيا وحدها كان ٣٤ مليونا مقابل ٨٧) .

اعار المعاصرون انخفاض نسبة الولادات اهمية كبرى . وقد برز هذا الانخفاض في كافة البلدان الاوروبية (باستثناء البلدان البلقانية) بما فيها روسيا ؛ وكان ملموساً جداً في البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحار ، ولكنه لم يثر اهتمام مناطق الرياح الموسمية في آسيا ، ولا الهنود الاميركيين ، ولا الافريقيين في الارجح . واشار العديد من المراقبين بقلق – قرناً بعد مالتوس – الى المحطاط العرق الابيض ، وتخوفوا من « الغزو الاصفر » وتكلم « لرواـبوليو » عن « مسألة شيخوخة الامم الرهيبة » ونددا « بالوثنية الجديدة » اي « الابتعاد عن المعتقدات والتقاليد القديمة » . فيتضح من ثم كيف ان لهجة الاقتصاديين الاحرار تبدلت تبدلا بيناً : اخذوا يقيمون صلة بين نقصان المواليد وارتفاع مستوى المعيشة ، مستندين الى ان سوء التغذية وفقدان التدابير الصحية ربما يفسران قوة الوثبة الحيوية في الصين والهند مثلا .

وعلى أي حال فان زيادةالولادات على الوفيات ربما كانت اقل حجماً لو لم ترتفع نسبة الوفيات ايضاً : وهي ظاهرة تثبت توفر ظروف صحية وغذائية فضلى تجلت بصورة خاصة في اكثر

المناطق الاوروبية تطوراً وفي بلدان ما وراء البحار حيث حالت بعض الشيء دون خطر تزايد عدد السكان .

تبرز خريطة تصنيف الامراض في الكرة الارضية ، بوضوح مؤثر ، التضاد بين الرقعة الاطلسية الشمالية التي تكثر فيها الامراض الاجتماعية ،وبين الاقسام المتبقية من العالم التي ما زالت تعنيها إما الامراض الموضعية وامراض المناطق الحارة وإما الاوبئة الآسيوية الكبرى كالطاعون والكوليرا والجذام .

بدت من ثم معرفة حياة الافراد الطبيعية والعقلية وكان من شأنها تعزيز الآمال التفاؤلية المعلقة على الثقة العمياء بامكانات العلم . والكل يعلم ان اواخر القرن سجلت عدداً من اعظم الاكتشافات اهمية في حقلي الطب والجراحة . فقد شرع « لويس لابيك » آنذاك ابحاثه حول الفيزيولوجية العامة للجهاز العصبي واجلى مدلول الـ *chronaxie* أو الوقت الفيزيولوجي الخاص بقابلية تحرك الاعصاب ، واتسع حقل السيكولوجية الاختبارية بفضل ابحاث « ريبو » و « ووندت » و « بافلوف » و « ماخ » ، وبدأ « سغموند فرويد » يستكشف العقل الباطن ، ويكشف الاثر الجنسي في الامراض العصبية ، ويقترح الاستقصاء السيكولوجي كأسلوب للمعالجة . وتنظمت في الوقت نفسه دراسة اضطرابات النشاط التصوري الخاص (التأثر المفرط، الصرع) والامراض التي تؤثر على الحركة (*apraxie*) والحواس والكلام (*aphasie*) . وبينما حقق علم الاجنة نجاحات جديدة بفضل جهاز « شابري » ، جدد « توماس ـ هونت مورغان » علم الوراثة انطلاقاً من عناصر النواة الملونة في الخلية ، واكتشف « فونك » الفيتامينات و « لند ستاينر »الفئات الدموية، واستعاض «تيريون» و « تيريه » عن المناعة بطريقة استئصال الجراثيم بدون استعمال مواد مضادة وذلك بالعودة الى تعاليم « باستور » . ومن الصين جاءت طريقة المعالجة بوخز الابر .

نزوحات السكان الكبرى وتوسع المدينة

يلفت الانتباه ان الامم البيضاء في القارات الجديدة خشيت منذ ذاك التاريخ هجرة الملونين اليها ولا سيما الآسيويين منهم . وبالمقابلة لم يحدث ما يحد من الخلل المتسبب عن المهاجرين اليها من اوروبا . واذا استطاعت المانيا الحؤول دون نزوح مواطنيها ، فان بريطانيا العظمى وايرلندا ما زالتا ترسلان الى البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحار اعداداً كبرى من المهاجرين الذين استوعبت كندا نصفهم .

الا ان اعظم موجة نزوحية سجلها التاريخ قد خففت في الحقيقة عبء اوروبا المتميزة بنسبة عالية جداً من الولادات في الارياف . فقد توجه فقراء شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية باعداد وفيرة الى البرازيل والارجنتين اللتين استقبلتا منهم اكثر من ٣ ملايين بين

السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٣ (وقد نزل نصف مهاجري السنة ١٩١٠ الى البرفي «ريو دي لابلاتا») وبلغ مجموع الايطاليين والسلافيين واليهود الذين نزحوا الى الولايات المتحدة ٠٠٠ ٦٠٠ ١٤ من اصل ٠٠٠ ٧٠٠ ٢٠ مهاجر ؛ واستقر بين ٦ و ٧ ملايين روسي في قفقاسيا وسيبيريا .

اما تيارات الهجرة من بلدان تتوفر فيها اليد العاملة الى بلدان مجاورة تفتقر اليها فكانت اقل اتساعاً واكثر ارتباطاً بفصول العمل . وهكذا فان فرنسا باتت بلاد اغتراب لكافة شعوب البلدان المحيطة بها ، وقد تجاوز عدد الاجانب فيها المليون نسمة ؛ ولكن المانيا نفسها استقبلت عدداً من البولونيين ، كما قصد بعض المكسيكيين الولايات المتحدة .

أعيق الصُّفر في توسعهم في المناطق المعتدلة المناخ التي يسيطر عليها البيض فتدفقوا على جزر وشواطىء الشرق الاقصى : استعمر الصينيون بأعداد كبرى منشوريا حيث نزح كذلك كثير من اليابانيين الذين لم يجدوا لهم مكانا في هوكايدو او هاواي ؛ وتقاطروا دون انقطاع الى الهند الصينية والانسولند . أما الهند فقد هاجر عدد ضئيل من سكانها الى المستعمرات الاوروبية في ما بين خطي الجدي والسرطان .

ان الذين لم تؤمن الاراضي الزراعية القديمة معيشتهم ثابروا على إحياء الاراضي الجديدة واستثمار المنجم ، ولكنهم خضعوا بالتفضيل لجاذب المهنة المدنية . فنمت المدن نمواً مطرد السرعة في كافة البلدان ؛ وقد شمل هذا النمو كافة المناطق . فبين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٠ ، قفز عدد المدن التي تجاوز سكانها الـ ١٠٠ الف نسمة من ١١٨ الى ١٨٣ في أوروبا (كان ٤٢ في السنة ١٨٥٠) ومن ٣٢ الى ٤٨ في الولايات المتحدة . ودخلت في عداد المدن الهامة التي قاربت المليون نسمة ، اذا لم تبلغ هذا العدد بعد ، ريو دي جانيرو وبوينوس ايرس ، كلكوتا وبومباي ، طوكيو واوزاكا وشنغاي وهان – كيو في الارجح . وان انقلاب ميزان القوى على حساب سكان الارياف ، الذي حصل في بريطانيا العظمى ، قد حدث آنذاك في المانيا والولايات المتحدة ، ولن يلبث أن يحدث في فرنسا واليابان .

فتوطد من ثم ، في اواخر القرن ، نفوذ القطاع المدني بقوة لم يعرفها في اي يوم مضى ، وكان تعبيراً عن نداء النشاطات الصناعية والتجارية الذي لا يقاوم .

تجدد النهضة الاقتصادية (١٨٩٥ - ١٩١٤)

ابتداء من السنة ١٨٩٥ لاحظ المعاصرون انقلاباً في حركة الاسعار العالمية ، التي اخذت في الانخفاض منذ السنة ١٨٧٣ ثم اخذت في الارتفاع . ويبدو ان ظاهرة الارتفاع لم تكن قصيرة الاجل ، اذ ان حركة تجدد النهضة قد استمرت استمراراً متواصلا . فاذا حددت نسبة الاسعار العامة بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين ، لتبين انها كانت ٩٠ في السنة ١٨٨٧ ، و ٨٣ في السنة ١٨٩٥ ادنى نقاط الخط البياني – ثم ارتفعت الى ٩٥ في السنة ١٩٠٠ ، وبلغت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . اجل لسنا نلاحظ النسبتين ١٤٠ (١٨٧٠) و ١٤٥ (١٨٧٣) حتى ولا النسبة ١٢٠ (١٨٨٠)،

ولكن هذه العودة الى الارتفاع تبدو من الاهمية بمكان اذا ما أخذنا بعين الاعتبار التزايد العظيم في حجم السلع المعروضة . وتتعلق هذه العودة بأجور النقل البحري (أصبح نقل ١٠٠ كيلو من نيويورك الى ليفربول يكلف ١٧،٦٠ فرنكاً في السنة ١٩١٣ بدلا من ١٤،٦٠ في السنة ١٨٩٢) وببضائع استهلاكية كثيرة . وهكذا اذا ما حددت نسبة اسعار ٢٠ مادة غذائية ضرورية في فرنسا بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين، لتبين انها كانت ٩٥ في السنة ١٨٩٢ وناهزت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . ففد ارتفع إنفاق العائلة العمالية بنسبة ١٠٪ تقريباً في باريس . وهي كلفة الكراء التي ارتفعت اكثر من كلفة الخبز أو اللحم ، على كل حال ؛ ويلفت الانتباه بصورة خاصة ارتفاع كلفة المعيشة في الفنادق العائلية .

والحال تُثبت الاحصاءات توسع النشاط . فقد قدر مجموع اصدارات الاوراق المالية المنقولة بـ ٨٠٠ ١٩٧ مليون في السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٠ مقابل ١٠٠٤٠٠ بين السنة ١٨٩١ والسنة ١٨٩٠ ، و ٦١٥٠٠ بين السنة ١٨٨١ و ١٨٩٠ . وارتفع حجم رؤوس الاموال التي وظفها البريطانيون من ٤٢ الى ١٠٠ مليار تقريباً بين السنة ١٨٩٣ والسنة ١٩١٤ ، والفرنسيون من ٢٠ الى ٦٠ ، والالمان من ٧ الى ٤٤. وتضاعف تقريباً مجموع النقد الاجنبي الموجود في فرنسا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٢ (٤٠ ملياراً بدلا من ٢٠) . واستخدمت مؤسسات الولايات المتحدة الصناعية والتجارية ١١٤ ملياراً في السنة ١٩١٤ بدلا من ٤٨ في السنة ١٨٩٩ . وعلى الرغم من الاحتكار وجمع المؤسسات ارتفع عدد الشركات المساهمة في معظم البلدان الرأسمالية الكبرى : فقفز بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ من ٣٣٦٦ الى ٩٤٣١ في فرنسا ، ومن ٢٩٧٣٠ الى ٦٠٧٥٤ في بريطانيا العظمى .

ارتفعت النسبة العامة للانتاج الصناعي من ١٠٠ في السنة ١٨٩٩ الى ١٧٥،٧ في السنة ١٩١٤ . واستُخرج ٥١٢ مليون طن فحماً حجرياً في السنة ١٨٩٠ و ١٣٤٠ في السنة ١٩١٣، كما استخرج ٩٨ مليون طن حديداً في السنة ١٨٩٠ و ١٤٥ في السنة ١٩١٣ . ولم تبلغ نسبة انتاج الوشائج النسجية ، في العقد التاسع من القرن التاسع عشر سوى ٤١،٥ للقطن و ٦١ للصوف و ٦٧ للكتان و ٥٩ للقنب و ٢٦ للقنب الهندي مقابل ١٠٠ قبيل الحرب العالمية .

وارتفع الانتاج الزراعي ارتفاعاً حثيثاً ايضاً . فالنسبة ١٠٠ في السنة ١٩١٣ قابلتها النسبة ٣٦ في الولايات المتحدة والنسبة ٢٧ في روسيا في السنة ١٨٩٠ . وازداد استهلاك الفرد للحنطة ازدياداً ملموساً: فبينما بلغ عدد سكان المانيا في السنة ١٩١٤ ٣٠ بالمائة اكثر منه في السنة ١٨٩٠ ، بلغت نسبة ارتفاع انتاج الحبوب ٨٠ بالمائة ؛ وقد بلغت هاتان النسبتان بالمقابلة ٢٥ و ٥٠ بالمائة في بلجيكا . واستهلك الاوروبيون مليون طن ونصف المليون من السكر في السنوات ١٨٩٨ — ١٩٠٠ و ٦ ملايين في السنة ١٩١٣ . وفي اليابان ارتفع استهلاك الاسماك بسرعة . اضف الى ذلك ان ألمانيا استخدمت أربعة أضعاف الاسمدة الكيميائية التي كانت تستخدمها ، كي تتمكن من مواجهة حاجاتها الجديدة .

وتضاعفت قيمة التجارة الدولية خلال ١٣ سنة بعد ان تضاعفت خلال ٣٠ سنة (٥٢ ملياراً

في السنة ١٨٧٠ ، و ١٠٤ في السنة ١٩١٠ ، و ٢٠٣ في السنة ١٩١٣) . وارتفع تصدير المصنوعات بالنسبة للشخص الواحد من ٥٢ فرنكاً الى ١٠٥ فرنكات في فرنسا ومن ٥٣ الى ١٢٥ فى المانيا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٣ . وارتفع حجم تجارة الخيوط القطنية من ٤٧٣١ طنا الى ١١٩٨٦ بين هذين التاريخين نفسيهما .

فكانت النتيجة اثراء لا منازَع فيه قد يعطينا الدليل عليه تقدير الدخل القومي : ٣٦ ملياراً في فرنسا في السنة ١٩١٣ مقابل معدل ٢٧ ملياراً بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٩ ، و ٦٠٠ في بريطانيا العظمى مقابل ٤٠٠ ، و ١٧٥ في الولايات المتحدة مقابل ٦٠ ، و ٥٠ في المانيا مقابل ١٧ . وقد ارتفع معدل الدخل الفردي في اميركا من ٣٥٧ دولاراً الى ٥٠٢ بين السنة ١٨٨٩ والسنة ١٩١٣ .

واذا تحقق احراز النجاحات في الولايات المتحدة وفي معظم الدول الاوروبية نفسها (ومنها ايطاليا والنمسا وروسيا) ، فان الانطلاقة ارتسمت بصورة مفاجئة في العالم الجديد (كندا والمكسيك والبرازيل والارجنتين) وفي افريقيا (الجزائر ومصر) وفي آسيا (الهند والصين واليابان) . اجل لقد كانت السرعة متفاوتة ، ولكنها كانت شاملة .

ومما يلفت الانتباه ان النشاطات الزراعية ليست وحدها ما هبطت هبوطاً نسبياً في اكثر البلدان تطوراً ؛ فان القطاع الصناعي قد بات اقل تقدماً، بعد اليوم ، من القطاع المعروف بالقطاع الثالثي اي ذاك الذي يختص بتوزيع الممتلكات وبالخدمات العامة . وقد لوحظت الظاهرة بوضوح منذ السنة ١٩٠٠ في الولايات المتحدة؛ ولكنها ما لبثت ان اصبحت محسوسة في شرقي الاطلسي ايضاً . وان في ذلك لدليلا على التبدل القريب ، العميق جداً ، الذي سيطرأ على توزيع المهام البشرية في الغرب .

اجل لقد جاءت ثلاث ازمات — في ١٩٠٠ و ١٩٠١ ، و ١٩٠٧ ، و ١٩١٢ — تذكّر دونما رحمة بأن الاقتصاد العالمي ليس بأمن من الهزات ، حتى في مراحل تقدمه . الا انها لم توقف الوثبة العامة البتة . ولم يتردد بعضهم ، كـ « مَلين » في فرنسا، في تشهير «الافراط في الانتاج » و « الجنون الذي يدفع كافة البشر الى الانتاج اكثر فأكثر يوماً بعد يوم » . وقد فكر رئيس الولايات المتحدة ، « تافت » ، بالدعوة الى مؤتمر تكون مهمته ايجاد الوسائل الكفيلة بمقاومة ارتفاع كلفة المعيشة . ولاحظ آخرون بفرح شديد ازدياد الاستهلاك ، فكان موقفهم شبيهاً بموقف « جول سيمون » الذي قارن في السنة ١٨٩١ بين العصر الذي كان فيه والعصر الذي عرفه في شبابه ، فقال : « نحن اليوم قد ألفنا ملاذ « كابوا » .

أما أسباب تجدد النهضة العظيمة هذا فتفتح باب مجادلات كثيرة . فقد طاب للاقتصاديين الاحرار التشديد على دور المطابقة الجدير بالاعتبار بين تزايد عدد السكان من جهة ، وتزايد الطلب ومن ثم تزايد الانتاج والتبادلات من جهة ثانية ؛ وكان من شأن ذلك تحطئة مالتوس

مرة اخرى . وربما توجب كذلك أن تكون قدرة الجماهير على الشراء قد نمت نمواً كافياً لان يحدث انقلاب الاتجاه هذا ؛ ولكن ارتفاع الاجور الحقيقية ، خلال فترة الانحطاط السابقة ، بينما كانت الارباح الرأسمالية تتدنى تدنيا مستمراً ، قد تفسر ذلك . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان مكافحة الافراط في المنافسة بفضل اعادة تنظيم المؤسسات كان من شأنه كذلك ايقاف انخفاض الاسعار ، علة خمود المهمة ، واصلاح السوق ؛ وعندما تصبح قسمة الارباح اكثر مطابقة للعقل ، يتزايد توظيف الاموال .

ولكن مصادفة تجدد النشاط وتدفق المعدن الثمين معاً لم تفت انصار نظرية النقد الكمية . ففي السنة ١٨٩٥ ادرك « والراس » ان اثر ذهب الترانسفال في الاقتصاد المنحط سيكون اشبه بأثر منشط قوي . وفي الواقع ألقت اوستراليا الغربية وكولومبيا البريطانية وآلاسكا وافريقيا الجنوبية ، الواحدة تلو الاخرى ، في التداول ، كميات ضخمة من المعدن الاصفر . فبلغت النكيات المتداولة في السنة ١٩٠٤ اربعة اضعافها في السنة ١٨٨٥ . وقد انضمت الولايات المتحدة والنمسا وروسيا والهند واليابان الى معسكر المعدن الواحد ؛ ففرضت قاعدة الذهب نفسها . وكان من شأن ذلك اتساع التعامل بالدين ، وارتفاع اسعار الاوراق النقدية بسبب تجمع اموال الادخار في جيوب الافراد .

واستند بعضهم الى نظام الحماية . واعتبر سواهم ان حروب افريقيا الاستعمارية ومنازعات الشرق الاقصى ونشاطات التسلح قد كان لها دورها الفعلي في ايقاف انخفاض الاسعار والارباح ، كما حدث بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ ، لانها احدثت بَزلا في مواد الاستهلاك وقوضت الثروات : واذا كان للذعر الذي سببته هذه الاحداث تأثيره السيء على المصنفق ، فان سد حاجات القوى المسلحة قد ثبت اسعار المواد الخام وسير الاعمال في المؤسسات الهامة . اما الماركسيون فقد انتقدوا الاقتطاع الرأسمالي الذي شجعه التدني النسبي في الاسعار واعتبروا تطور النظام تطوراً عضوياً في اتجاه الاحتكارات دليلا على انحطاط عضال . واعتبروا كذلك الظرف مؤاتياً لنشاط المأجورين .

من عصر البخار الى عصر الكهرباء

تظهر ارقام الانتاج انطلاقة استخراج الفحم الحجري العجيبة . لذلك ما زالت السيطرة للفحم الحجري في السنة ١٩١٤ . وقد وفر آنذاك للانسان ، بحسب بعض الاحصاءات ، ٨٧ بالمائة من الطاقة واكثر من ٩٠ بالمائة مع الخشب المتفحم ، بينما لم يوفر البترول والغاز سوى ٧ والقوى المائية ٢٫٣ ؛ وبحسب احصاءات اخرى يجب الا ينسب اليه سوى ٧٥ بالمائة فقط من حيث ان الخشب وفر ١٥ بالمائة تقريباً . وسُير ٨٩ بالمائة من السفن بالفحم الحجري و ٨ بالمائة بالاشرعة و ٣ بالمائة بالبترول : فقد انتصر مسخن الماء من ثم على المركب الشراعي قبل ان يقلقه المحرك الذي يدار باحراق البترول . لقد تلوث منظر مناطق المصانع بدخان الفحم الذي تنفثه المداخن المرتفعة . فالا « مدلندس » البريطانية والمنطقة الرينانية الوستفالية وحوض « سانت - اتيان » وحوض

بتسبورغ ، كلها بلدان سوداء نموذجية تتميز بها الحضارة الصناعية في القرن التاسع عشر المشرف على الانصرام، اعني بها حضارة الفحم الحجري والحديد والفولاذ التي شوهت الطبيعة واذلت الانسان.

والحال ولدت الكهرباء لتفتح آفاقاً اكثر بشاشة . اجل سوف تطلب مساهمة المنجم حتى بعد اكتشافها ، ولكن المهندس التفت الى الماء الذي ينحدر شلالات من الجبال، فولدت الطاقة المائية هذا الفحم الآخر الذي اطلق عليه اسم لا يخلو من الظرافة هو الفحم الابيض . فمنذ السنة ١٨٦٩ — سنة حصول « غرام » على براءة اختراع مولد كهربائي ذي تيار متصل — التي اعد فيها « برجيس » لمصنع الورق في « لانسى » شلالا يبلغ ٢٠٠ متر ارتفاعاً ، ومنذ ان نجح « مارسيل دبريه » في نقل الطاقة للمرة الاول الى معرض مونيخ — وقد اجري هذا الاختبار ، بعد مرور فترة قصيرة ، بين فيزيل وغرينوبل — اتاحت العنفة والدينم ، اللذان أحكما تدريجياً ، تحويل الطاقة المائية الآلية الى طاقة كهربائية . وقد لعبت العنفة المائية في مصنع انتاج الكهرباء بواسطة الماء الدور الذي لعبته العنفة البخارية في مصنع انتاج الطاقة الحرارية . وبينما صمم « فورنيرون » منذ السنة ١٨٢٧ العنفة الثانية التي بلغ انتاجها ٧٠ بالمائة لم تتحقق العنفة الاولى الا بعد السنة ١٨٨٤ بفضل السويدي «دي لافال» والانكليزي « بارسونز» : اشتق نموذج لافال من عجلة برانكا التجارية الدافعة (١٦٢٩) وعرف بالعنفة المحركة او المتساوية الضغط ، بينما عرف نموذج « بارسونز » بالعنفة غير المتساوية الضغط ؛ وكانت هذه سريعة جداً وتلك اقوى منها الى حد بعيد ؛ ولكنها اعطيا كلاهما انتاجاً مرتفعاً جداً (٩٠ بالمائة) . فأتيح من ثم انتاج الكيلوواتات انطلاقاً من الاحصنة البخارية .

بدأ بالتالي عصر الكهرباء مع عهد هذا المحرك الجديد الذي كان بالنسبة للآلة البخارية التناوبية ذات المكبس ما كانته هذه الآلة بالنسبة لآلة « نيوكومن » الهوائية .

اما نقل الطاقة الكهربائية فقد استلزم تحويلاً في التيار حققه « غولار » . فاذا زيد فرق الطاقة بين طرفي خط كهربائي عشرة أضعاف، ازدادت الطاقة المنقولة مايةضعف. ولكن خطر التوتر العالي والصعوبات التي انطوى عليها عزل الخطوط الناقلة حالت زمناً طويلاً دون النقل الى مسافات بعيدة . وفي السنة ١٨٩١ ، عجب الناس من ان « فرانكفورت » تمكن ، بواسطة مولد التيار الكهربائي التناوبي (المعروف باسم مبتكره « تسلا ») ، من استخدام الـ ١٥٠٠٠ فولت المنتجة على الـ « نكار » على مسافة ١٤٠ كيلومتراً . ولذلك اقيمت مصانع الطاقة الحرارية من جهة على مقربة من المراكز البعيدة عن الجبال او الشلالات، ومن جهة ثانية فكر الناس باقامة التجهيزات التي يمكن عزلها بسهولة على مقربة من الجبال والشلالات . وفكروا بادىء ذي بدء باستخدام اما مياه المنحدرات القوية واما الشلالات الطبيعية (كشلال نياغارا مثلا)؛ ولكنهم لم يلبثوا ان أنشأوا الشلالات بواسطة السدود الاصطناعية .

الا ان المصانع الحرارية ، التي كان تجهيزها سهلا ، قد انتجت تياراً مرتفع الكلفة ، في حال ان الفحم الابيض الذي يستلزم تجهيزات باهظة الاكلاف قد وفر التيار بكلفة دنيا . ولكن

الكهرباء ، على نقيض المنجم ، قد وزعت النشاطات ؛ وخلقت كذلك منظراً صناعياً جديداً لا يشوبه الدخان والغبار ، كان اكثر توافقاً والاطار الطبيعي ، ولم يخل من بعض العظمة حين تنتج الكهرباء من الماء . وقد حيا الامير كروبوتكين ، العالم والفوضوي ، مجيء هذه القوة المحررة .

استطاعت الساحرة ان تغمر بعطاياها بلداناً افقدها الفحم الحجري الحظوة : كاتالونيا ، سويسرا ، ايطاليا الشمالية ، سكندينافيا ، كندا ، وحتى اليابان. وقد اعتمدت اماكن عدة هذا المنبع الضوئي دون ان تعرف غاز الاضاءة من قبل، كما بنت اماكن اخرى الخطوط الحديدية قبل ان تنشىء طرقات جيدة . ولكن ذلك استلزم الكثير من رؤوس الاموال والعديد من الفنيين. فحوالي السنة ١٩٠٠ دفعت اعمال الانارة الكهربائية الى تأسيس شركات مساهمة قوية تشرف اما على انتاج التيار واما على تقديم المواد . ولكن الاهتمام بزيادة الدخل دفع الى تجهيز اوفر المساكن ثروة او ارفعها مستوى معيشياً بامكانات خلاقة مستعجلة . ويلفت الانتباه ان اميركا الشمالية احتلت مركز الصدارة في انتاج الفحم الابيض ، اذ كان لديها في السنة ١٩١٠ سبعة ملايين حصان بخاري (انتج شلال نياغارا وحده منها اكثر من مليون) ، مخلفة وراءها فرنسا والمانيا وايطاليا (مليون واحد في كل منها) والسويد ونروج وسويسرا (½ ١) . كما يلفت الانتباه كذلك ان بريطانيا العظمى ، التي نامت على غار اولويتها الفحمية، لم تحتل آنذاك سوى مرتبة وضيعة ، لا سيما وانها افتقرت الى الشلالات السهلة التجهيز . ولكن الترتيب يتبدل اذا ما اخذت المصانع الحرارية بعين الاعتبار .

في الحقيقة لم يتوفر النور الكهربائي بعد الا لعدد ضئيل من البشر . اجل ان مصباح اديسون ، الذي استهلك في البدء ٤٠ وات للشمعة الواحدة ، لم يستهلك سوى نصف وات بفضل استخدام التونغستين ابتداء من السنة ١٩١٣ ؛ ولكنه لم يتقدم بعد على مصباح « اوير » الغازي . وعلى الرغم من ذلك كان للارياف حق الغيرة من المدن .

احتل المحرك الكهربائي مكاناً ضيقاً ، ولم يستلزم عناية كبرى ، وادير بسهولة ، واعطى انتاجاً بلغ وتجاوز ٨٠ بالمائة ، ولكنه اذا لم يستمد الطاقة من مراكم غير ثقيلة معبأة بشحنة تكفي لمدة طويلة ، فقد وجب ان يستمدها من التيار بواسطة خطوط ناقلة ممدودة فوق الارض او تحتها اذا استخدم للجر . ولذلك لم يستعمل بسهولة للجر الا على مسافات قصيرة : فسيرت بالكهرباء الحافلة البخارية او الحافلة التي تجرها الاحصنة منذ السنة ١٨٩٧ في لندن وفي معظم المدن الهامة من بعدها ؛ ثم استهوت وسيلة النقل هذه مدناً اخرى ؛ وقد فكرت بها العواصم الكبرى حين ارادت القيام ببناء الخطوط فوق الارض او تحتها ، كخط الـ « مترو » في باريس مثلاً . اما كهربة الخطوط الحديدية فسوف تنتظر تحسينات تقنية جديدة قبل ان يواجه استخدامها على نطاق واسع : ولكن لن يطلب منها سوى تسهيل تسلق المنحدرات القوية واجتياز الانفاق الطويلة .

على نقيض ذلك تكشف توزيع القوة المحركة عن مزيد من الاغراء كلما اعتمدت هـذه القوة في عمل ينجز في مكانه . فان استخدام الهواء والماء المضغوطين او الاسلاك الناقلة القوة الى مسافة بعيدة كان يستلزم تركيبات محدودة الانتاج بسبب الاحتكاكات المختلفة . وحلت كذلك محل التحويلات الآلية تحويلات كهربائية تحققت باستخدام الدينم في تسيير الآلة البخارية او العنفة المائية ، ما لم يكن التيار ناجماً عن التوزيع . وحدث ما هو اهم من ذلك ، اذ امكن تجهيز المثاقب والمقصات والفرانق والجسور الدائرة ، التي لا تستطيع السيور تحريكها بسبب انتقالها من مكان الى آخر ، بمحركات كهربائية . فبدا ممكناً بعد ذلك تسيير كل اداة صغرى ، وحتى كل آلة كبرى ، في المعمل وفي البيت ، دون ان تنبعث منها الحرارة والرائحة وحتى الضجة .

وانما اذا لم يستطع السلك بعد من نقل القوة المحركة الى مسافات طويلة ، فهو قد اجتازها لحمل رسائل الانسان واسماع صوته . فاتقن التلغراف والهاتف يوماً بعد يوم واتسعت شبكتاهما . وحين اخترع كازلتي الـ « بان تلغراف » (التلغراف الشامل) ، اعتقد الناس بامكانية نقل الصور كهربائياً . اما « كورن » الذي استخدم خاصيات السينيوم ، فقد حسن الطريقة في السنة ١٩٠٣ ، فحصلت الـ « الوستراسيون » على احتكار براءة الاختراع في فرنسا . وفي تاريخ لاحق وضع جهاز بلين لنقل الرسوم الجسادية ، تحت تصرف الصحف والشرطة ، وسيلة إعلامية حساسة وامينة .

وانما كان مقدراً لاختراع التلغراف اللاسلكي ان يثير الاعجاب اكثر من أي اختراع آخر ، لأنه جعل الكهرباء تبث عبر الفضاء اصواتاً واضحة سهلة الادراك بدون خطوط ناقلة . وقد جاء هذا الاختراع نتيجة لابحاث طويلة . فقد سبق لـ « ماكسول » ان لفت الانتباه الى موجات توصل « هرتز » في السنة ١٨٨٦ الى كشفها بواسطة « عازل » والتقاطها في « رنانة » لا تتصل بأي سلك . وكان مقدراً لهذه الموجات الهرتزية ان يروضها «ادوار برانلي » و«اوليفر لودج » اللذان ابتكرا في آن واحد تقريباً من السنة ١٨٩٠ كاشفاً افضل هو « الملحم » البرادي ، و« بوبوف » الذي اخترع الهوائي اللاقط ، و « ماركوني » الذي عاد اليه فضل إرسال البرقية الاولى من انكلترا الى فرنسا في السنة ١٨٩٩ . وقد توفق لودج منذ السنة ١٨٩٤ الى تحقيق نقل حتى مسافة ٣٠ متراً وفكر بمطابقة طول موجة المحطة اللاقطة على طول موجة المحطة الباثة . وسوف يكتشف بعد ذلك المصباح الالكتروني – مصباح علاء الدين الجديد – : مصباح فلمنغ ذو القطبين الكهربائيين ، ومصباح « لي دي فورست » ذو الاقطاب الثلاثة ؛ وهما سوف يتيحان للموجات نقل الرسائل حتى اقاصي الارض .

بيد ان الساحرة التي نقلت فكر الانسان اما بواسطة السلك واما بدونه ، وساعدت الانسان منذ ذاك التاريخ على تسيير ادوات عمله وحتى على الانتقال ، قد أخذت تفعل في المادة نفسها وتحدث حركة ناشطة في تقنيات الكيمياء .

انطلاقة الكيمياء المستمرة

ان النطاق الشاسع الاطراف الذي وضعت الكيمياء يدها عليه خلال القرن التاسع عشر ، اخذت الصناعة تستثمره استثماراً واسعاً منذ السنوات ١٨٨٠ — ١٩٠٠ . لقد اهتم الرأسماليون والتقنيون في الدرجة الاولى بالمواد العضوية ، الكربون والهدروجين والاوكسجين والازوت . فحققوا منذئذ غاز الاضاءة والفحم المعدني المقطر ؛ ثم انشئت تجهيزات ضخمة اعطت كل يوم مزيداً من المنتجات الثانوية ، كالقار على انواعه والملونات والعطور والاسمدة والمتفجرات . وهو الفحم الحجري ماولد ابدا هذه الصناعات الجديدة ، الوفيرة الارباح ، في الوقت نفسه الذي انتج فيه التيار الكهربائي . فقد انتجت المانيا — بفضل منطقة الـ «رور» بصورة خاصة — في السنة ١٩١٠ ثلاثماية مليون كيلوغرام من سلفات النشادر مقابل ٦٥ مليوناً في السنة ١٨٩٠ (وقد حقق « فريتز هابر » آنذاك النشادر التركيبي) ؛ واعطت مصانع استخراج المعادن فيها ١٨٠٠ مليون كيلوغرام من خبث الحديد مقابل ١٠ ملايين . ومن القار استخرجت بعض الزيوت الصالحة للتدفئة او للمحركات (زيوت ثقيلة وبنزول) وانواع حمض الفينول المستعملة في اعداد حمض البكريك وشتى انواع البكرات . وكان التحليل بالمجرى الكهربائي قد سهل الى حد بعيد انتاج ملح القلى والكلور والكلورات والكلورور والمنتجات الازوتية . فانتج بعد ذلك المواد الكلورية المزيلة الالوان (ماء جافيل) ومحلولات استخدمت لتبييض الاقمشة وممجون الورق وتطهير مياه البواليع . واختصر دباغة الجلود . ووفر وسيلة لسقاية الادوات الفولاذية . واتاح كذلك طلياً بالنيكل جعل صفائح الرسوم المعدنية اكثر صلابة وصان القطع المعرضة للصدأ صيانة فعالة . واتاح بالطريقة نفسها استخراج المنغنيز والقصدير والفضة والنيكل نفسه بفعل قدرته على التحليل ولعل اهم تحقيقاته معدن الالومينيوم ، فقد كان هذا المعدن الجديد بالامس مجرد غرابة مختبرية ، ولكنه دخل نطاق التحقيقات العملية بفعل قابليته للتصفيح وخفته ومتانته : فقد هبط سعر كلفة الكيلوغرام من ١٠٠ فرنك في السنة ١٨٧٠ الى فرنك واحد في السنة ١٩١٠ ؛ وقفز الانتاج العالمي من ١٧٥ طناً في السنة ١٨٩٠ الى اكثر من ٥٠٠٠٠٠ في السنة ١٩١٢ ، اذ ان انتاج البوكسيت — وهو اهم المعادن غير الخالصة المستعملة في صناعته — قد تجاوز ٥٠٠٠٠٠ طن في هذا التاريخ الاخير .

وعلى نقيض ذلك نرى ان الكيمياء الصناعية وصناعة تنقية المعادن مجتمعتين ، استخدمتا الفرن الكهربائي ، وتوفقتا بوجود التونغستين والنيكل والكروم الى ايجاد معادن مركبة جديدة ، اعني بها انواعاً خاصة من الفولاذ ضرورية لصناعة السيارات بصورة خاصة . واحدث « ألفرد ويلم » ثورة حقيقية في السقاية التي حققها في السنة ١٩٠٩ في « دورن » بواسطة الدور الومين المركب من الومينيوم ونحاس وكميات صغرى من المغنيزيوم والمنغنيز والسيليسيوم . ثم وضع « هنري له شاتلييه » في السنة ١٩١٣ سنة السقاية المردوجة المتعلقة بتغيير تركيب المعدن بمزجه بمادة أخرى تحت تأثير الحرارة . وسيعرف الانتشار كذلك لحام المعادن باذابتها ، وهو لحام

كهربائي بات ممكنـــاً بواسطة الأسيتيلين المستخرج من كربور الكلسيوم الذي ينتجه الفرن الكهربائي ايضاً .

وعادت للكيمياء العضوية في الفترة نفسها ابوة بعض النسائج الجديدة. وكان ريومور قد عبر عن يقينه بان الحرير الاصطناعي سيبصر النور قريباً . فعرض « شاردونيـــه » في السنة ١٨٨٩ اول طريقة صناعية ، انطلاقاً من سلولوز القطن ؛ وقد توجب ازالة الازوت من النسائج لجعلها غير قابلة الاحتراق . واستخدم « كروس » و « بيفان » و « بيدل » لب الاخشاب . وفكر « تريمري » و« اوربان » بتحليل السلولوز في ماء غال يحتوي بعض الامونيـــاك والنحاس ، واسسوا في السنة ١٨٩٩ مصانع « غلانزستوف» . وفكر غيرهم كذلك بـ « كسانتات السلولوز. ولكن هذه الخيوط الحريرية الصناعية لم تقو على مقاومة الرطوبة مقاومة طويلة الامد. وقـــد انتج منها ١٠٠٠ طن في السنة ١٩١١ (نصفها في فرنسا) و ١١٠٠٠ في السنة ١٩١٣ وسارت المانيا على رأس هذه الصناعة، لأن الانتاج الفرنسي لم يتضاعف . ولاحت دلائل عصـــر المواد العجينية مع ظهور الـ « غالاليت » ، و الـ « باكيليت » التي امكن احلالها محل صمغ اللك .

واذا لم يفكر احد بعد بصناعة المطاط التركيبي ، فان « ساباتييه » و « سندريم » قد اثبتا ان مزج الاسيتيلين بالهدروجين بوجود النيكل من شأنه ان يعطي سائلاً شبيها بخلاصة البترول المكرر . والحال كانت تقنية المطاط والبترول تتقدمان تقدماً حثيثاً بدلالة الحاجات الجديدة . وعلى نقيض الصمغ الهندي العجيني والعازل ، امكن استخدام المطاط ، الرخص والمـرن ، في صناعة الانابيب والسيور والاحذية . الا انه توجب اخضاعه لعمليات مختلفة تخص بالذكر منها الكبرتة التي أشار بها « غوديير » لتغيير طبيعته : فان احماءه في البخار يزيـــل عنه كل قابلية التصاق ويصلبه دون أن يزيل عنه صفاته المميزة . وكان اختراع المطاط لمجلات الدراجة قـد ابرز دوره المحتمل في الآلات المنتقلة من مكان الى آخر ، وأثبت ميشلين ذلك في السنة ١٨٩١ بمناسبة السباق بين باريس وبرست : وكان ميشلين حفيداً لصانع كرات واختـــام وسيور من المطاط مقيم في « كلرمون ـ فران » ؛ وكان نسيبه بالمصاهرة ، « ماك انتوش » ،قـد اكتشف قابلية ذوبان المطاط في البنزول . ولن يلبث دور طوق المطاط أن يصبح دوراً أولياً : ففـــي السنة ١٨٩٥ ظهرت السيارة الاولى ، « البرق » ، التي صنعها « بوجو » مزودة بمحرك « دايملر » ومركبة على أطواق من المطاط الخالص بعناية ميشلين؛ ثم عمت هذه الطريقة بعد السنة ١٩٠٥ . فارتبط مصير المطاط منذئذ بمصير العجلة والسيارة ولم تعد شجرة المطاط الـــبرية كافية لتموين المصانع التي تكبرت المطاط : فزرعت بعض الحبوب التي كان ويكهام قد جمعها في أمازونيـا وأسفرت عن نمو ٢٠٠٠ شجرة جميلة في حديقة « كيو » على مقربة من لندن ؛ ثم أرسلت هـذه الاشجار الى سيلان . ولن تلبث مشاجر آسيا الجنوبية أن تتسع بسرعة : فمن أصـل ١٢٤ الف طن انتجت في السنة ١٩١٤ لم يعط المطاط البرازيلي سوى ٤٩ الفاً،وقد عاد ثلاثة أرباع لاستهلاك الصناعي للولايات المتحدة .

وهي الولايات المتحدة كذلك ما سارت في الطليعة لجهة انتاج البترول . وان هذا السائل ، الذي اعتبر نهائياً كمصدر للطاقة ، قد عرف في روسيا باسم النفط وفي آسيـــا باسم الزفت وفي الغرب باسم البترول او « الزيت » . ولكن تكريره بعث الآمال في استخدامه كوقود للدفـع الى الامام . وقد ابتكرت بالفعل مساخن قادرة على الحلول بجدوى محل الفحم الحجـــري في السفن . فزودت بها سفينتان في الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ كما زُود بها يخت نابوليون الثالث . واخذ الروس يسيرون سفنهم في بحر قزوين وقاطرات خـــط « باكو – تفليس » بدردي التكرير او « مازود » ، الذي كانت طاقته الحرارية ضعف طاقة الفحم الحجـري . ثم أتاح اتقان المحرك المسير بالغاز الاستفادة من غاز البترول . الا أن التقدم بقي بطيئاً حتى السنة ١٨٩٥ تقريباً . فقد كشف التكرير المتقن والمحرك المسير بانفجار الغاز آنذاك عن كل ما يمكن ان ينتظره الانسان من الوقود السائل . وارتفعت كمية البترول المستخرج من ٨ ملايـين طـــن في السنة ١٨٩٠ الى ٥٦ مليونـــاً في السنة ١٩١٤ ، استخرج منهـــا ٣٤ في امـــيركا الانكلوساكسونية وحدها . الا أن كميات البترول المكرر التي استهلكتها محركات السيارات والطائرات والغواصات لم تتجاوز ٦ ملايين طن ؛ فهي السفن التجـارية والسفن الحربية مـــا اقتطعت حصة الاسد حتى قبل ان يثبت محرك « ديزل » افضليته على موقد بسيط للاحـتراق الخارجي . ولكن التكرير ، بصرف النظر عما تستلزمه صناعة استخراج البترول ونقـــله من معدات واجهزة ضخمة ، استوجب عمليات تسخين وتصفية معقدة (طريقة الحمض الكبريتي ، ثم طريقة الانيدريد الكبريتي السائل منذ السنة ١٩١٠ ، وطريقة الـ « الكراكنغ » او التكرير بالحرارة المرتفعة تحت الضغط العالي ، في السنة ١٩١٢) . فهنا ايضاً ، تخطت الكيمياء الى حد بعيد مرحلة الانبيق لبترول الاضاءة [1] .

وما كانت السينما لتبصر النور كذلك بدونها اخيراً . فلا ريب في أن التصـوير الشمسي كان نقطة انطلاق هذا الفن الجديد (في السنة ١٨٧١ بدأ مادوكس يستعمل « جيلاتينو – برومور » الفضة) ؛ ولكن السلولويد الذي اخترعه الاخوان «هيات» ، وهو جسم صلب وشفاف وقابل الاحتراق وقادر على مقاومة العوامل الطبيعية ، قد اثبت أهليته لصناعة ورق التصوير السلبي (الذي اطلق عليه « ايستمان » اسم « ستريبنغ فيلم »). ولم يبق بعد ذلك سوى اكتشاف جهاز يتيح بواسطة التصوير تحقيق تركيب مراحل الحركة وبالتالي ايهام الناظر برؤية الصورة المتحركة. وقد اسهم في ذلك « رينو » في الدرجة الاولى ، و « ماراي » و « دمـني » و « اديسون » من بعده . فاستفاد الاخوان « اوغست » و « لويس لوميير » من تجاربهم الطويلة وتوفقـا في السنة ١٨٩٥ الى تحقيق اول عرض سينمائي امام جمهور من الناس . وعند ذلك جهز « جورج ميلييس »

---

(١) فهي قد لعبت دورها كذلك في صناعة الاسمنت المستعمل في البناء بالـ « باطون » الذي احدث ثورة في مستهل القرن العشرين .

اول « ستوديو » (مكان خاص للتصوير وتسجيل الصوت) ونجح في تحقيق تواقت الحـــاكي والسينما واهتدى الى بعض الاكتشافات ، كازدواجية الاشخاص . فولدت من ثم صناعة جديدة قامت على تعاون الكيمياء والآلية وضمت، في الولايات المتحدة مثلا ، شركات التصوير الهامة كـ « اديسون » و « ايستمان كوداك » .

من الآلة البخارية الى محركات الانفجار والاحتراق الداخلي : ظهور السيارة والطائرة

لم يتوقف القرن التاسع عشر يوماً عن مواصلة تحسين الآلة البخارية. ولكن النتيجة لم تتحسن قط : فقاطرة القطار الحديدي مثلا لم تحقق سوى تقدم بطيء . اجل لقد بدا أن الملاحـــة تدخر مستقبلا على بعض اللمعان للعنفة البخارية . وانما بقيت الحاجـة ماسة الى اختراع محرك يمكن تسييره اما بواسطة وقود سائل ، واما بخليط من الهواء والغاز ، ما دامت الكهرباء لم تحل محل الفحم الحجري للنقـــل البعيد . فأعطت الصيغة الاولى محرك الاحتراق الداخلي : يدخل السائل مباشرة الى الاسطوانة حيث يولّد الضغط القوي الاشتعال الذاتي . أجل لقد كان مفروضاً ان يتيح هذا المحرك الوفير الانتاج استخدام الزيوت الثقيـــلة ، المعدنية ، واللزجة ، كالمازوت و « زيت الغاز ». وعلى الرغم من ذلك فقد وجب انتظار السنة ١٨٩٣ لمشاهدة أول نموذج من هذا النوع – نمورج ديزل – يمكن استخدامه في الغواصة والسفينة والجرارة . وفي السنة ١٩١٢ امتحن في تسيير احدى القاطرات . الا ان استخدامه لن يعم الا بعد الحرب العالمية الاولى .

لعل « هويغنس » كان أول من فكر بمحرك الانفجار ، عندما اكتشف ان امتداد الغازات المتسبب عن احتراق البارود في اسطوانة ينتج طاقة آلية . وفي السنة ١٨٦٠ –وهـــي سنة ابتكار الطريقة « المركبة »– توفق « جان – اتيان لنوار » الى تحريك مكبس باحداث انفجار خليط من الهواء وغاز الانارة بواسطة شرر كهربائي : ولكنه لم يبتعد بعـــد عن مفهوم الآلة البخارية ، ولم يحقق سوى طاقة ضعيفة ، اذ أن آلته التي قطعت مسافة ١٨ كيلومتراً في ثـلاث ساعات استهلكت مترين مكعبين في الساعة للحصان الواحد . واذا فكر « بو دي روشا » بعيد ذلك بالضغط ودور الاوقات المتساوية الاربعة ، فان « سيغفريد ماركوس » لم يعتمد البـترول المكرر ولم يفكر بالآلة المغنطيسية الكهربائية للحصول على الشرر الا في السنة ١٨٧٥ .

سار الكونت « دي ديون » والميكانيكي « بوتون » على خطى « كونيو » وصنعا سيـــارة بخارية تسير على الطرقات في السنة ١٨٨٣ . وبعد مرور سنتين سارت السيارات بالبنزين المكرر دون أن تتجاوز سرعة ٢٠ كيلومتراً في الساعة . فظهر بعد ذلك عدد كبير من النماذج الـــتي اقتبست اشكال معظمها عن العربات التي تجرها الجياد .

ثم تحقق تقدمان حاسمان ابتداء من السنة ١٨٩١ : ابتكر « فرنان فورست » المحـــرك الرباعي الاسطوانات واخترع قبس الاشعال (بوجي) وزود جهاز اشباع الهواء بأبخرة البترول

المكرر بجهاز صغير ينظم دخول هذا البترول ؛ ولحق ارمان بوجو بسباق الدراجات بين باريس وبرست وعاد الى فالنتينيي التي انطلق منها . ثم ظهرت الدراجة البخارية بفضل دايملر الذي سير الدراجة العادية بمحرك غازي . وعلى طريق باريس – بوردو تفـــوق « لفشّور » وشريكه « بانهارد » على البخار ، وحسن ميشلين طوق المطاط الذي صممه « دنلوب » واستخدمه « بوجو » . واخترع « رينو » طريقة الجمع المباشر ، وجهز اول معرض للسيارات في ساحة الـ « انفاليد » . وفي السنة ١٩٠٠ ، ابان السباق بين باريس وتولوز ، « اقشعرت فرنسا جمعاء تأثراً ديموقراطياً ورياضياً » ، كما يروي « بول موران » . فترك الحصان للقوميين وروث الحصان والبغل للثوريين. وكان عدد السائقين في الطرقات العامة اقل من ان يسمح بنعتهم بالداهسين . وهم الشيوخ وحدهم من اعترضوا وطالبوا وزير الداخلية دون جدوى بمنع هذه الالعاب البهلوانية ، وقالوا يوجوب اعداد مقابر خاصة لسائقي السيارات على جوانب الطرق » . وبعد السنة ١٩٠٠ تحسن هيكل السيارة وتوازنها المعطط ومحركها واجهزة نقل الحركة فيها ، واتضح شكلها الخارجي المميز . وفي السنة ١٩١٤ سارت السيارة بسهولة بسرعة ٧٥ كيلومترا في الساعة . وبلغ عدد السيارات مليونين استخدم قرابة نصفها في الولايات المتحدة التي اضطرت الى انشاء شبكة طرقات بسرعة . اجل لقد تناول التجديد طرقات اوروبا ايضاً ؛ ولكن طرقات المشاة القديمة لم تكن معدة لسير العربات المزودة بالمحركات ، فاضطرت السلطات العامة الى تنظيم السرعة في المدن . ثم غطيت الطريق بأحد مشتقات البترول المكرر وهو القار ، فمنع الغبار .

في أواخر القرن الثامن عشر توصل الانسان الى الارتفاع في الهواء بواسطة كرى ملأى بالغاز : المنطاد المملوء بالهواء الساخن ، والمنطاد المملوء بغاز الاضاءة . فقد كتب ميشليه : « انهـــا لساعة نادرة ! لانهاية الفضاء تتسع شيئاً فشيئاً ... » ثم تميزت عمليات الصعود الى الجو ، بغية استكشاف الطبقات الجوية العليا ، بمزيد من المغامرة والجرأة . ففي السنة ١٨٧٤ ارتفع احـد المناطيد الى علو ٨٧٠٠ متر ، فغاب اثنان من ملاحيه عن رشدهما ولم يستيقظا قط . وفي السنة ١٩٠١ ارتفعت المناطيد الى اكثر من ١٠ آلاف متر .

تحقق منذئذ المنطاد المسير : وقد فكر « ديبوي دي لوم » و « جيفار » بالدفع الآلي الى الامام بواسطة المروحة والبخار . واحكم « رينار » و « كريس » جهازاً يسير بالكهرباء ، فكان ذلك حدثاً هاماً كرس له « فكتور هوغو » بعض أشعاره قبل ان تدركه المنية . فهل بالاستطاعـــة تزويد سفن جوية حقيقية بمحركات انفجار يا ترى ؟ لقد آمن الناس في المانيا بمستقبل ما هـــو أخف من الهواء ، وأسس الكونت « زبلين » في السنة ١٨٩٦ معامل انتجت سفناً جوية ضخمة : فان الـ « ساخسن » الذي سيبنى في السنة ١٩١٣ سيبلغ ١٤٠ متراً طـــولاً و ١٥ متراً قطراً ، وسيزود بثلاثة محركات قوة كل منها ١٧٠ حصانا وسيتسع لـ ٢٠ راكبا .

ولكن أليست اسطورة « ايكار » سوى خيال يا ترى ؟ فمنذ مشروع الطائرة الطوافة الذي

عرض على أكاديمية العلوم في السنة ١٧٨٤ حتى طائرة فورلانية المسيرة بالبخار التي اقلعت في السنة ١٨٧٨ ، قد انقضى قرن كامل تقريباً . وكم هم الذين تذكروا في هذه الاثناء رسوم « فنشي » او لم يتذكروها وحاولوا عبثاً الطيران على طريقة الطيور معرضين حياتهم للاخطار في اغلب الاحيان ؟ الا ان انصار ما هو اثقل من الهواء قد تعززت آمالهم بعد السنة ١٨٨٠ . وقد عبر « جول فيرن » عن هذه الثقة على لسان « روبور الفاتح » الذي تفوقت طائرته على المنطاد المسير . وللمرة الاولى توفق « كليمان ادر » الى الارتفاع عن الارض بوسائله الخاصة على الـ « أيول » بواسطة محرك بخاري . وفي السنة ١٨٩٧ ، في « صالون » طارت طائرته « افيون » مسافة ٣٠٠ متر ، وكانت شبيهة بالخفاش ؛ ولكنها تحطمت بهبة ريح شديدة ، فكف « أبو الطيران » عن مواصلة تحقيق مشروعه . فتوجب اكتشاف محرك آخر .

اهتدى اليه ميكانيكيا دراجات هما الاخوان « رايت » : في السنة ١٩٠٣ ، وبناء على تعليماتهما ، قذف بهما في الهواء بواسطة منجنيق في احدى ساحات اميركا أمام خمسة مشاهدين؛ فارتفعت الطائرة الى علو ثلاثة امتار وقطعت مسافة ٢٦٠ متراً بفضل محرك انفجار خفيف الوزن جداً . وبعد مرور ثلاث سنوات قطع البرازيلي « سانتوس – دیمون » ، صاحب احدى المزارع الكبرى ، الذي استهواه المنطاد من قبل ، مسافة ٢٢٠ متراً على ارتفاع ٦ امتار فوق الارض . فكانت نتيجة هذه المآثر الحقيقية التي أثارت الحماسة ، استحثاث الابحاث . وتعاقبت الاحداث بعد ذلك بسرعة مطردة : في السنة ١٩٠٨ قطع « فارمان » الكيلومتر الاول في مدار مقفل ، وفاز « ولبور رايت » بكأس ميشلين الاولى بتحليقه في الجو طيلة ساعتين ونصف الساعة وقطعه مسافة ١٢٤ كيلومتراً ؛ وفي السنة ١٩٠٩ اجتاز « لويس بليريو » بحر المانش عند كاليه ؛ وفي السنة ١٩١٠ اجتاز « شافيز » جبال الألب ؛ وفي السنة ١٩١٣ اجتاز « غاروس » المتوسط . وفي السنة ١٩١٤ جاوز الرقم القياسي ألف كيلومتر مسافة و١٣ ساعة طيرانا ، و ٦ آلاف متر ارتفاعاً ، ومئتي كيلومتر في الساعة سرعة . فما على الحرب العالمية الا ان تندلع لان البشر سوف يعرفون كيف يقاتلون في السماء .

نصيب التقنيات الحربية الكبير

ان تطبيقات العلوم الطبيعية والكيميائية ، التي هلل لها بعضهم ، قد اثارت المزيد من التحفظات لدى اولئك الذين استوقفهم بالتفضيل خضوع الانسان لعلم الآليات ووسائل التدمير الجديدة .

ولقد زعم بعضهم ان الفضل الاكبر في الانتاج بالجملة يعود الى الحرب الآلية ، وان الجراحة مدينة بنجاحاتها لساحات المعركة في الدرجة الاولى .

في اواخر القرن التاسع عشر بدأ عصر الفولاذ . فلا ارتياب بعد اليوم حول الدور الاولي الذي يلعبه القطار الحديدي وخطوطه الفولاذية في نقل القوى المحاربة والاعتدة . وهي اصناف الفولاذ المختلفة – ولا سيما الاصناف الخاصة – التي زادت من قوة الاسلحة وقوة الدرع : وقد

استفادت المدفعية والـ ، المدرعة من طرائق « بسمر » و « مارتين- سيمنس » . فسيطرت مصانع الاسلحة الكبرى على صناعة استخراج وتنقية المعادن بعد أن يسرت اعمالهـا الحروب التي نشبت بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ . فقام بعد ذلك ارتباط وثيق بينها وبين الحكومات وبين القيادات العسكرية العامة . واشتد هذا الارتباط كلما تطورت تقنيات الصناعـة . فالبندقية ما زالت أوسع الاسلحة انتشاراً ، وقد تحسنت تحسناً مستمراً . فحلت محل البندقية « شاسبو » المزودة بابرة لاطلاق النار ، التي كانت ملكة العمليات الحربية البرية في السنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، البندقية المزودة بجهاز حشو وبارود لا ينبعث منه الدخان ، الـتي تطلق طلقات متواترة « من طراز « لبل » و « موزر » .

ولكن المهندسين الاميركيين ، « حيرام مكسيم » و « ب. ر هوتشكيس » ، قـد احكما السلاح الذاتي الذي اطلق « ريفاي » عليه اسم مدفع الرصاص والذي حال تركيبه الدقيق دون استخدامه استخداماً فعالاً خلال الحرب الفرنسية الالمانية . وبعد ذلك بزمن قصير ظهر المدفع الذاتي الحركة السريع الاطـلاق الذي لم يلبث ان عُرف باسم المدفع الرشاش . وبالمقابـلة زاد المدفع المفرض من داخله والمطوق من خارجـه صلابة وبعد مرمى وقابلية حركة . وقد زوده الكولونيل « دي بانج » بصمام جعل حشوه من مؤخره اكثر فعالية . وزود كذلك بجهاز يمنع مفعول اندفاعه الى الوراء وبأجهزة تسديد تتيح الاطلاق غير المباشر. فبلغت سرعة القذائف المطلقة ، بعد اطلاقها مباشرة ، ٥٠٠ متر في الثانية . كما ان القذائف التي استطاعت المدفعيـة اطلاقها قد بلغت الطن وزناً .

لقد حدثت ثورة حقيقية في فن اطلاق النار . ففي السنة ١٨٧٠ ، نادراً ما استعمل غـير البارود الاسود الذي يرتقي استخدامه الى اواخر القرون الوسطى : ففكر « برتلو » باستبدال مزيج الفحم والكبريت وملح البارود هذا بأول اوكسيد الازوت السائل . ولكن الاميركيين كانوا قد استخدموا خلال الحرب الانفصالية بعض المواد المتفجرة المعول في تركيبهـا على بعض الغازات السريعة الانفجار. وبينما ولى «توربين » وجهه شطر البيكرات وحصل على «املينيت» آثـر « فياي » النيتروسلولوز المعروف باسم قطن البارود او القطن المنفجر ، و « نوبـل » النيتروغليسرين الذي يعطي الديناميت . وقد اثبت هذا الاخير فاعليته بتدمير صخر تحت سطح البحر في مرفأ نيويورك وبالمساعدة على فتح نفق « غوتار » . ولجأ الارهابيون الايرلنديون اليـه لنشر الذعر في انكلترا . ثم توفق « فياي » الى تسهيل استعمال هذه المواد في الاطـلاق بازالة خاصياتها التحطيمية . فجاء من ثم البارود الذي لا ينبعث منه الدخان يضاعف قوة النار بحشوة محدودة منه .

استفيد من كافة الاستحداثات. فقد سهلت ساعة قياس الوقت الدقيقة تقدير المدفعيين لسرعة القذائف عند اطلاقها . وهو احد هؤلاء المدفعيين ، « كولين » ، من اعلن : « ان التلغراف قد بدّل ظروف الحرب تبديلاً كلياً باتاحته تولي القيادة من مسافات بعيدة » .

الا ان واحداً لا يعلم ما اذا كان الهجوم سيفضل الدفاع . وقد مال معظم الاختصاصيين الى العمليات الطويلة ، وعمليات « الخنادق » و « الحصار » ؛ ويبدو ان اختبار الحرب في منشوريا كان حجة قاطعة من هذا القبيل. وفي السنة ١٩١٢ ، بينما اصر القائد «دي برناردي» ، وفاقاً لنظريات قيادة الجيش الالماني التي اوصت بزيادة قوة النار والهجوم حتى الموت ، على ان يكتب : « يجب استفراغ المجهود بغية احراز النصر بالسرعة القصوى » ، اجاب الكولونيل « مونتانيه » : « النهكة هي ما سوف يقرر مصير المعارك » . ولكن القائلين بهذا الراي او ذاك قد حسبوا حساب النتائج المرعبة التي سيسفر عنها الاصطدام الاول . فتصرفوا من ثم بحيث يكون هذا الاصطدام قادراً على تأمين النصر الكامل .

أُعيرت الاهتمام كذلك الاختراعات الجديدة في الحرب البحرية . فان اعتماد البخار كقوة محركة لم يبدل ظروف المعركة كما بدّلها ظهور التدريع والمتفجرات الازوتية في آن واحد تقريباً. وقد بدأ السباق بين هذه وذاك . فبنيت السفينة المدرعة ذات الابراج التي بلغت سماكة فولاذ هيكلها حتى ٥٠ سنتمترا وعرفت قياسات لم تعرفها السفن من قبل : فحوالي السنة ١٨٩٠ تجاوز طولها ١٠٠ متر واتسعت لحمول ١٠ أو ١٥ الف برميل ولـ ٨٠٠ أو ٩٠٠ طن وقوداً ، وسارت بسرعة تتراوح بين ١٥ و١٧ عقدة . فكانت شبيهة بحصن بحري حقيقي وقادرة على الشروع في القتال من مسافة بعيدة تساندها الطرادات المدرعة والطرادات المحمية التي كانت اسرع سيراً وأقل قوة . ولم يكن اعداؤها نيران العدو فحسب ، بل الالغام وقذائف نسف السفن ايضاً . وقد اوحت قذيفة « وايتهد » ، الذاتية الحركة ، بفكرة السفينة النسافة السريعة التي زودت بأنابيب لرمي القذائف ، والتي اثبتت الحرب الروسية اليابانية مرونتها . ثم جاءت الكهرباء تتولى ادارة اجهزة الحركة والعلائم وتطلق الالغام .

ثم تعاظم شأن الغواصة التي استلزمت مجموع اجهزة محكمة ارتبطت كذلك بأجهزة الحركة الكهربائية . فقد واصل القرن ابحاثه منذ ان توفق « فولتون » الى تفويض الـ « نوتيلوس » في السنة ١٨٠٠ . فسمي « برون » و « نوردنفلت » الى تحقيق جهاز يكون فيه الهواء مضغوطاً وتكون اقسامه الداخلية محكمة لا ينفذ اليها الماء . وفي السنة ١٨٩٩ ، ابتكر « لوبوف » الـ « نارفال » : و صممت هذه الغواصة بهيكلين رتبت بينهما الاثقال بغية اتاحة التفويض والعودة الى سطح الماء وسارت بواسطة آلة بخارية ؛ وادارت اثناء الغوص محركاً كهربائياً واستخدمت المثقاق والبركار الجيروسكوبي . ثم لم تلبث ان اعتمدت محرك ديزل . وكانت قادرة على القيام بعمليات الاستكشاف وزرع الالغام ورمي القذائف فبدلت بدورها معطيات الستراتيجية البحرية .

كانت هذه الاخيرة موضوع دراسات كثيرة . الا ان كتاب الاميرال « ماهان » ، « اثر القوة البحرية في التاريخ » ، قد هيج الافكار ، والمنافسة الانكليزية الالمانية اسهمت اسهاماً

قوياً في تقدم التقنيات .

في السنة ١٩٠٥ ، وتحت تأثير الاميرال « فيشر » ، انزلت بريطانيا العظمى الى البحر الـ « دردنوت » ، المثال الجديد للسفينة المدرعة الكبرى ، الذي جاوز محموله ١٨٠٠٠ برميل : كان مزوداً بعنفات بخارية ومسلحاً بـ ١٠ مدافع من عيار ٣٠٥ ميلمترات و ٢٤ مدفعاً من عيار ٧٦ ، وقد استغني فيه عن المدفعية الثانوية . فكانت اسلحته من ثم خير اسلحة لمعركة يشترك فيها من مسافة بعيدة .

ثم اخذ الاميرال فيشر نفسه بعين الاعتبار فوائد البترول الفضلى ، فأمر باستبدال الفحم بالمازوت . فضوعفت دائرة العمل بوزن وقود متساو ، وزال الدخان . ولكن هذا التغيير كان في اولى مراحله فقط حين نشب نزاع السنة ١٩١٤ .

وكان مقدراً للحرب العالمية ان توسع بسرعة استعمال الوقود الجديد والآلات المسيرة بمحركات انفجار او احتراق داخلي .

تباشير ثورة علمية جديدة : الاشعاع الذاتي والنسبية

في الوقت الذي تكاثرت فيه النتائج العملية ، والرهيبة في اغلب الاحيان ، للاختراعات التي بدا القرن وكأنه يعلق عليها سمعته ، كانت تُعد ثورة حقيقية في حقلي علم الرياضيات وعلم الطبيعة . بينما كان القائلون بامكانات العلم الكلية يعتبرون العلم ، حوالي السنوات ١٨٨٠–١٨٩٠ ، مقعداً على مبادىء متينة ، انهار بناء الحتمية ، الذي اعتبر كلاسيكياً ، في سنوات قليلة امام سلسلة من الاكتشافات غير المرتقبة . فبعد الاشعة المهبطية التي سُلم بالعديد من النظريات حول طبيعتها ، اكتشفت في آن واحد تقريباً – اواخر السنة ١٨٩٥ واوائل السنة ١٨٩٦ – الاشعة التي دل « رونتجن » عليها بالحرف X ، والاشعة التي عزاها « هنري بكريل » للاورانيوم والتي لن يلبث « بيير وماري كوري » ان يهتديا اليها (١٨٩٨) منبثقة بمزيد من القوة عن جسمين آخرين هما البولونيوم ولا سيما الراديوم . وهكذا ظهر الاشعاع الذاتي أو النشاط الاشعاعي .

اجل لقد وجد في الشعاع الذاتي كما في الاشعة المهبطية الكهيرب المعروف – دل عليه لورنز في السنة ١٨٩٥ كعنصر تركيب – والموجات الهرتزية واشعة X والنور نفسه ؛ وانها اكتشف فيه كذلك إشعاع اطلق عليه اسم اشعاع «غاما» كما في اشعة X ؛ واخيراً حقق « روذر فورد» شخصية الاشعة « الفا » كنويات دون كهيربات لذرات الهيليوم . وهنا كان مثار الدهشة .

فما هي سنن الاشعاع يا ترى ؟ لقد لاحظ « لنار » ان اشعة ماوراء البنفسجي تنتزع بعض الكهيربات من المادة بينما لا تستطيع اشعة ما دون الاحمر ذلك . فكل جسم يبث من ثم اشعاعاته الخاصة بذبذباته الخاصة .

ثم جاء « ماكس بلانك » في السنة ١٩٠٠ يدلي بدلوه ايضاً ، فأنكر صدور الطاقة صدوراً مستمراً وصاغ مبدأ جديداً مفاده ان الطاقة تبدو كذلك بشكل جزئيات تنبعث عن المادة

انبعاثاً غير مستمر ؛ أما قيمة هذه الجزئيات فنسبية للتواتر .

وبعد انقضاء خمس سنوات اثبت « البير انشتاين » صحة هذه الثابتة بتطبيقها على مفعول الضوء والكهرباء الذي اوضحه هرتز في السنة ١٨٨٧ والذي يلخص بأن النور ينتزع بعض الكهيربات من المادة ؛ وهكذا يظهر ان « لنار » قد تثبت الشيء دون ان يستطيع تفسيره .

وهكذا نشأت في وقت واحد النظرية الذرية ونظرية النسبية ، وقد اتصل بالاولى علم الذرات والكهيربات الذي تختلف سننه اختلافاً كلياً عن سنن علم الطبيعة الكلاسيكي . فحدد « روذر فورد » الذرة في السنة ١٩١١ بأنها متكونة من كهيربات تدور حول نواة ؛ وابان ان تصنيف الاجسام وفاقاً لعدد الكهيربات يتيح استثبات جدول اقترحه « مندليف » منذ السنة ١٨٦٩ . اما « بوهر » فقد شدد الكلام في السنة ١٩١٣ على الطاقة المنبعثة عن الكهيرب، بحسب نظرية الجزئيات ، شريطة ان يقفز من ذرة الى اخرى. فتكون هذه الطاقة من ثم غير مستمرة ، خلافاً لقواعد علم خاصيات التيارات الكهربائية ، وتتكون اما من جزئيات طاقة الضوء او اشعة ما وراء البنفسجي أو اشعة ما دون الاحمر أو اشعة ج ايضاً. ومنذ السنة ١٩٠٠، اي منذ « روذر فورد » و«سودي» عكف عدد كبير من العلماء – « موريس دي بروي » ، «ميليكان» ، « ج. – ج. طومسون » ، « ولسون » ، « استون » ، وسواهم – على قياس عناصر هذا الكون الجديد ، وحققوا تشابه الخواص ، بينما حدد « لنجفين » بدقة نظرية المغناطيسية .

وجاء علم الرياضيات ينصف ويدعم علم الطبيعة الجديد . فتخطى « فيتو فولتيرا » مرحلة المعادلات التفاضلية التي سبق لـ « هنري بوانكاريه » ان وجد لها اسلوباً عاماً ووصل الى المعادلات التكاملية ؛ ونقل التحليل الى الدالات التي كشف القرن التاسع عشر القناع عنها والتي تعمق في درسها هنري بوانكاريه نفسه و « وايرستراس » و « اميل بيكار » . وكان جورج كانتور من جهته قد توسع في مفهوم اللانهاية انطلاقا من مجموع الاعداد العادمة القياس ، مما قلقل مفهوم الاستمرار . وسيطبق « بير » بدوره نظرية المجاميع والدالات هذه ، كما ان « اميل بوريل » و « لوبسغ » سيحددان بعد ذلك خاصيات الدالات لعدة متحولات . اما نظريات الفئات التي طلع بها « غالوا » وتبناها « كوشي » و « كميل جوردان » من بعده ، فقد كملها اميل بيكار و « كارتان » ايضا . والحال كانت فئة « لورنز » مدخلا للنسبية المحصورة .

في هذه الاثناء كانت هذه النظرية آخذة في شق طريقها . فقد اثبت ميكلسون في السنة ١٨٨١ ان سرعة النور واحدة في كافة الاتجاهات . فكان اثباته هذا ملاحظة مدهشة اذ ان حركة المصدر الضوئي او حركة المراقب لا تغيران في الامر شيئاً . ثم انطلق انشتاين من هذا المبدأ ليثبت أن الزمان والفضاء ليسا مطلقين وان حجم جسم ما يتبدل بتبدل سرعته وان المادة نفسها ليست سوى شكل من اشكال الطاقة : فأدى ذلك الى انهيار الآلية الكلاسيكية كلياً بدورها والى استثبات نظرية الجزئيات في نطاق الاجسام المتناهية الصغر . وسوف يجمع

لويس دي بروي في عهد لاحق بين الكهرب والموجـــة ويؤسس الآلية التموجيـة : ولكن « لان » كان قد أثبت في السنة ١٩١٢ طبيعة X التموجية . وسينتقل انشتين من جهته من نسبية « محصورة » الى نسبية « شاملة ». انها لآفاق جديدة كل الجدة في طبيعة الكون بالذات خلّفت بعيداً وراءها نظريات كوبرنيك وغاليليو ونيوتون ولابلاس .

نحو الثقافة الشعبية والرياضة

قليلون جداً هم الذين رافقوا تقدم العلم وقدروا اهميته . فـــما القول عن الجماهير التي سُدّ بابه سداً محكماً بالنسبة اليها .

في نظر « دورخايم »، « ان الانسان الذي يجب ان تحققه التربية فينا ليس الانسان كما صنعته الطبيعة بل كما اراد المجتمع ان يكون » . لذلك فقد فرض المجتمع ابداً مدرسة على مثاله . وقـد عرف ذلك المحافظون والمجددون والثوريون على السواء . ولكن المسألة ازدادت خطورة يوماً بعد يوم لان الذين يطالبون بأن يكون لهم مكانهم في وليمة المعرفة قـــد تزايد عددهم تزايداً مطرداً .

اتاحت مطامع « هو » و « مارينوني » ومرّصفة « مرغنتالر » ثم سابكة « لانستون » تخفيض ثمن الكتاب الذي بات اكثر استهواء وأوفر حياة بفضل التصاوير والرسوم الزهيدة الكلفة . وصدر الكتاب المدرسي والقصة الشعبية بأعداد كبرى . ولكن الصحيفة ايضاً استفادت من النجاحات التقنية نفسها : فقد بيعت بـ ١٠،٠ فرنـــك في فرنسا قبيل حرب السنة ١٩١٤ . وأصبحت من ثم في متناول الجميع . وكانت أداة اعلام عظيمة ، فوفرت المعلومات والألاهي ؛ وتملقت الرأي العام ووجهته ؛ فراعت جانبها واستخدمتها السلطات العامة والمصالح الخاصة : وقد امست لعمري احدى اعظم القوى الاجتماعية . وطبعت للشباب المجلة الدورية المسلية : فأصدرت جمعية « اوفنستات » الباريسية مجلة « المدهش » التي خلقت مثال « الاقـدام المطلية بالنيكل » ، و « الفتاة » و « الشجاع » و « الجدجد ». وقامت الاكشاك في الشوارع والساحات الآهلة جداً حيث بيعت كميات كبرى من المطبوعات الزهيدة الثمن (روايات عاطفية وبوليسية وروايات مغامرات) .

استمرت الامية في التقهقر ، ولكن احداً لا يستطيع تحديد اهمية هذا التراجع بدقـة . فان نسبة الاميين في الخدمة العسكرية التي هبطت في فرنسا من ١٤ الى ٤٪ بـــين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ ، قد انحدرت الى ٢٪ في السنة ١٩١٤ ؛ ولكن مجندين كثيرين لم يحسنوا القراءة والكتابة . وبينما تزايد عدد الطلاب تزايداً مستمراً في الجامعات ، القديمة والجديدة منهـــا ، انتشر التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي بسرعة . ففي انكلترا مثـــلا كلف « قانون التربية » الصادر في السنة ١٩٠٢ الجمعيات التمثيلية تأمين نفقات التعليم دون إلغاء المعاهد الخاصة ؛ وقد أملته رغبة في تسهيل انتقال التلامذة من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية . اما في فرنسا وبلجيكا حيث ما زال الصراع على أشده بين العلمانيين والجمعيات الدينية ، فقد اعترف بوجوب

البقاء في المدرسة حتى سن الثانية عشرة او الرابعة عشرة ؛ وتواصل الدروس بعد ذلك اما في المدارس الابتدائية العليا واما في المدارس التقنية .

ارتسمت حركة جديدة استهدفت تجديد الاساليب التربوية ، بعد أن أظهرت سيكولوجية الطفل فوائد التعليم المتفق واذواق كل عمر وامكاناته . فنادى « جون ديواي » و كرشنستاينر و « ألفرد بينه » بالاساليب المعروفة بالاساليب الفعالة التي استنتجتها « ماريا مونتسوري » و « ديكرولي » من ملاحظات اجرياها على المتخلفين وغير الطبيعيين .

وكانت الشاغلة نفسها سبباً لقيام الكشفية : فقد رغب مؤسس هذه الحركة ، احد ضباط الجيش البريطاني ، « بادن ـ باول » ، في انماء بداهة النشاط المفيد والميل اليه عند الولد ، عن طريق اللعب والانضباط المختار بحرية . وطمعت الكشفية بأن تكون مجتمع اولاد يخضع لقانون ادبي . وربطت بين سلامة الجسم وسلامة العقل . ويرد نجاحها الى حد بعيد بعد السنة ١٩١٠ الى حاجة الفرار نحو الطبيعة التي يشعر بها سكان المدن .

وللسبب عينه نرى أن الرياضة التي توفر فوائد الراحة والصحة معاً ـ للعمال اليدويين ورجال الفكر على السواء ـ احتلت المرتبة الاولى في النشاطات الاجتماعية. اجل غالبا ما تفرض مباريات وحشية وتتطلب جهوداً ترهق الجسم . ولكنها تستهوي وتذهب بالعقل . فالملاكمة حدث هام في الولايات المتحدة . وأسماء مشاهير المصارعين اخذت تثير اهتمام الرأي العام في العالم القديم ؛ وباتت شعبية سائقي الدراجات المشتركين في سباق الدوران حول فرنسا تفوق شعبية معظم البرلمانيين في قصر بوربون وفي مجلس الشيوخ . فانتقلت مفردات انكليزية كثيرة (*tennis . rugby . football, basket - ball , base - ball*) الى لغات الشعوب الاخرى . وانتشرت الجمعيات الرياضية في العالم اجمع وعقدت فيما بينها علائق زادت وثوقاً يوماً بعد يوم . وفي فرنسا كرس « بيير دى كوبرتين » نشاطه «لبث التمارين الرياضية في التربية» وأطلق فكرة اعادة الالعاب الاولمبية التي بعثت في السنة ١٨٩٦ في اثينا واشتركت فيها ١٣ دولة . فدخلت المباراة العصرية في التاريخ حين بعثت اولمبيا على نطاق عالمي .

واذا رسم « فرنيه » و « جريكو » فرسان السباق والجياد الاصيلة ، فان رياضة ركوب الخيل قد الهمت كذلك « مانيه » و « ديغا » ، بينما عالج « مونيه » و « سورا » المشاهد المائية بلذة . وسيطرت المدرسة التكعيبية بدورها على المواضيع الرياضية .

الانتاج الادبي الوفير والنهضة المسرحية

فما القول عن الآداب الجميلة والفنون الجميلة التي انما تخاطب العقول الجميلة بحسب التقليد ؟

افضت « الحركة العرقوبية » التي ظهرت بين السنة ١٨٨٠ و السنة ١٨٩٠ ـ و « هي أغرب حركات القرن » كما يقول بارّيس ـ الى المحطاط الواقعية والطبيعية في فرنسا المحطاطاً نهائياً . واذا كان مقدراً لهذه النزعات ان تتفتح بعد ذلك في اوروبا واميركا ، ولا سيما في القصة ، فقد سيطرت العاطفة والغريزة في الشعر بفضل الرمزية .

وتعددت المدارس في كل مكان تقريباً وتنوعت أساليب التعبير الذي يفسرهـــا ليس فورة الافكار فحسب ، بل تزايد عدد الكتاب العائشين من قلمهم وتزايد عدد القراء ايضاً . وقـــد انصرف اصحاب الاذواق الرقيقة و «منحطو اواخر القرن» الى الاكثار من المعابد الصغرى بلذة خاصة ؛ فآثروا التمييز ، وحتى العزلة ، على التجمع .

أما الجيل الطالع والباحث عن نفسه فقـــد عبد الصدق والاعتراف الشخصي واستطاب التفكير بمسائل المصير البشري الكبرى . وقد شجع الازدراء بالمذهب العقلي الخدّاع انتقـال العاطفة الدينية الى الهجوم ، ودفع الى التحليل الباطني والبحث في الوعي الغامض والمسائـل الجنسية ؛ اضف الى هذا ان وصف البؤس الاجتماعي وصفاً عنيفاً وشجياً كان على الدوام موضوعاً جذاباً او مفيدا .

بعد السنة ١٩٠٠ استمرت افنان الشجرة الرمزية في الامتداد فوق اوروبا الشرقيـــة ، فأزهرت في روسيا ازهاراً جميلا . ولكنها اخذت تذبـــل من جهة الغرب . فنظم بعض الشعراء المبتدعين شعراً طليقاً جدا او مدروساً جداً ، نذكر منهم « ابولينير » ، « ييتس » ، و جامس ، « هولز » ، « دهمل » و « جورج » ، « فرودنغ » . وطلع الايطالي « مارينـــتي » بمدرسة « المستقبل » في السنة ١٩٠٩ ، واسس مواطنه « اونغارتي » مدرسة « الحطامية » ؛ وقد تأثر كلاهما بـ « كروشي » المؤرخ والفيلسوف العنادي . ولاحت كذلك دلائل مدرسة استقبالية في روسيا . ولوحظت في اسبانيا حركة عرفت « بحركة السنة ١٨٩٨ » طالبت بعد الهزيمـة في كوبا والفيليبين بفحص الضمير فحصاً متيقظاً ؛ وفي الوقت نفسه مشى « روبن داريو » على رأس « مدرسة عصرية » غنائية لم تلبث ان استهوت معظم بلدان اميركا اللاتينية . وبعد ان قدرت المانيا طبيعية « هوبتمن » و « سودرمن » التي وقفت في وجهها مدرسة الرومنطيقيين الجدد ، « باهر » ، و « هوفمنستاهل » و شنيتزلر في النمسا ، تذوقت « الانطباعية » ، الذاتية ثم ـ بعد السنة ١٩١٢ ـ « التعبيرية » التي انفت من الوصف ولم تهتم الا بجوهر الاشياء . وسيطر الغنائيون والفرديون من بين « رجال السنة ١٨٨٠ » مدة طويلة في هولندا . واعتنق الغنائية كذلك مشاهير الشعر السكندينافي . اما النهضة الادبية التي حدثت من قبل بـــين البلطيق والادرياتيك وايجيه ، فما زالت تثبت اقدامها ، ولا سيما عند البولونيين والتشيكيين والهنغاريين والرومانيين .

كان « ابسن » قد نقل الرمزية الى المسرح ؛ وقد عرفت مسرحيته « مترلنك » نجاحاً عظيماً جـداً . ثم ظهر التطور نحو الصوفية في مؤلفات « كلوديل » و « هوبتمن » ، بينما أنتجت ، ارضاء للمشاهدين المتزايدين عدداً يوماً بعـــد يوم ، مسرحيات النظريات والمآسي الاجتماعية او السيكولوجية ، والمؤلفات المرتكزة الى التحليل العاطفي دون غيره . وحاولت المهزلة التملص من الدسيسة المبتذلة بالفكاهة والتهكم : وقد اشتهر في هذا الحقل « كورتلين » « وتريستان برنار

و « اوسكار وايلد » وبرنارد شو. اما « بيرندلو »، الذي انتقل من القصة الى المسرح وذهب في التأمل الباطني حتى النهاية ، فقد ابتغى اثبات صفة الوجود المغلقة .

توفر للمسرح من الوسائل الجديدة وبلغ من تنوع الالوان ما حـــال دون سيطرة اية نزعة او اتجاه . فمن جهة جمّلت تقنيات الاضاءة التمثيل الذي سعى وراء المشهد العظيم؛ ومن جهة اخرى حاول الاداء ، بردة فعل طبيعية ، اعادة الانتباه الى تمثيل الممثلين بالاستغناء عن التزيـــين المسرحي جهد المستطاع . فبعد « أدولف ابيا » ، حرص « لونييه —بو » في مسرح « العمل » ، و « كوبو » في مسرح « برج الحمام العتيق » ، و « انطوان » في « المسرح الحر » ، على التجديد الذي رأوا فيه رأي « ماكس رينهارت » مؤسس « المسرح الصغير » ، ورأي « ستانسلافسكي » مؤسس «المسرح الفني» وتلميذه « مايرهولد » . وان مسرح « الطليعة » هذا قـد اثار الاهتمام بتصميمه على الاتيان بشيء جديد على الرغم من تلمسه طريقه . وفي باريس احرزت التمثيليات الكلاسيكية والرومنطيقية مزيداً من النجاح بفضل ممثلين مشهورين بسحر فمنهم من أمثـــال « مونيه— سولي » و « ساره برنار » . زد على ذلك ان هوى المأساة القـــديمة قد ظهر في اطار الابنية التي لم تقو الايام على تدميرها نهائياً. وبينما امسى الرقص الكلاسيكي ايقاعياً او حراً بتأثير من « ايزادورا دونكان » ، توصلت مدرسة الرقص الرمزي الروسي ومدرسـة « دياغيليف » الى خلق مشاهد تأخذ بمجامع القلوب، معيدتين الاعتبار في الوقت نفسه الى رقص الذكور ايضاً: انها لظاهرة جديدة للاعداء الشرقي الذي تمناه ومهد له الطريق من قبل « مالارميه » و « ديغا » وكيفته عبقرية « سترافنسكي » وسلمت به عبقرية « رافيل ».

اوائل ثورة موسيقية

لم تتوصل هيمنة « فاغنر » الى الاستقرار والرسوخ دون مقاومة، على الرغم من وضوحها ومن خدمة هوى الرمزية والنفوذ الالماني لها . فان ايطاليا كانت تفاخر بـ « فردي » وقـــد اسست المدرسة الواقعية الايطالية للادب والموسيقى ؛ وفي فرنسا عرف النغم كذلك ، على طريقة « غونو » ، نجاحاً ثابتاً راهناً . اضف الى ذلك ان الموسيقى الغنائية ما زالت اختيارية : ففي فيينا مثلاً نرى في عـــداد التمثيليات الغنائية المقررة « لوهنغرين » و « المشهّرون » و « عايدا » و « مينيون » وحتى الـ « هوغنو » . وظهرت مُغنّاة « بوريس غودونوف » لـ « موسورغسكي » فريدة من نوعها بفعـــل اختصار الملحن الالقائي المؤثر في النفس واهمية اللهجات الشعبية . ولحق « براهمز »، عـــبر الضوضاء الرومنطيقية ، بالاشكال البيتوفنية . وبشر فرانـــك بـ « عودة الى باخ » . نعم الشعور بأن كلاسيكية جديدة ستظهر في الافق : ولكن ظهورها قد تأخر .

فقد جرى حينذاك الحادث العرضي الذي اطلق عليه اسم الثورة الديبوسية . فاهتم «غبرييل فوريه » منذئذ بالعارض الزائل والافراط التوافقي الذي جعل موسيقاه تمت بصلة الى الاسلوب الانطباعي واشركه في الوقت نفسه بجمال الرمزية . وعلى غراره ، استوحى « كلود ديبوسي »

« فرلين » واحب « بودلير » وتردد الى مجلس المالارميين : فوضع في السنة ١٨٩٢ « مدخل الى ظهيرة احد آلهة الحقول» . واذا لم ينج فيه من السحر الفاغنري، فانه قد قاوم قول استاذ بايروت بالسلم الملون؛ واذا لم يستوح « بوريس غودونوف » فقد اوثق الربط، على طريقة «موسورغسكي»، بين الغناء والكلام وفصل بين انواع الآلات الموسيقية المختلفة . وبموجب «المدخل» احتجب الخط وراء اللون ، وضحى اللحن بنفسه على مذبح توافق الاصوات، وملكت العاطفة نفسها خجلاً . وتأمن بعض الشهرة في السنة ١٩٠٢ ، بفضل « بلياس وميليزاند » ، لهذه التقنية الجديدة ، المقيدة والرقيقة والحالمة .

وفي لغة اكثر شهوانية وأشد قساوة اطال « رافيل » و « روسيل » و « فلوران شميت » عمر الديبوسية في فرنسا على الرغم من انهم تخطوها . ففي عهد « البنيز » و « غرانادوس » و «مانويل دي فالا » ، اراد « موريس رافيل » ان تكون اسبانيا — بالاضافة الى الرقص والمشهد الفاتن — احد مواضيعه المفضلة : فال « لاهابانيرا » ، ورقصة ال « بافان»، و « القصيدة الاسبانية » و « الساعة الاسبانية » هي من أشهر ما انتجه صاحب الذوق الرقيق هذا .

اما الحقيقة فهي ان الانطباعية المتميزة بتوافقاتها الخالصة لم تلبث ان استنفدت مرادها وتأثيرها . فبالاضافة الى ان ديبوسي نفسه قد أسهم في تحوير المدلول التقليدي لخاصة اللحن ، جرى البحث بالمقابلة ، في قلب « مدرسة المغنين » ، عن لون جديد عند « فنسان دندي » و « سكريابين » و « بيلا برتوك » و « ريشار شتراوس » (« الموسيقي الالماني العبقري الوحيد في ايامنا » كما قال عنه « رومان رولان » في السنة ١٩٠٥) . وسلك « اريك ساتي » طريق « التحير اللحني » وابتكر « ارنولد شونبرغ » سلما موسيقياً حقيقاً لا لحن فيه اقصي عنه كل ايقاع بارز . وبدت انكلترا ، حيث تأسس في السنة ١٩٠٩ « تحالف موسيقي»، وكأنها اهتدت الى سر الخلق المدفون في ارضها منذ وفاة « بورسيل ». وفي هذه الاثناء برزت مواهب « ايفور سترافنسكي » : فتعاقبت مؤلفاته ، « الطير الناري » و « بتروشكا » و « مسح الربيع » (وقد تكلم كوكتو عن « قنبلة المسح ») ، التي الفت موسيقى متعددة الاصوات انطوت على رسم غاية في الجرأة والتنوع . وجاء بروكوفييف في السنة ١٩١٤ يدعم هجوم « البرابرة » هذا بـ الملحق الغنُزي »

سيقول سترافنسكي عن موسيقى الجاز انها « تقليد الفولكلور » . ولكن الفن الجديد ، الذي كان جامحاً حيناً وشهوانياً حيناً آخر ، لم يستطع التملص من واقعه : تحالف بين «البربري» والبدائي . فموسيقى الجاز هي إلى حد ما ، انتقام الزنوج ، في اميركا اولا ، بألحانها الروحية الدينية والحنينية وانغامها الصارخة المسرحية او المضحكة . ولكنها كذلك تكييف الموسيقى تكييفاً مدهشاً وفاقاً للاسلوب الضاج الذي تميزت به الحضارة الآلية .

وهي في كلا الحالين بعض الهزيمة لاوروبا القديمة .

الاتجاهات الجديدة في الفنون التصويرية
ردة الفعل ضد الانطباعية

تعددت الصالونات والمعارض . وتكاثر السماسرة والهواة . ودخلت اميركا المسرح بقابلية الجبابرة : فقد جمع « جون بيربونت مورغان » العاديات البيزنطية المنقشة بالميناء واواني الخزف الصيني ولوحات « رافائيل » و « رمبرانت » و « فراغونار » و « غاينسبورو » ودفع ١٠٠ ٠٠٠ دولار ثمناً لاحدى لوحات « فرمير » ؛ ولكن مورغان وامثاله اشتروا ما عرفوا بوجوده عن طريق الاعلان . وانما حدث احياناً ان الولع كان نتيجة خداع . وربما صح ذلك في « مثل » لوحة « الجركي » لـ « روسو » التي روجها « ابولينير » و « سالمون » ، بحسب « فرنسيس كارلو » ، واستحسنها « غوغان » و « جارتي » و « ريمي دي غورمون » . وعلى الرغم من ذلك فان « فان غوغ » لم يعرف لا النجاح التجاري ولا اهتمام الهواة الصامت ؛ ونقل « ماتيس » لوحاته إلى الصالون على عربات جرها بيده ؛ وتخلى « اوتريلو » عن لوحاته لبائعي الخمور في مونمارتر مقابل قطعة نقدية او قنينة نبيذ .

وفرض رودان « الصاخب » نفسه بفضل الطابع المنجع في النفس الذي طبع به القلق البشري . فهو قد ضحى بكل شيء على مذبح التعبير والرمز . وجملة القول انه بقي منعزلا بعض الانعزال . واما بورديل « الخلاق » فقد تفيد اكثر منه بمستلزمات الخط الهندسي ورجع الى الفن القديم الذي اوحى به علم الآثار . وهوي « مايول » الخطوط القليلة الانحناء التي سعى وراءها الاسلوب المصري . وقد برزت مواهب قوية في كل مكان تقريباً . « قولب » في المانيا ، و « ابشتين » في انكلترا ، و « وشتورسا » في بو هيميا ؛ ولكن النقاشة عانت من تعذر اشتراكها مع التصوير الذي ابتعد راضياً عن الفنون الاخرى وعن الجماهير ، ومع هندسة العمارة التي لم تسلك طريقها بعد ؛ وعانت كذلك من استعبادها لطلبات زبائنها .

دان الرسم بنجاحه للاعلان والبطاقة البريدية المصورة والجريدة . وقد تفوق الرسامون الكاتون في الرسم الاعدادي المباشر . واشتهر في التصوير الهزلي « كين » و « هاين » والاميركي « جبسون » والتشيكي « موشا » و « كاران داش » و « فورين » و « ويليت » و « ستنلن » الذي امتدح اناتول فرانس « فنه المباشر والرصين » المتصف احياناً « بعظمة ورقة » . وتابع التصوير كذلك سيره بحزم في الطريق الاستقلالية التي بدت له وكأنها طريق الخلاص . وهذا ما عناه « ريمي دي غورمون » في الدرجة الاولى حين كتب في السنة ١٨٩٩ : « ان للفن هدفاً خاصاً انانياً كله ... لا يتكلف برضاه اية رسالة ، لا دينية ، ولا اجتماعية ، ولا اخلاقية ... يريد ان يكون حراً ، ونكداً ، وغير معقول » . فهل يعني ذلك انتصار ما هو مخالف للصواب يا ترى ؟

كان نفوذ الانطباعية كبيراً جداً ، وقد واصلت جولتها في اوروبا ، فكانت مصدر وحي في المانيا لـ « فون اوهد » و « كورنت » ، وفي النمسا لـ « كلمت » ، وفي السويد لـ « زورن » ودخلت هنغاريا وروسيا بفضل « باستيان – له باج » . وانها حدث ما ازال بعض العطف

obeikandl.com

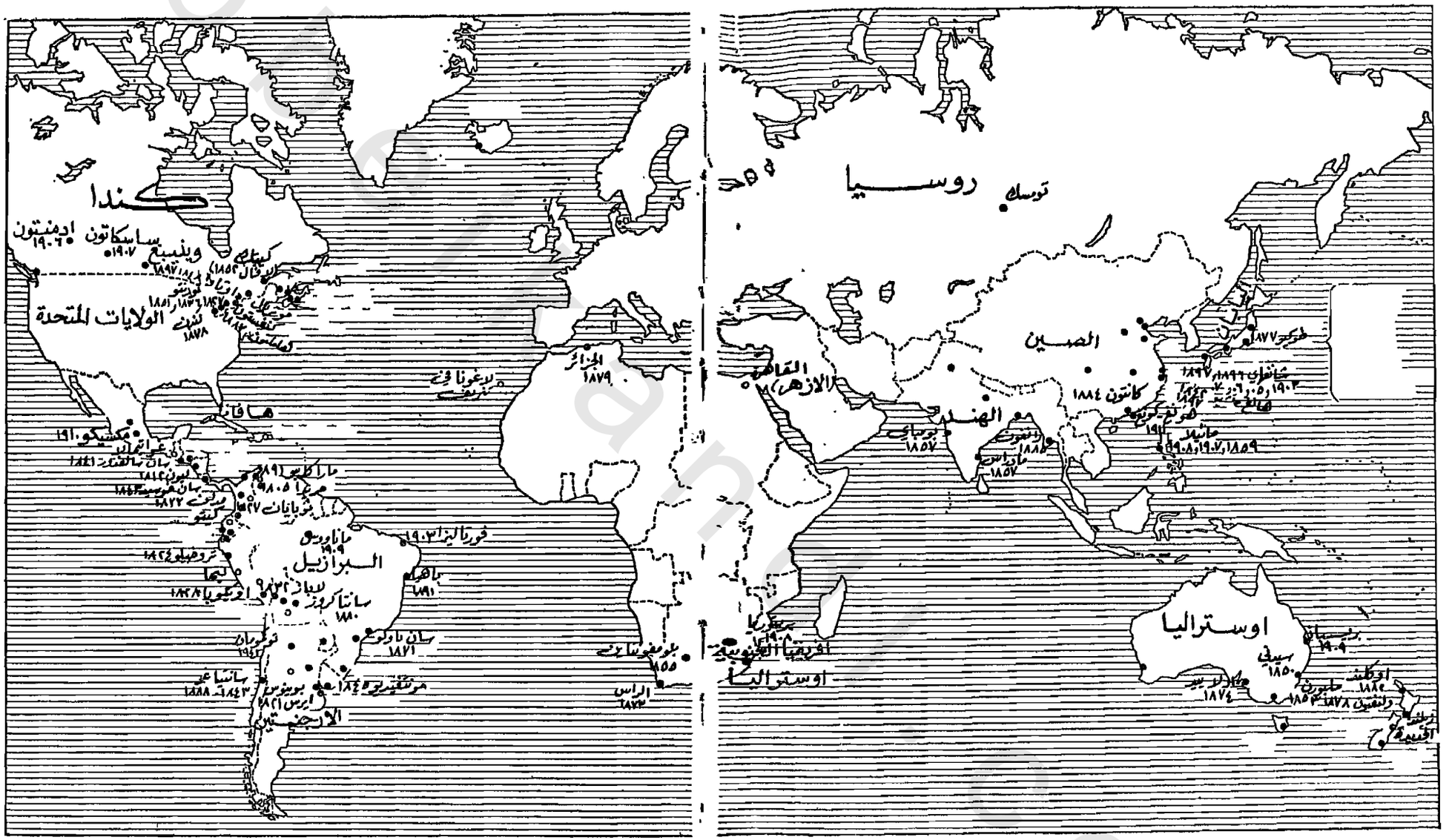

شكل رقم ٢٨ - الجامعات في العالم في القرن العشرين

تشير الدوائر الى بعض الجامعات المؤسسة قبل القرن التاسع عشر ، والنقاط السوداء الى الجامعات المؤسسة في القرن التاسع عشر . ولم يذكر في كندا سوى مؤسسات التعليم العالي الهامة. وحين تضم احدى المدن عدة جامعات ، يشار الى هذه الاخيرة بتواريخ تأسيسها . (نقلا عن « شامبر » ، « جامعات العالم »)

عليها . ويرد ذلك الى ان طريقة « مونيه » قد حيّرت في النهاية اولئك الذين لم يرضوا ، على الرغم من كل شيء ، بالتضحية بالتأليف ورغبوا في تأثر اعظم قوة . « هي العين ما تأكل الرأس » كما سيقول « موريس دني » عن التصوير الانطباعي . واراد « بوفي دي شافان » ، المزين الجداري ، لصورة الرمزية ، رصانة يستوجبها التصوير على الجدران ؛ وتشاهد رمزيته اكثر شهوانية عند « ألبير بسنار » واكثر غموضاً وتخيلاً عند « غوستاف مورو » . وانما أطلق اسم « الالف » على فنانين من أمثال « فانتين لاتور » كلفوا بالموسيقى الفاغنرية ، وأمثال « كاريير » اقصى اتجاههم الميتافيزيقي النشوة التصويرية ، واخضعوا جميعهم كل شيء للحياة العميقة ، وقد انحدروا بسهولة الى التجريد والغموض .

كانت طريقة « تجديد البنيان» عمل ثلاث شخصيات قوية في الدرجة الاولى : « سيزان » ، غوغان ، « فان غوغ » . استطاع الاول في البدء الاختلاط بالفئة الانطباعية : عجز عن القبض على الحركة ، على ما هو سريع الزوال ، فنادى بما هو دائم ومتين. فأعاد للتصميم شأنه ؛ واهمل ما لا يهمه حتى ولو لم ينه موضوعه ؛ وكان كاثوليكيا غير صوفي ، وعقلا ذكياً شغفا بالعظمة البسيطة ، فحن إلى ما هو بدائي وتسلطت عليه فكرة الشمول . اما غوغان فقريب الشبه اليه من اوجه كثيرة : اطلق عليه الرمزيون اسم « التأليفي » لانه لم يحفظ من الحواس الا اهمها تأثيراً ؛ ولكنه لم يتوصل الى اشباع هواه البدائي الا بالعيش بين البدائيين الاصليين . واما فان غوغ ، الذي ادمن على السكر ومات معتوهاً ، بعد ان انجز معظم انتاجه بين السنة ١٨٨٧ والسنة ١٨٩٠ ، باذلا في عمله جهداً عنيداً متواصلا ، فقد اعتمد اصباغاً لامعة واعاد الى اللون كافة امكاناته .

ثم جاءت « الانطباعية الجديدة » التي افرغت مجهودها في التعبير عن الضوء والنور بلجوئها إلى طريقة « التجزئة » ، المزعومة علمية ، التي اعتمدها « سورا » و « كروس » و « سينياك » . وجاء « الشقر » بدورهم حوالي السنة ١٩٠٥ : « ديرين » ، ماتيس ، « روو » ، وسواهم ، ولا سيما « فلامنك » الذي اعلن « ان التصوير انما هو المحبة » . وقد انتسب بعضهم الى غوستاف مورو والبعض الآخر الى غوغان وفان غوغ . اما في الحقيقة فلا يجمع بينهم سوى عداء معلن للانطباعية والمجاهاة بمناهضة الثقافة . فهم انصار اللون الساخط في وجه اللون الساطع . ولكن ماتيس سعى وراء تحقيق نوع من « التوازن » ، وماركيه وراء الاتصاف برقة خفية وعظمة ساذجة ومنطقية معا . وفي ايطاليا نبضت مدرسة « المستقبل » بالثورة حين ارادت التعبير عن ارتعاش السرعة العصرية . وعلى نقيض الانطباعية ايضاً ، اعتمدت التعبيرية التبسيط الذي بلغ حد التصوير الهزلي احياناً : وقد ظهرت في المدرسة الالمانية ، المعروفة بـ « الجسر » ، التي دانت بالكثير لـ « سيزان » وللنروجي « مونخ » المؤثر في النفس الذي احيا « الفن الفتي » .

يجدر لفت الانتباه هنا الى ان سيزان وسورا وغوغان ، وبصورة عامة كل معتمدي الرسم الايحازي ، قد اتجهوا بالرسم نحو التكعيبية . فقد اعلن ابولينير : « ان الهندسة بالنسبة

شكل ٢٩ ـــ الجامعات المؤسسة في اوروبا في القرن التاسع عشر

ان التواريخ المدونة بين هلالين هي تواريخ تأسيس الجامعات الكاثوليكية في بلجيكا وفرنسا وسويسرا

للفنون التصويرية هي بمثابة الاجيرومية للكتاب » ؛ واعلن كذلك : « سيغدو التصوير العصري فناً جديداً كل الجدة وسيكون للتصوير ، كما نظر اليه حتى اليوم ، ما هي الموسيقى للادب » . فالتكعيبية مطلقة ، اصلية ، قاطعة، واكثر اقفالا من اي وقت مضى ، وتحدد بما يلي : «هندسة غنائية » . وقد جانبها كثيرون : فكانت اشبه بـ «ماتيس» تبسيطات الالوان؛ وانتقلت من الحياة عند ديرين الى الاشكال المجردة حقا ، التي يجب ان توافق « الحقيقة بحسب الروح » ،عند « براك » ثم عندبيكاسو . فبموجبها تشابكت المسطحات.والمكعبات والزوايا الناتئة ؛ وتذكر الصور المفصلة كما يفصل المساس برسوم النقاشة الزنجية او البولينيزية . فان الاندلسي بيكاسو ، الذي اطلق عليه ابولينير اسم « عصفور بنين » ، قد جاء الى باريس في السنة ١٩٠٠ وخلق لنفسه عالماً اصبحت صوره هندسية بالتجريد . فكان ان بعضهم اكدوا مع الشاعر : « ليس للمشابهة اية اهمية ، لان كل شيء يضحى في سبيل حقائق وحاجات طبيعية سامية يفترضها دون ان يكتشفها . فتغلب عدم الاستمرار في هذا الفن كما تغلب في موسيقى « سترافنسكي » .

وانما اذا كانت غاية التكعيبية اكتشاف جوهر الاشياء ، فانها قد مثلت من بعض الاوجه ، شاءت ام ابت ، بجهود تصوير نقشي بغية الاتفاق وجسارات الخطوط الهندسية التي ظهرت تباشيرها .

من الاسلوب العصري الى هندسة العمارة الاسمنتية

منذ اوائل القرن فرضت المدينة نموها المسيخ والفوضوي . ووجب انتظار السنة ١٨٨٠ حتى يبرز ويعم الاهتمام بالتجهيزات التجميلية في المدن : فبعد نابوليون الثالث وهوسمن ،اوصى البرليني « ستوبن » باحترام الماضي والارض ، وشدد الفينيبي « سيت» الكلام على التوافق الواجب بين الساحات والابنية ، وآثر الانكليزي « هارفارد » المدينة — الحديقة — التي حققها « اونوين » في « لشوورث » في السنة ١٩٠٧ ، وفكر السكتلندي « جدس » بتنظيم المناطق التي تضم عدة مدن . وبينما كانت المانيا البلاد الاولى التي نظمت توسيع المدن ، اعطت البلدان الانكلوساكسونية الجديدة مثل « نظام الساحة » . وطلع« غارنييه » بفكرة الطرق المرتفعة وترتيب الابنية وفاقاً لزوايا معينة . واتاحت المؤتمرات والمعارض مقابلة هذه النظريات وتمنت اقرار تعليم يوجهها . ولكن تجميل المدن ابطأ في وعي واجباته العظيمة .

كانت بعض التحقيقات صدمة « للمتمدنين القدماء » : فقد طاب لـ «باريس » في كتابه (كوليت بودوش) اظهار التضاد بين « متز » القديمة ، « مدينة الروح ، الروح الفرنسية القديمة ، العسكرية ، الريفية » ، وبين الابنية الالمانية : « محطة القطار الحديدي الجديدة (التي) يبدو كأنها تتباهى بعزتها الثابتة على خلق اسلوب امبراطوري عظيم » ، و « التي ليست سوى قطيفة او فطيرة عظيمة محشوة باللحم » ؛ والحي الجديد المعبر عن جنون العظمة (الذي) يضم الخانات الكبرى والمقاصف البورجوازية المثقلة بالنقوش الاقتصادية الصاخبة»،و«يتطلع الى العظمة

والثروة » ، و « ليس سوى كذب وفوضى وافلاس عبقرية » .

ولم يتح الحديد كذلك نهضة هندسة العمارة: فالهيا كل المعدنية الحبية قد طُليت حتى لا تتأكسد. اجل لقد عرف برج ايفل البقـــاء بفضل الرسوم المفروضة على الصعود اليه ؛ ولكن كثيرين لم يكفوا عن الانتقاد امام « الظل البغيض للعامود البغيض المصنوع من صفائح حديـــدية مثبتة بمسامير ضخمة » .

ولم يتوصل الاسلوب العصري ايضاً الى حجب فقر الابنية الرسمية او الابنية التي تعطي دخلا لملاكيها . فهو في تصميمه على تزيـين وجـه البناء بتقعيره او تحديبه ، كأنما يطيب له التهرب من الخطوط البسيطة التي بدا وكأن مواد البناء الجديدة تفرضها . الا انه جدد التزيين والورق الملون والفراش ؛ وكان مصدر وحي لمصنوعات الحديد المطرق الجميلة ؛ واعتمدت زخارفه الزهرية في الاعلان نفسه ؛ ولجأ اليه الزي النسائي باحكام و « التنانير » في اعلاها وتوسيعهـــا في اسفلها بشكل نورات الزهر : فنعته الساخرون « بالاسلوب الحامل » و « المتموج » ، و « اسلوب الحرية » ايضاً الذي زعم في انكلترا انه مدين بالكثير الى ازياء ما قبل رافائيل .

هي الفنون التزيينية التي استفادت اعظم استفادة من « اسلوب السنة ١٩٠٠ ». وقـــد نظم اتحادها المركزي مظاهرة في مكان العرض . وفي معرض خريف السنة ١٩٠٣ ، خصها مهندس العمارة « فرانتز جوردين » بمكان فسيح . فأعطى تعليم « وليم موريس » و « وولـتر كراين » ، مجددي الفنون التطبيقية ، ثماره آنذاك ؛ فتلفت اليها « فان دى فلد » الذي أسس مدرسة في « نيمار » واستعاض عن الرسم المزهري بالخطوط المعوجة .

عبثاً اصدر « فيوليه له دوك » حكمه على التزيين النافل باسم العقل . وقد وجب ان يظهـر الاسمنت المسلح مزاياه في الولايات المتحدة حتى ينطلق فن يتصف بـ « العقلية » . فقـــد ألبس الاميركيون الهياكل الحديدية بمزيد من الاسمنت والماء والرمل . ولم يقاوم بناؤهم النار فحسب ، بل كان انجازه سريعاً واقتصادياً ايضاً . وهو « وليم له بارون جني » من حقـق البناء الاول في شيكاغو في السنة ١٨٨٣ ؛ ثم جاء دور نيويورك في السنة ١٨٨٩ . والغرابة التي تلفت الانتباه هي أن معهد الفنون الجميلة في باريس هو ما خرّج معظم مهندسي العمارة الذين حددوا بـدقة ، شيئاً فشيئاً ، تقنيات ناطحات السحاب وسننها الجمالية . وهو « لويس سوليفان » ، خريـــج هذا المعهد ، من اقترح لمبنى الـ « اوديتوريوم » في شيكاغو اثبات الحجم العمودي ، ومن فرض نفسه في السنة ١٨٩٩ بمخازن كارسون الكبرى .

في السنة ١٨٩٤ استخدم « اناتول دي بودو » ، احد تلامذة « فيوليه له دوك » مادة البناء الجديدة في كنيسة مونمارتر للقديس يوحنا الانجيلي . فانتصب في العاصمة الفرنسية ، بعد مرور خمس سنوات ، شدف بناء من الاسمنت المسلح . ومنذ ذاك التاريخ كان الـ « وركبوند » ، الذي رغب في توحيد الفن والصناعة وتكلم عن « اسلوب موضوعي » ، قد بدأ دعاوته . فوجهـــا

« لووس » في النمسا ، و « موزر » في سويسرا ، و « سانتيليا » في ايطاليا ، والاخوان «برّيه» و « له كور » في فرنسا . وقدم لها « فان دي فلد» مساعدة كبرى. فأصدروا حكماً على التقليد سواء كان كلاسيكياً مستعارا او نهضة مستعارة او فنا قوطيـــا مستعاراً او اسلوب فرنسوا جوزف . ففرض الخط المستقيم نفسه ، لا سيما وقد املاه القالب الخشبي . والى ماكس كلنجر عاد الفضل في صرامة العري . وانتقلت البساطة الى لندن في « كوداك بيلدنـــغ » و « ادلايد هاوس » و « بوش هاوس) . وتركت مزيداً من التأثير مخازن ورتهايم الكبرى في برلين الـتي بناها « الفرد مَسل » . وفاز الفنانون « المونيخيون » بأغلبية الاصوات في معرض الخريف في باريس في السنة ١٩١٠ . أفلم تؤالف التكعيبية العين يا ترى ؟ وتوجب من جهـــة ثانية التسليم بالواقع الواضح : لما كانت الجدران لا تحمل ثقل البناء ، اذ ان الهيكل الاسمنتي يقوم بذلـك ، اتسع المجال في التركيب الهندسي للحاجات العصرية. فكان ان القرن التاسع عشر قد خلّف في النهاية وعوداً بأسلوب هندسي جديد حقاً يجمع بين المتانة وجسارة الخطوط وصرامتها .

الفصل الثاني

تجدد الحياة الصوفية والروحية في أوروبا

« كل ما حمل اسما في الفن او العلم او الادب كان مغايرا للدين » .

(« بول كلوديل » ، ١٨٨٦)

« فأفضى بي الامر الى انني ازدريت في ذاتي بذاك العلم الذي كان مبعثا لفخاري » .

(« اندريه جيد » ، « الماجن » ، ١٩٠٢)

المنازعة حول قيمة العلم

عند الانتقال من قرن الى قرن ، بدت انطلاقة التقنيات العلمية وكأنها قادرة على تبرير الآمال التي وضعها الانسان الغربي في تحقيقات العبقرية البروميثية . لا بل ان مكاسب الثقافة توسعت توسعاً سريعاً ؛ واستفادت الآداب والفنون من مناخ مؤات . لذلك فقد عزم رينان ، قبل وفاته، على نشر كتاب «مستقبل العلم » الذي اوحى « برتلو » اليه به في السنة ١٨٤٨ والذي يمكن اعتباره بمثابة وصية وضعية . واكثر برتلو نفسه من المجاهرة بايمانه العميق بامكانات العلم ؛ وقد صدرت خطبه ومقالاته المجموعة في كتابين : « العلم والاخلاق » (١٨٩٧) و « العلم والفكر الحر » (١٩٠٣) .وصدر في الفترة نفسها كتاب « احاجي الكون » لـ « هكّل » . فقد اعلن برتلو ان « العلم هو ولي نعمة الانسانية » . وهو يطالب اليوم بادارة المجتمعات الفكرية والاخلاقية على السواء . وبفضله تخطو الحضارة العصرية خطوات مطردة السرعة . ومهما يكن من مزاعم محتقريه ، فهو سائر في سبيله ، مخففاً سنة العمل القاسية وخالقاً انسانية اخوية . « فمن معرفة الكون وتركيب الانسان الطبيعي والاخلاقي معرفة ابعد عمقاً ، ينجم مفهوم جديد لمصير الانسان

توجهه المداليل الاساسية للتضامن الشامل بين كافة الطبقات وكافة الامم » .

ولكن العلم نفسه بدا متخلخلا حتى في أسسه بفعل الثورة التي تعرض لها . « ظن خـــيراً بقواه الفتية » ، ووعد متكبراً بأن يعطي الكلمة الشاملة عاجلا ام آجلا » : هذا هو الكلام الذي اطلقه « رومان رولان » على لسان رفيق مضطرب ، رومان رولان نفسه الذي تكـــلم عن « زلزلة السنوات ١٩٠٠ وثورانات الفكر التي قوضت واحرقت روح القرن (العشرين) الطالع». فعقبت المفاجآت المدهشة مفاجآت اخرى أعظم اذهالا . بالامس استلزم كل مصباح يستخدم للاضاءة اشتعالا اجاجاً؛ أما اليوم فمصباح اديسون لم يعد يشتعل لأنه يرتكز الى مبدأ يمنع جذب الهواء . وبالامس اقعدت الداروينية التطور على الاستمرار ؛ أما اليوم فقـــد عاد « دراش » و « وايسمن » و « دي فرير » الى فكرة التحولات الفجائية واعلنوا: « ليس من استمرار بـين الانواع » . وفي الحقيقة لم يعد التفسير الآلي للكون ليقنع ويشبع الرغبات. ومنذ السنة ١٨٧٦، ابدى كيرشهوف بعض الارتيابات حيال قيمة النظام النيوتوني ، وجاء ماك يخطّىء تعابـــير « الاتساع المطلق » و « الزمان المطلق » لانها لا تطابق شيئاً في النطاق الكمي : واقترح عـلم طبيعة يرتكز الى الظواهر دون غيرها ؛ وقادت نظرية « الجزئيات » اميل بوريل الى التساؤل عما اذا لم يكن تفسير الظواهر تفسيراً احصائياً اكثر النظريات اقناعاً واشباعاً للرغبات ، اميل بوريل نفسه الذي تعمق ، مع « تشيبيشيف » و « هنري بوانكاريه » و « باشلييه» ، في درس حساب الاتفاق . وسوف يكون من ردة الفعل في أوساط علماء الطبيعة ان « لنـين » سيتهمهم بالوقوع « في المثالية » عن طريق مذهب النسبية ، بسبب جهلهم الجدل » . وعلى أي حال فقد شدد الرياضيون على حاجتهم الى المبادىء الاساسية المسلم بها بدون برهان والى الحقائق البديهية للسير في نظرياتهم . فقد قال أميل بوريل : « ان موضوعية العلم الكاملة ليست سوى اضغاث احلام ؛ فعلمنا يقاس بمقياسنا » . ومع العلم ان بوانكاريه لم يترك اي مكان للاتفاق ، فانه قد اعتبر انه لا يمكن وضع اي شيء واضح مدقق وراء كلمتي قوة او مادة ، وبالتالي «ان الاختبار يترك لنا حرية الاختيار ... بمساعدته ايانا على تمييز اسهل طريق يمكن سلوكها » . وطاب له التذكير بأن « العلم لن يكون الا ناقصاً » ؛ «وان من يقول علماً يقول ثنوية بين العقل العارف والشيء المعروف » . وبعد ان يطرح هذا السؤال : « ما هو العلم ؟ » يجيب : « انه تبويب قبل اي شيء آخر، اي نوع من التقريب بين الاحداث التي تفرق بينها الظواهر ... » يجب الا نرى فيه سوى « نظام علائق » . وبالتالي اذا ما عين العلم حدوده ، وخطأ الاوهام الخادعة، وطلب الينا التوقف عن اصدار احكامنا ، فان الكثيرين يعتقدون بأنه يرتاب بنفسه . فيحدث انتقال من اليقين الى الاحتمال البسيط في نظر « بوترو » الذي شدد على كثرة العلوم وكثرة طرائقهـا . وقرت عين مذهب العملية بتأكيده ان العلم مجموع مصطلحات سهلة الاستعمال ، او بالتفصيـل أن السنن ليست كلها سوى سنن تقريبية . وسوف يتمكن برغسون من التأكيد ان الاستمرار الحقيقي لا وجود له الا في الوعي فقط لأن استمرار المادة ليس سوى استمرار متحرك .

لقد لوحظ مراراً كثيرة ان السنة ١٨٨٩ ، سنة احد المعارض العامة ، قد شاهدت صدور كتابين معا هما «محاولة في معطيات الوعي المباشرة» ورواية «التلميذ» التي اظهر فيها «بورجيه» كيف ان « المنكر الكبير ، ذاك المحلل الواعي ، الذي كاد يكون عادم الانسانية بسبب قوة منطقه ، يتضع وينحنى وينهار امام سر المصير المغلق » ، وارتد في النهاية إلى الله . وقد نشبت معركة حقيقية في فرنسا بمناسبة مقال « برونتيير » ، «بعد زيارة للفاتيكان » ، وكتاب رينان ، «مستقبل العلم». فان برونتيير ، رفيق بورجيه ، قد وجد امامه برتلو الذي كان من قبل مصدر وحي لرينان . واعلن برونتيير : افلاس العلم ؛ فهو احد اولئك الذين انتقلوا بالاستنتاج من قول « نحن لا نعلم » إلى قول « نحن لن نعلم البتة » . فأجاب برتلو عن ذلك بمجاهراته بعقائد العقلية . بيد ان « زولا » اعترف بأن العلم « لم يعد بالسعادة ، بل بالحقيقة » ، واضاف : « وللاكتفاء به يوماً ، يقتضي الكثير من التضحيات ونكران الذات نكراناً مطلقاً وطمأنينة فكر قانع يبدو وكأنها لا تصادف الا عند نخبة معينة . ولكن بانتظار ذلك ، اية صرخة يائسة تصدر عن الانسانية المتألمة ! » لذلك حاول بوانكاريه التوفيق بين وجهات النظر المختلفة بتأكيده ان « الانسان لا يمكن ان يكون سعيداً بالعلم ، ولكنه ... بدونه سيكون اقل سعادة ايضاً » . وفي الرسالة الحبرية التي وجهها لاون الثالث عشر في السنة ١٩٠٢ ، خلص على الرغم من ذلك إلى عجز العلم « عن ارواء التعطش إلى الحقيقة ، والإلهيات ، واللانهاية التي نتطلع اليها برغبة شديدة ... » .

اكد المؤمن بامكانات العلم انه يمتلك مفتاح اليقين ، وان النتائج المحققة تتصف بركانة تكاد تكون جلية . وعلى عتبة عهد النسبية ، بدت اعتقاديته وكأنها تشجع ردة الفعل اللاحتمية التي عقدت مع المذهب القائل بتفوق الايمان على العقل تحالفاً غريزياً .

سلمت التطورية اللاماركية بان التبدلات الناجمة عن البيئة تنتقل الى الذراري : وهكذا اعتقدت فئة من رجال الفكر ، ضمت « كونت » وسبنسر ، بتكامل الانسانية الفيزيولوجي والفكري معاً . اما التحولية فقد وجهت ضربة هائلة ، بقولها بامتناع هذا الانتقال ، لتفاؤل قرن تأمل الكثير من نمو افضل الميول . وانها ظهر ان النوع ، اذا تم الانتقاء الطبيعي بأقل فظاظة ، لا يتعذر عليه الترقي فحسب ، بل قد يتأخر في الواقع عضوياً ايضا . فافضى ذلك الى حل المالتوسية الجديدة الذي اقترحه علم تحسين النسل والذي يقضي بانتقاء طوعي ؛ وفي السنة ١٩٠٧ اجازت عدة تشريعات في الولايات المتحدة تعقيم بعض الافراد من ذوي العاهات. ثم الم يقترح « فاشيه دي لابوج» منذ السنة ١٨٨٨ الاستعاضة عن التوالد الحيواني والاختياري بالتوالد الموجه والعلمي ؟ » ...

الارتياب في تقدم النوع
رفض الحضارة العصرية
ودعوة الشرق الى اللاعنف

حام الشك في الوقت نفسه حول تفوق المبادىء التي طالب الغرب بالسيطرة باسمها . فهل يقتضي الاعتقاد ، بوجوبها ، بالسلم الاجتماعي والسلم بين الشعوب ؟ لاشك في ان برتلو قد قام بوعد : « سيكتسب الانسان مزيداً من اللطف والاخلاق لانه سيكف عن اعتماد التقتيل وافناء الخلائق الحية سبيلا للمعيشة » . ولكن الجنرال « دي برناردي » ، حين اوضح مميزات « الحرب العصرية » ، لم يتردد كذلك في السنة ١٩١٢ في الجزم بمايلي : « المستقبل لـ « بروميتيه » وليس لـ « ابيميتيه » » .

بانتظار ذلك تمنع الشرق عن الانحناء امام نظام لم يمثل في نظره سوى ظواهر قوة مادية . فقد سبق للصوفية الروسية ان رفضت القيم المرتكزة إلى تقدم التقنيات . وقد أسهب تولستوي في تفسير العظة على الجبل ، واصدر حكمه على بابل العصرية ، فأعلن هو ايضاً افلاس العلم وخص بلاده برسالة توفير النصر لثورة اخلاقية . فكتب في السنة ١٨٨٤ – ٨٥ : « ما هو المطلوب منا ياترى ؟ » مقاومة تقسيم العمل المشؤوم ؛ ورفض الوضعية ، والفن للفن ؛ « والتندم على الذنوب ، واقتلاع الكبرياء الذي تأصل فينا بالعلم ... » ، والاقلاع من ثم عن استغلال امثالنا في سبيل الاثراء ؛ والربط بين النشاط الفكري والعمل المادي . « انه لتعليم ساذج » يعبر ، في نظر لينين ، « عن عدم ادراك فلاح بطريركي بسيط » ويذكر « بصوفيات العالم الآسيوي » .

قال بعضهم ان التولستوية قد استقت علمها الاخلاقي من الانجيل واستوحت البوذية على الصعيد الفلسفي . اجل لقد سحرت الهند بحكمتها . ولكنها حين قصدت هي نفسها اكتشاف الغرب ، لم تخف نفورها الشديد. فقد اغتم « فيفا كانندا » اغتماماً مؤلماً. ثم جاء ابن « دبندرانات » « رابندرانات طاغور » ، الشاعر والفيلسوف والمؤلف المسرحي والموسيقي ، فوقف موقفاً مناهضاً لمذهب التزهد، ولكنه اصدر حكمه في الوقت نفسه على حضارة اقترفت ذنباً بايثارها النهضة المادية على التكامل الروحي والاخلاقي . واستسلم غاندي لافكاره في افريقيا الجنوبية حيث ذهب يدافع عن مواطنيه ضد الاوروبي : فقرأ روسكين ؛ وعرف تولستوي الذي اوحى بتشاؤم الروائي الياباني « هاسيغاوا فوتاباتاي » ؛ وجاهر بان الجمال يكمن في العمل اليدوي ورفض الاستسلام للغرائز العنيفة . وفي السنة ١٩٠٩ ناشد الهند « ان تنسى كل ما تعلمته منذ خمسين سنة » ، وذهب حتى النهاية في رفض التقدم كما يفهمه الغرب ، فأعلن: « يجب ان يتوارى عنا القطار الحديدي والتلغراف والمستشفيات والحامون والاطباء ، الخ . » .

كان اللاعنف من ثم جواباً على العنف، مولّد المجتمعات الجديدة – الذي اعتبره بعض علماء الاجتماع ، من أمثال « له دانتيك » و « له بون » و « ستيفنتز » ، ملازماً للجنس البشري ، على نقيض « دورخايم » الذي كان مقتنعاً بان تقسيم العمل يكبح الغرائز الوحشية . وكان على

اللاعنف هذا ، في نظر اناتول فرانس، الابيقوري الذي اقلقه ثوران الاهواء القومية ، و «رومان رولان » المرهف الحس في تذوق الجمال ، ان يهب الى مساعدة العقل المستقل والكلف بالجمال .

التقليد الروحاني والتصوفي

اقصر القرن مسألة ما هو ممتنع المعرفة على دور حيادي ، أو مجهول أحياناً ، ما دامت المعرفة تتناول العلائق بين الاشياء فوق تناولها طبيعتها . فقد كان هناك علماء مؤمنون بامكانات العلم ، من امثال « تين » ، مثلوا العلوم الاخلاقية بالعلوم الطبيعية ؛ ولكن عقولا لاادرية كثيرة ، منذ كونت حتى بوانكاريه ، قد سلمت بأن بعض المسائل ما زالت بعيدة المنال . والحال ، اذا كان صحيحاً أن العلم « لم يعد بالسعادة بل بالحقيقة » وان نسيان « هاجس اللانهاية » يقتضي كفراً بالذات لا يقوى عليه كثيرون ، لأدركنا حينذاك عجز المؤمنين بامكانات العلم عن اشباع رغبة اولئك الذين اعتبروا مسألة الاسباب الاولى والاسباب الغائية مسألة رئيسية ، حتى خارج الاعتقاد التقليدي . فماذا يجب ربط مفهوم الواجب يا ترى ؟ هل يكفي القول ، كما فعل برتلو ، ان الاخلاق ليست منوطة « لا بالانانية ، ولا بالعصبية ؟ » فعلى افتراض ان العقل يفسر كل شيء ، يبقى عليه ان يفسر نفسه ، ونعود حينذاك الى درس المعرفة .

الا أن المصلحين لم يكونوا قلة في يوم من الايام . وسوف يقول بيغي : «روحانية « كوزين » الصبيانية والحكومية على الاقل» . وبعد مرور نصف قرن سعى « بول جانيه » جهده ليثبت ان العقل يسمح بالفصل بين نطاقين ، نطاق الحتمية ونطاق حرية الارادة : بايماننا بالحرية ، نجعل من أنفسنا أحراراً ونخلق الله بتصرفنا كما لو كان موجوداً . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان رينوفييه انطلق من نسبية تصوفية تجعل الفرد يستعذب المبادهة ، ولم يحد قط عنها حين سلم بالله مبدأ كل شيء .

وفي المانيا شوهدت كذلك عودة الى « كانت » : طالما ان الايمان يوفر « مزيداً من اليقين » اصبحت التمييزات الكانتية امراً واجباً . ثم برز تأثير شوبنهور قوياً ، وان متأخراً ، حين يقول : « لا يكون لدي ما يقلقني ، فان هذا بالذات ما يقلقني ؛ وقد اقام هذا الكانتي البرهان على تصميم على الحياة مخالف للصواب، وعلى وجود نزعة غامضة وعمياء ومحدودة وثابتة » .

حوالي ١٨٨٠ — ٩٠ ، تفتحت لعمري الروحانية التي تمثلت ، منذ باسكال ومالبرانش ، بـ « مان دي بيران » في السنوات ١٨٠٠ — ١٨٢٠ . واعاد « رافيسون » الاولوية لعلم ما وراء الطبيعة ومهد الطريق امام البرغسونية . وفي نظر « لاشلييه » ان الحقيقة الوحيدة هي الضمير ، من حيث ان الاشياء تعبر عن نشاط الفكر فقط . ويدخل « بوترو » في هذه الفئة بنظرية « عدم لزوم سنن الطبيعة » : في نظره ان « قابلية التحول هي القاعدة » . ولم يسبق ان وجه احد مثل الاتهام الشديد الذي وجهه الى مبادىء العلم الوضعي . وكان تأثيره عظيما على الفكر العلمي في اواخر القرن .

بالمقابلة انتصبت التصوفية الهيغلية في وجه الاختبارية والاعتقادية ، وغـــزت البلدان الانكلوساكسونية . فلم يجد « هل غرين » ، في اوكسفورد ، فرقاً بين روح كل شخص والروح التي تبعث ، من الداخل ، التطور الكوني . وشدد تلميذه برادلي والاميركي «رويس» بدورهما ، الكلام على ان وساطة هذه الروح الكونية وحدها تتيح التعاطف بين شتى الضمائر المتناهيـة . اما نظرية الظواهر التي طلع بها الالماني « هوسرل » ، والتي لم تكتف بمبدأ ديكارت « افكر اذن انا موجود » ، بل ارادت بلوغ الذات اللانهائي الشامل ، فقد كانت « علم الضمير » وقادت الى علم المعقولات السامي عن طريق اخرى .

وعلى الرغم من ان « ليون برونشفيغ » قد قال بأولوية العلم ، فقد انتهى هو ايضاً الى تصوفية لانهائية تعاكس الواقعية الاختبارية . وذهبت فلسفة هاملين من المجرد الى المحسوس ، بينما ستركز فلسفة برغسون الى الاختبار المباشر المستعجل . ومن حيث هي فلسفة عقلية ، فقد ابرزت ، قبل اي شيء آخر ، وحدة الفكر وعينت بواعثها المنطقية . واليها توجهت تأثيرات « هيغل » و « رينوفييه » و « لاشلييه » .

تعظيم الشخصية

« ليس الشك بل اليقين ما يجعلنا مجانين » . هكذا تكلم نيتشه قبـــل ان يصبح معتوها . وان هذا لشكل آخر من اشكال الاعتراض على القبول السهل بمبدأ الايمان بامكانات العلم . انطلق من شوبنهور ، فحاول ابدأ الانتصار على «عناء الحياة» . وعندما خيبه « فاغنر » اتجه نحو زردشت الذي تعلم رسالته الانسان ، القادر على مواجهة المخاطر ، كيف يصل الى القوة ، اي كيف يرتفع فوق مفاهيم المحبة والمساواة غير المصيبة ، اذ ان المسيحية والديموقراطية مسؤولتان على حد سواء عن هذا « العناء » المقنط . « طالما انا حي ، اريد ن تكون الحياة في نفسي وفي كل ما هو سواي ، فائضة ووافرة وحارة جهد المستطاع » . وقد قدمت الرومنطيقية الجديدة والوثنية الجديدة الارستوقراطية والديونيسية لتفسير المواضيع الكبرى : موت الله ، خرافة العودة الازلية ، خلق انسانية متفوقة . « احدى الحركتين غير شرطية ، تسوية الانسانية ، المنامل البشرية الكبرى . اما الحركة الثانية ، حركتي ، فهي على نقيض ذلك ، ابراز التناقضات والمهاوي ، والغاء المساواة ، وخلق كائنات كليـــة القدرة » . فكان صدى الرسالة عظيماً جداً في اوروبا وحتى في يابان الساموراي . اما « كيركغارد » ، المسيحي القلق ، فقد اقترح قاعدة سلوك تتيح للكائن ان يتحقق بكليته اذ ان الحقيقة ذاتيـــة وخاصة وجزئية (وهذا الشعور المسرحي بالوجود قد كدر «اونامونو» و«ماشادو دي آسي ») . وجاء نيتشه بدوره — وقد جعله بعضهم احد مصادر الفلسفة الوجودية — يعظم الـ « انا » ويعين للانسان مهمة التفوق ابداً على اعماله السابقة .

وان موضوع الشخصية ، التي تتفتح في الجهد المبذول ، قد طرقـــه كذلك « براندس » و « ليليانكرون » و « جورج » و « دانونزيو » ، لا بل ظهر عند « توماس مان » و « ريلكه »

ايضا . وبالحرص على القيم الموجودة في هذا القعر المكر الذي استكشفه فرويد استكشاف العالم ، متت « المجونية » بصلة الى النيتشية : وقد املت على اندريه جيد تحليلا صادقا كل الصدق لنفسه وللآخرين . واقترح الكالفيني السيفيني فلسفة للعمل المجاني في حاضر يجب التمتع به ، واوصى باعتماد الاقتسارات ضد الاقتسارات : « يجب ان يكون الانسان طليقا من كل ناموس للاصغاء للناموس الجديد » . وقد قال بهذه الفلسفة « سوينبورن » و « مردث » و « وايلد » و « باتلر » و « هاردي » الذين طاب لهم تعثير المعجبين بالعصر الفكتوري المشرف على نهايته واهتدوا الى لهجات كبار الروائيين الروس العنيفة . وفي جوار هذه الفئة النشيطة قام « ودكند » و « شو » و « بنفانت » الذين رفعوا القناع ايضاً وانتقدوا المراءاة على اشكالها المختلفة انتقاداً مرا . وبدا شو بصورة خاصة اشبه بموليير جديد نافر من البشر قد لا يتأخر عن اطراء « اشتراكية غير اجتماعية » . اما ريشار ستراوس ، الذي تردد بين التشاؤم واكثر التصوفيات غطرسة ، فقد استوحى زردست ولحّن مؤلف اوسكار وايلد : « سالومه » .

الموقف العملي

اما الذين كان كافيا في نظرهم تحديد الافكار بوجه استخدامها « لجعلها واضحة » فقد ركنوا الى ما في المعرفة من فائدة ملموسة جداً . وكان هذا الموقف شبيهاً بالاختبارية من اوجه كثيرة . وبردة فعل كذلك ضد التطورية السبنسرية ، اتجه الفكر الانكلوساكسوني اتجاهاً شبه طبيعي نحو عملية الاميركيين وليم جايمس وديواي القادرة بموجب تحديدها نفسه على الدفع الى العمل : وقد اعتقد بعضهم باكتشافها في تعاليم ماركس نفسه الذي لم يفرض على نفسه مهمة تفسير العالم بل تحويله . واستعمل الانكليزي شيلر كلمة « الانسانية » للتعبير عن موقف يقوم بتوجيه البحث قبل اي شيء آخر نحو اهداف تتفق ومكانة الانسان . وقد مثل جميعهم ما هو حقيقي بما هو مفيد ، وسلموا واوصوا بكافة الاختبارات الانسانية ، بما فيها « الاختبار الديني » ، بنسبة قدرتها على تعيين الاعمال . وهي ظروف الحياة ما يفرض الكيان ، وليس الكيان ما يفرض ظروف الحياة ؛ ولكن العمل يسمو على الفكر ، بينما يرى الماركسي الذي بقي امينا لمذهب العقلية ، ان الفكر ، الملازم للعمل ، يسمو عليه بالعلم . فللايمان بالله ما يبرره في احدى الحالتين ، وليس له ما يبرره في الحالة الثانية . فاقترح العمليون من ثم تعليماً تفاؤليا للتقدم في احترام القيم العريقة في القدم . ويمكن ان يفسر ذلك تفسيراً مختلفاً : فالعملية تساعد على اعادة الحياة العاطفية ومحاربة الحتمية العلمية ، كما تساعد على ايجاد ماكيافيلية عمل حقيقية والسلوك بسهولة بموجب الضمير .

الثورة البرغسونية

بينما ارتأى العمليون ، شأن بوترو وكثيرين سواه ، عدم لزوم السنن الطبيعية ، متمسكين بمفهوم الفاعلية ، قامت هناك فلسفة استوحت العاطفة وهدفت الى تخطي موقفهم بالسمو على الاختبارية والعقلية على السواء . فكأنما حدثت ، بحسب « له روا » ، منذ صدور كتاب « محاولة في معطيات الضمير المباشرة » (١٨٨٩) ، ثورة حقيقية

شبيهة بـ « الثورة الكانتية » او حتى بـ « الثورة السقراطية » ؛ فكانت « ثورة على طريقة كوبرنيك » في نظر « وليم جايمس » الذي اعلن في السنة ١٩٠٧ : « لقد مات مسخ المذهب العقلي . فقد قتله برغسون بضربة قاضية » . وهلل بيغي بقوله : « لقد حطم قيودنا » .

انها لعملية حدسية نوعاً ما : فالمقصود هو معرفة الـ « انا » لا بتحليل قد يشوهه بتفكيكه اياه ، بل بواسطة « استماع » الى الضمير نفسه ؛ لان الـ « انا » لايقع تحت قياس يعطي الزمان دون الديمومة . وهكذا فان باستطاعة الحدس وحده التمكين من اكتشاف الـ « انا الغامض » .

والحال لا تتميز ظواهر الضمير في تعاقبها، بل هي تتعاقب دون ان تتميز : هنالك جريان لا آخر له في هذه الديمومة ؛ هذا هو مد الحياة بالذات، هذا هو « الاندفاع الحيوي » . وفي كتاب « التطور الخلاق » الذي صدر في السنة ١٩٠٧ رفض برغسون الوجوب الآلي نهائياً . « لقد انقضى قرن كامل منذ اختراع الآلة البخارية ، ونحن بدأنا اليوم فقط نشعر بالهزة العميقة التي احدثتها فينا ... » . فـ « الانسان العارف » ليس قط من ثم هو « الانسان العامل » . واذا الغريزة حددت الصعود نحو الاشكال العليا ، فالعقل يدفع اليها ؛ ولكن المستقبل يبقى غير معين ، وحرية الفكر كلية ؛ واذا ما بدت الحرية غير قابلة التوفيق مع سنن العلم ، فرد ذلك الى ان هذا الاخير لا يعبر الا تعبيراً ناقصاً عن الواقع ، الواقع غير المستمر ، اذ ان الاستمرار لا وجود له الا فينا ، في جريان الضمير الذي هو نوعية وديمومة .

كانت نظرية المعرفة ونظرية الحياة من ثم متلازمتين في مذهب يُحل الانسان في اعلى سلم الكائنات ، لانه يمتلك الضمير الذي يتيح له الوصول إلى المطلق ، إلى الله نفسه . وفي السنة ١٩٠٥ ، اظهر برغسون « الحاجة الى فلسفة اقرب الى المعطيات المباشرة من الفلسفة التقليدية » . ولما كانت هذه الفلسفة معاصرة لنظرية الجزئيات ، فقد اعتقدت ان بمقدورها استخلاص حرية ارادة على مستوى بشري من لا حتمية الجزئيات . ورجعت البرغسونية عن الحكم الذي اصدره كانت و كونت على علم المعقولات ، فجددت السيكولوجية واسهمت اسهاماً رئيسياً في نقد الايمان المطلق بامكانات العلم .

النهضة الدينية

برزت غزوة ما هو مخالف للصواب ، كما في العهد الملكي بعد الثورة ، بضخامة عدد الاهتداءات المدوية ، التي كانت الكاثوليكية المستفيد الاكبر منها ، كما في السنوات ١٨٠٠ - ١٨٢٠ . ففي غضون القرن ، وجهت الكاثوليكية كلامها الى الجماهير بصورة خاصة ؛ اما اليوم فهي اكثر استمالة لاولئك الذين لم تشبع الوضعية رغباتهم ، وتقززت نفوسهم من الواقعية والطبيعية الادبيتين . ويرد ذلك الى اثر الرواية الروسية (روايات دوستويفسكي بصورة خاصة) التي روجها كتاب « فوغويه » في السنة ١٨٨٦ ، فوغويه الذي عرف الكثيرين كذلك بفاغنر والثالوث الشمالي العظيم : « ابسن » ، « بجرنسون » ، « سترندبرغ » . ولكن تولستوي نفسه ابتغى الرؤية بناظري الفلاح الروسي ؛ شعر بالحاجة الى التألم بكل تواضع

الجيلي مع البؤساء . ومن جهة ثانية انتقل سترندبرغ من الالحـــاد والوقاحة الى الدين بقراءته مؤلفات سفندنبورغ : فنشر في السنة ١٨٩٧ كتاب « جهنم » ، الذي وصف فيه آلامه النفسية المبرحة ، واكتشف « طريقه الى دمشق » . واهتدى كذلك « فوغازارو » الذي قزت نفسه من المدرسة الواقعية الايطالية ، و « هويسمنس » الذي تخلص بذلك من تسلط فكرة المرض على عقله ، والشاعر كوبيه ، والاشتراكي هوبتمن ، وجورجنسن الذي كان « فرلين » مصدر وحي له في كتاب « اهتداء » ، والناقد الادبي « برونتيير » الذي استهواه القرن السابع عشر ، الكلاسيكي والمسيحي في نظره ، وكلوديل ، وغوساير وآدي المتصلون بالرمزية . فقد كتب هويسمنس في السنة ١٨٩٥ : « بعد ان عرضت امراضي النفسية على كافة مستشفيات الافكار ، ذهبت في النهاية ، بنعمة الله ، الى المستشفى الوحيد الذي يضجعونك فيه ويمتنون بك ، الى الكنيسة » . ونذكر ايضاً اهتداء كان له صداه العظيم ، اعني بـــه اهتداء بيغي ، عند الانتهاء من قضية « دريفوس » . فان بيغي هذا قد اعلن في السنة ١٩٠٠ : « سوف نقصي بحـزم هؤلاء الملافنة العائدين من روما الذين يوصوننا بانكار العلم والعقل ، والانقياد الدائـــم ، والصمت المتحذر والتوقيري » . وهو الذي كان اشتراكيا بالامس ، فنابذ الاشتراكية ، وجوريس وما اعتبره عداء للاكليروس وحبا للسلم بالبين ، بل مشؤومين ، لان مسائل الخطيئة والنعمة تسلطت على عقله . لذلك كان « مستقبل العلم » في نظره كتاباً غاية في المراوغة ، وتنكيباً دائماً عن الحمية ، وسوء ائتمان . فأصبح ، كما يؤكد « لويس جيليه » ، « ذاك الذي يوحي لي صورة القديس بولس الحية » .

التحق هؤلاء المهتدون اذن بجماعة المؤمنين . فهذا هو الراعي فرنسن ، الروائي الرقيق الذي الّف « جورن اوهل » و « هيلينجلاي » ؛ وهـــذا هو الصوفي « فرنسيس طومسون » الذي يضاهيه رقة ؛ وهذا هو هيلير بلوك ، واضع المحاولات الحماسية ؛ وهذا هو « ليون بلوا » الذي اطلق على نفسه اسم « أفاق الرب » وكان جريئاً في ادعاء الرؤيا ، قادراً على كل بغض عنيف ، معذباً بالبؤس والالم . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان المفكرين الكاثوليك اختلفوا على طريقة اقعاد الايمان اقعاداً افضل ، فشدد « اولّيه ـ لابرون » على دور الارادة ، بينما لجأ موريس بلوندیل الى سمو الله لسد الفجوة بين الارادة وقدرة الضمير .

وبالمقابلة برز تجدد في الفن الديني . فان تاريخ القديسة جنفييف الذي رسمـــه « بوفي دي شافان » على جدران البانتيون ليس قط عمل فن مقدس ، ولا لوحـــة « المسيح والملائكة » لـ « مانيه » ، ولا لوحة « الصلب » لـ « سيزان » . وباستطاعتنا تعيين السنة ١٨٩٠ تاريخاً لنهضة هذا الفن الجلية بفضل لوحة موريس دونيس ، « السر الكاثوليكي » . ثم سار ديفالبير عـــلى خطاه ، واشار ليون بلوا منذئذ الى بلاغة « رووو » . وقبيل الحرب العالمية انتصبت ابنية العبادة الاولى المتميزة باسلوب جديد حقاً ، وبدأ باريليه يجدد فن صناعة زجاج الكنائس .

وكانت نهضة الموسيقى الدينية افضل ظهوراً ايضاً . وكان اصلاح الترتيل الطقسي نتيجـة لنشر الانغام الغريغورية الذي اعاد للترتيل الكنسي معناه الصحيح . وجعل الوحي الصوفي من

تلامذة مدرسة « نيدر ماير » ، و « ويدور » و « فيبرن » و « فرانك » مجددي الارغن : فعبروا بكل بساطة عن اندفاعات تقوى متينة لا موازبة فيها . وفي « مدرسة المرتلين » عند « فنسان دندي » ، تسببت مأساة الحياة الداخلية في وضع مؤلفات اشد اغماما .

النزعة المحافظة ضد النزعة العصرية

سار موريس بلوندیل في الخط الاوغسطيني ، في حال ان الكنيسة التي انشغلت في عهد لاون الثالث عشر بخطر الايمان المطلق بامكانات العلم ، ساندت الحركة التومية الجديدة التي ابتغت الاستعاضة عن تأكيدات المشائين المقوضة بتحقيقات العلوم العصرية ، ورغبت في تحليل نشاطات المسيحي الاجتماعية .

ولكن ما هو السبيل للتوفيق بين التقليد والعصر؟ لقد اعرب بعضهم مرة اخرى عن املهم ، في عهد « الانضمام » الى الثورة الفرنسية وبراءة « الاشياء الجديدة » ، وفي الوقت الذي اقصر فيه « اوغست ساباتييه » اللاهوتي الكالفيني القدير ، المسيحية على حالة نفسية داخلية ورفض كل ما لا يمكن فرضه الا باسم سلطة خارجية وانتهى الى مسيحية بدون عقائد وطقوس ورؤساء . وعلى نقيض ذلك ، وفي مناخ عملي ، اخذت « النزعة الاميركية » التي نادى بها الاب « كلاين » ، بجامع القلب ، لا بل ووجهت امكانية عقد مؤتمر للتقريب بين الاديان . ولكن لاون الثالث عشر استقبح في السنة ١٨٩٩ موقف الاحبار في ما وراء الاطلسي آخذاً عليهم تضحية الفضائل السلبية على مذبح الفضائل الفاعلة . ولكن النزعة العصرية تسلطت بالرغم من ذلك على العقول في المعاهد والمؤتمرات الكاثوليكية التي حاولت النهوض بعلم عقلي للدفاع عن العقائد المسيحية ، يمكن من محاربة العقليين في عقر دارهم . فكانت مؤلفات هولو ولويس دوشين وألفرد لوازي الهادفة الى تفسير الكتاب المقدس نتيجة التأويلات التي ما كان رينان نفسه ليتبرأ منها في الارجح . وارتأت لاون الثالث عشر وضع حد لذلك برقيمه « الله الكلي العناية » الذي انكر كل خلاف بين اللاهوت والعلم . ولكن الفلاسفة « له روا » وبلوندیل والاب لابرتونيير قد اعتقدوا هم ايضاً بالاهتداء الى الله باندفاع الكائن وحده : فالتومية لم تشبع رغباتهم . وانتشرت في ألمانيا كانتية كاثوليكية جديدة ، هي شقيقة العملية على الرغم من ان لاون الثالث عشر قد اصدر حكمه على هذه « النفسانية الجذرية » . وعمم الاب اليسوعي تيرل النزعة العصرية في انكلترا حيث احرزت « الكنيسة المتساهلة » نجاحات جديدة ؛ وقد انضم اليها مشايعون مجددون في ايطاليا : وقد فسر فوغازارو هذه الرمزية ببراعة في رواياته . وحين اقصي لوازي عن المعهد الكاثوليكي في باريس ، اصدر السنة ١٩٠٢ كتاب « الانجيل والكنيسة » : فاتهم هذه الاخيرة بمناقضة روح الانجيل واعتبر رينان « المعلم الاول للعصريين الفرنسيين » . وبينما ذكر ليون الثالث عشر قبل موته « بأن العلم البشري لم يجب على المسائل الكبرى التي تتعلق بمصالحنا السامية » ، استصدر الديوان البابوي مرسوماً يعدّد ٦٥ « خطأ وخيم العاقبة على العلوم المقدسة وتفسير الكتاب المقدس واسرار الايمان الرئيسية » .

في عهد بيوس العاشر وطدت النزعة المحافظة مواقعها. فان براءة السنة ١٩٠٧ نسبت الى النزعة العصرية انها « تجمع كافة الهرطقات » . وقد علق عليها اناتول فرانس ساخراً بما يلي : « يتعذر على الانسان ان يقدر حق قدرها حكمة البابا بيوس العاشر الذي اصدر حكمه على دروس تفسير الكتاب المقدس لأنها منافية للحقيقة المنزلة ووخيمة العاقبة على العقيدة اللاهوتية القديمة وممينة للايمان » . ثم تناولت ردة الفعل كافة اشكال الكاثوليكية الحرة ، ولا سيما في فرنسا حيث بدا « الانضمام » قضية خاسرة منذ انفصال الكنائس عن الدولة . فهكذا صدر الحكم على مطبوعة «الاخدود» ؛ وهكذا حذرت براءة السنة ١٩١٢ الكاثوليك من اخطار العمل المشترك بين الطوائف الدينية على الصعيد الاجتماعي .

الا ان النزعة العصرية لم تفض إلى حركة هرطقية واسعة . فأمام انشقاق قليل الشأن عدديا، حافظت السلطة الروحية على مواقعها التقليدية التي بقيت جماهير المؤمنين متمسكة بها . وفي عهد بيوس العاشر ، الكاهن القديس الذي كرس نفسه للدفاع عن العقيدة بدون تساهل ، نرى الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت اقل حرصاً ظاهراً على تجديد الروح المسيحية منها في الماضي، تهدف في الدرجة الاولى الى ان تبقى خير معتصم في خضم الارتيابات والاضطرابات .

النفسانية والمادية امام التطور البشري

اذا سلمنا ، كما يعلم ماركس ، « بأن الآراء السائدة في زمن من الازمنة لم تكن يوماً سوى آراء الطبقة المسيطرة » ، فقد يجدر بنا معرفة ما اذا كانت ردة الفعل التصوفية والروحانية لا تبرز بالدرجة الاولى في الاوساط التي تقلقها « الاشتراكية العلمية » : استفادت البوروجوازية من العلم ، فلم تأنف من الايمان بامكانات العلم المطلقة ؛ ولكن اليست الخشية من مادية معينة ، قد يحسن او يساء فهمها ، وتمثل بحتمية تحصى بموجبها ايام النظام الاجتماعي القائم ، دافعاً لها لأن تعتصم بارجحية وعرضية قادرتين على انقاذ حرية الفكر وبالتالي على استحقاب المستقبل ؟ هذا ما ارتآه « رومان رولان» : « منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد ايام حزيران ١٨٤٨ التي سالت فيها الدماء غزيرة ، اخذت البورجوازية تفقد محبة ذاك التقدم الذي لم يتوقف قط من اجلها ، وذاك العقل ، الممتنع التبدل ، الذي بذلت جهدها بدون ترو في سبيل إرساخ سلطته . وهي الطبقات الصاعدة ، اي انبياء البروليتاريا ومدارسها الاشتراكية ، من وضعت يدها عليها لحسابها » . وفي « اوهام التقدم » سوف يتولى جورج سوريل ، فيما يعنيه ، تقديم البرهان على ان التفاؤل القائل بامكانات العلم المطلقة انما هو انتاج بورجوازي ، وتحذير « الطبقة الصاعدة » من نظرية مجففة ، وفي الوقت نفسه ،وبصورة خاصة، انتقاد العملية ، وهي « التعبير الاخير الذي توصل اليه الفكر البورجوازي » . « ان هذه الفلسفة توافق موافقة كلية كل حديث نعمة يرغب في الانتماء الى عالم متساهل جداً ، بفضل دماثته ، وثرثرته وقحة نجاحه » . وقال « جوريس » على طريقته الخاصة : « ليس بعد اليوم سوى طبقة واحدة تستطيع اعطاء الفكر شكلا اجتماعياً : هي البروليتاريا » . ولذلك حرص

لينين على ابراز الاهتمام الذي يتوجب على هذه الاخيرة ابداؤه نحو تحقيقات العلم . وقد سخر من « العاصفة » التي اثارها كتاب هكل « في البلدان المتمدنة » وهلل «للاهمية الاجتماعية الحقيقية » التي ينطوي عليها هذا المؤلف ابان « صراع المادية ضد التصوفية واللاادرية » . واثبت اسباب انزواء الفلسفة في الفكر « الخالص » وحصر مهمتها في التبصر في ذاتها بدلاً من التبصر في الواقع ، خوفاً من ان يخطئها الواقع الاجتماعي . وفي رأيه ان الهرب امام نظرية المعرفة المادية قد ارتدى اشكالا مختلفة جداً ، لا سيما وانه يسهل جمع حلقات السلسلة التي تؤدي من النسبية العلمية الى العملية ، الى التصوفيات الكثيرة والروحانية القائلة بتفوق الايمان على العقل . فالتصوفية ليست سوى شكل ممحص من اشكال مذهب تفوق الايمان على العقل، الكلي القدرة ، الذي يعتمد على منظمات كبرى ولا يزال يؤثر على الجماهير تأثيراً مستمراً ، مستفيداً من اقل غوايات الفكر الفلسفي .

ولكن ما لا يمكن انكاره ، على كل حال ، ان المفهوم النفساني ، الذي احتفظ من جهة ثانية بانصار اقوياء ، قد لعب في النطاق التاريخي عدداً كبيراً من خصوم الماركسية . اجل لقد امعن « ماكس وَبر » النظر في العلائق بين « علم الاخلاق البروتستانتي وروح الرأسمالية » وامسك عن «احلال تفسير مادي من طرف واحد محل تفسير روحاني...من طرف واحد ايضاً » ؛ ولكن « درويسن » يجزم بأن « تأمل ومعرفة الاشياء الماضية لا وجود ولا ديمومة لهما الا في الفكر المتناهي » ، و « روه » يضع في الحاضر « مركز رسم المنظور » ، و« توينبي»، البرغسوني المقتنع ، سينتهي الى نوع من التاريخ اللاهوتي . اما « بندتو ـ كروتشي » فيعتبر ان التاريخ « يدخل في مفهوم الفن العام » ، وانه « روحاني » ، وان عليه اكتشاف الاندفاع الخلاق مرة ثانية ، كما اراده « فيكو » (الفن جدس خلاق ، وليس ، كما حدده « فرنسسكو دي سانكتس » تلميذ هيغل ، « نتاجاً لاشعورياً من نتاجات روح العالم في فترة معينة من فترات وجوده). وليس من تاريخ ، في نظره ايضا، سوى التاريخ المعاصر : « لأن موضوعه ، مهما بلغ من قدمه ، يعيش في فكر المؤرخ بهوى الحاضر نفسه » . فنحن من ثم امام تاريخ فلسفي ونسبي كان ردة فعل للتاريخ الوضعي الاسلوب والماركسي المفهوم .

رأى كروتشي في الواقع الاقتصادي نفسه عملا من اعمال الارادة . ولكن الاقتصاد السياسي ، فيما يعنيه ، يعيد التفكير في مسائله نفسها . فلما لم يعد الايمان بالتوافق ممكناً ، بحسب حلم المدرسة الحرة ، فقد فُرق بين الاقتصاد الخالص ، المجرد ، المنظور اليه نظرة توازنية خلوا من المغزى العملي، وبين الاقتصاد النشيط الذي يستلزم الاختلالات ويخضع لحاجات الانسان اكثر من الاقتصاد الاول . وعاد العلماء الى كورنو، فاسندوا برهانهم الى قوة آخر رغبة اشبعت: فأراد « الفرد مارشال » « الاهتمام بعواقب الانسان ... الانسان المركب من لحم ودم » . هذه هي نظرية القيمة – الفائدة التي جعلها الهامشيون مقابلة لنظرية القيمة ـ العمل الماركسية : وقد استنتجوها من المبدأ النفساني ، باعتبار ان«الانسان الاقتصادي» يعمل في اتجاه مصلحته المدركة

خير ادراك . وهناك المدرسة الرياضية ، او مدرسة لوزان ، مع « جيفونز » و « والراس » و « باريتو » ، التي يؤول كل شيء فيها الى مسائل توازن تطرحها آلية المقايضة دون غيرهـا ؛ ومـدرسة فيينا او « منجر » السيكولوجية التي واصل تعليمها « بوهم ـ باورك » و « فون وايزر » اللذان يعتبران الجهد المبذول والتضحية المقبولة امرين جوهريين. فاعتقد شارل جيد في السنة ١٩١٣ ان بامكانه كتابة ما يلي : « لم يعـد قط من اقتصادي يؤمن بأن القيمة ثمرة العمل ... فالرغبة هي سبب القيمة الاوحد ... » .

لقد خضعت مميزات الآليات الاقتصادية من ثم لجدل حام ، وساد الارتياب حول الاقتصاد المعروف بالاقتصاد الكلاسيكي . فلم يبق قط هنا سوى ارجحية بسيطة تخفف من تفاؤل الامس الذي وجه اليه ماركس والوقائع ضربات خطيرة .

obeikandl.com

الفصل الثاني

الدول الاستعمارية والحمى القومية
أعراض التقهقر الاوروبي

في الوقت الذي كانت فيه عوامل الحياة تتجدد باطراد ، أخذت اخطار مخيفة تتهددها باستمرار . فالاقتصاد الرأسمالي الذي ركبته حمى التوسع والانبساط يخضع لسنة الحشد والتجمع ويسعى دونما انقطاع الى توحيد السوق العالمية مع اثارته الروح الامبريالية التي اخذت تقيم الدول الاستعمارية الكبرى بعضها على بعض . وفي الوقت ذاته ، نشهد احتداماً كبيرا في المشاعر القومية التي أخذت تجيش وتضطرم في نفوس هذه القوميات او الاقليات المستضعفة . وهكذا أطل على العالم احتمال قيام حرب عامة واستبدت الفكرة الى حد بعيد بأذهان البشر وسيطرت على تفكيرهم اليومي .

الاقلية الرأسمالية تزداد بأساً وحولا وتوسعا

ساعدت الازمة المالية التي عانى منها العالم طويلا بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ في تكوين تكتلات صناعية ومالية . وبالرغم من رجوع العافية الى الناس واستئناف النشاط ، فلا يزال مسيطراً على النفوس الخوف من وقوع ارتكاسات تجر وراءها ركوداً جديداً في الاعمال وهبوطاً اكبر في نسبة الأرباح ومعدل المكاسب . فالازمات التي كان يتجدد وقوعها بصورة دورية كانت تأتي فعلها في مثل هذا المصير الذي لم يكن من السهل تفاديه . فالأزمة المالية التي وقعت عام ١٩٠٠ / ١٩٠١ تسببت بتكوين ٧٩ اتحاداً احتكارياً في الولايات المتحدة الاميركية . ففي سنة ١٩٠٩ ان ١٪ من المشاريع الانشائية كانت تستخدم ٣٠ بالمائة من مجموع اليد العاملة كما كانت تستعمل ٣٨ بالمائة عام ١٩٠٤ . وفي تلك الغضون ، وقعت أزمة ١٩٠٧ التي سجلت ارتفاعاً في التكتلات التجارية

ارتفع عددها بين ١٨٩٦ – ١٩١٠ في المانيا وحدها من ٢٥٠ الى حوالي ٤٠٠ ؛ وفي سنة ١٩٠٨ كان واحد في المائة من المشروعات الانشائية يستخدم ٣٩ بالمائة من اصحاب الاجور ويسيطر على ٧٧ بالمائة من القوى المحركة. وهذا التطور يبدو على شكل اوقع وصورة أفعل في النفس في بعض البلدان الاخرى كروسيا واليابان اللذين حاولا قطع المراحل بسرعة . وبالرغم مما بلغ من اتساع ورحب حركة المنافسة ، فقد بقيت مع ذلك، مرتبطة ، على اقدار مختلفة بأقلية من المحتكرين . ان نصف ثروة الولايات المتحدة الاميركية القومية هي في يـــد ٢٥ الف فرد من افراد الشعب الاميركي .

فسيولة الرأسمالية النقدية هي التي استطاعت أن تؤمن لحسابها مثل هذا الحشد . هنالـــك بعض المصارف الكبرى ، لا يزيد عددها خمسة او ستة على الاجمال ، هي التي تستبد بأهم الدول الكبرى في اوروبا كما ان للولايات المتحدة الاميركية الخمسة الكبار *The Bib Fives* من هـذه المصارف. فالبنك الاهلي الالماني يشرف على ٨٧ مصرفاً ثانويا في البلاد كما كان يسهم في ادارة ٣٠ مصرفاً آخر ، عام ١٩١٠ . هنالك عدد لا يحصى من الاتفاقات والمشروعات ربطت ، بشكل آخر ، الاستثمارات الصناعية بهذه المصارف التي فتحت لها باب الاعتمادات المالية . فالبعض منها اتبع الحشد الافقي (امثال : دورمان ، لونغ وبلدوين في الميتالورجيا او الصناعات الحديدية ، وبرادفورد دايرز في صناعة الاصباغ والالوان ، وشركة *Cable Makers* لدى البريطانيين ، كما ان البعض الآخر آثر الحشد الشاقولي او العمودي ، فانطلقت كروب من صناعة الحديـد لشراء مناجم الفحم وتجارة الفحم والغاز ومشتقاته ، بينما ينصرف ثيزين وستينز للتخصص بتجـــارة الفحم من استخراج وتسويق وتنفيق، وينشىء في هذا السبيل شبكة من الخطوط الحديدية .ولم يقنع وليم هسكيث لفر،مؤسس شركة *sunlight* و *Port Sunlight* ان ينشىء امبراطورية له من فروع هذه الشركات في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية . بل ابتـاع له مزدرعات واسعة في افريقيا والفيلبين وانشأ فيها مصافي لتكرير البترول ، كما اهتم بانشاء مراكز لصيـــد السمك ، وانشأ صناعة المرجرين او السمن النباتي بحيث اصبح يتصرف بأكثر من مليون لـيرة انكليزية عام ١٨٩٠ ، وبعشرين مليون عام ١٩١٣ .

ونشاهد منذ الآن التفوق الساحق الذي حققته في اليابان شركتان يابانيتان هما : المتسويي والمتسوبيشي . وجبابرة المال على شاكلة مورغان وفندربلت وروكفلر ، سيطروا ايضـــاً على مرافق صناعة الميتالورجيا وعلى الطاقة الكهربائية وعلى صناعة البترول في اميركا . لا يمكن ان نغفل عن ذكر هذه الشركات العقارية الضخمة وشركات المخازن الكبرى وشركات التأمين على الحياة وشركات صنع الاسلحة . فقد وحد باسيل زهاروف الذي رفعه ملك انكلترا الى رتبـة النبلاء بين شركة نوردنفلت وشركة مكسيم ، كما ضم ، فيما بعد ، مكسيم الى فيكرز ؛ ورئس البرت فيكرز اتحاداً دولياً من كبار رجال الاعمال من بعض الشركاء فيه بتليهم وترني ، كما أن شنيدر وكروب يشرفان على اعمال شركات *Poutilov* و *Skoda* . والكرتل الدولي لصناعـة

البارود وقع تحت اشراف اتحاد نوبل ودوبون دي نمور .

اما الارباح التي لا يزال بحثها العلمي في مرحلته لاولى ، فمعدلها يختلف نسبة بين سنة واخرى ، ومن قطاع الى آخر . فشركة دوبون مثلا حققت ربحاً صافيا بلغ ٥٠ مليون دولار بين ١٩٠٢ – ١٩١٢ . وبفضل الطريقة المعروفة بارساء رأس المال نرى شركة صنع الفولاذ الاميركية ترفع رأسمالها من ٦١٧ الى ٧١٧ مليون دولار وتصدر اسهماً بـ ١٤٤ مليون دولار بعد ان امتصت شركة مناجم بحيرة سوبيريور البالغ رأسمالها ٩٢ مليون دولار وتطورت الى شركة جديدة رأسمالها ١٤٨ مليون دولار . ويعترف كروب بأن ارباحه بلغت ٢٠ مليونا صافيا عام ١٩٠٣ و ٣٤ مليونا عام ١٩١٣ – ١٩١٤ .

وراح فرقاء من أصحاب المصارف يخططون لهجوم نموذجي بعد ان اخذوا يتقاسمون فيما بينهم او يتنازعون في كل مكان ، المشروعات الاستثمارية ذات الاهمية . نحن نجهل الكثير من حوادث هذه المعركة ودقائقها وهي معركة خاضوها للسيطرة على الخامات الضرورية والاسواق العالمية . هنالك حرب صامتة كان من اهدافها السيطرة على القصدير ، وأخرى رمت للسيطرة على الكبريت واخرى للتحكم بالتبغ دارت رحاها بين الشركات الاميركية والانكليزية . واحدى هذه المعارك الاكثر معرفة لدينا في دقائقها وتفاصيلها هي معركة النفط او البترول ، نشبت اول ما نشبت ، بين شركة ستندارد اويل ورويال دتش شل من جهة ، وبين شركات نوبل – روتشلد . فوقائعها البارزة تدور حول نفط القفقاز وبين المناطق البترولية الجديدة التي تسيطر عليها الولايات المتحدة في المكسيك والعراق وايران . واتخذت هذه الحرب شكل صراع بين الانكليز والاميركيين . وقد شعر الرأي العام بمثل هذا الصراع الواسع المدى بين الدول دون أن يتبين تماماً مداه ، وهو صراع ان لم يهدد السلام مباشرة في العالم فقد زرع مع ذلك الاضطرابات في كثير من الدول .

ضعف اوروبا في الاسواق العالمية

اخذت المنافسة الاقتصادية بين الدول الاوروبية الكبرى تشتد وتحتدم ، وهو وضع يمكن رده الى الصعوبات والعراقيل التي اعترضت سياستها التوسعية الامبريالية .

ويبدو ان اوروبا اخذت تتلمس بعض مواطن التأخر والضعف النسبي في مركزها ونشاطها . ففي عام ١٩١٣ كانت اوروبا تسيطر على ٨٠ بالمائة من مجموع النقل البحري وهي نسبة لا تعادل سوى ٤٢ بالمائة من مجموع حركة النقل في العالم ، وهو معدل محترم الا انه آخذ بالتقهقر والهبوط تدريجياً ، وهو ادنى من حصة اميركا الشمالية (٢٦ بالمائة) بالنسبة لفارق السكان بين القارتين . لا تزال بريطانيا العظمى تحتفظ بمركزها الممتاز في صناعة النسيج والحياكة ، الا انها عجزت كما عجزت المانيا نفسها عن الاحتفاظ بالاسبقية في انتاج الفحم الحجري والميتالورجيا ، وهي اسبقية صارت الى الولايات المتحدة الاميركية التي سجلت في مجال الطاقة الكهربائية سبقاً

اكبر وأبعد .

وأخذت اوروبا تفقد شيئاً فشيئاً القدرة على الاكتفاء الذاتي وراحت تعتمد اكثر فأكثر كل سنة على اقطار اخرى في العالم ليس في الخامات التي هي بحاجة اليها فحسب بل ايضاً في المواد الغذائية التقليدية . ونلاحظ ان بريطانيا العظمى لم تعد تعول على محاصيلها الزراعية ، الا بنسبة ٦٠ بالمائة ، وان بلجيكا تستورد عام ١٨٩٠ نحواً من ٥٥ بالمائة من القمح و٧٥٪ بين السنوات ١٩١٠ — ١٩١٤ .

ان ٦٠ بالمائة من التبادل التجاري يقع في داخل اوروبا او بين هذه الدول والدول الاخرى في العالم . الا ان وضع اوروبا من هذه الناحية هو اقل من قبل لصالحها . والجدير بالملاحظة هنا التأخير الذي نلاحظه في موقف انكلترا التي كانت تنتج ستة اضعاف مـــا تنتجه الولايات المتحدة من الفحم ، عام ١٨٧٠، بينما انعكس الوضع بينهما عام ١٩١٣، اذ نقص انتاجهـــا من هذه المادة الى الضعفين من انتاج اميركا . فاذا ما عرفت ان تحتفظ بالمرتبة الاولى الى عام ١٩١٠ بانتاجها للحديد ، فقد جاءت عام ١٩١٣ ، في المرتبة الثالثة ، بعد الولايات المتحدة والمانيـــا . ومجموع الحركة التجارية انخفض معدلها من ٢٢ بالمائة حوالي عام ١٨٧٥ ، الى ١٥ بالمائـة عام ١٩١٣ ، وهبطت حصتها من النقل البحري الى الخمس بعد ان كانت الربع . ومن جهة اخرى بينما يأخذ الميزان التجاري في البلدان الواقعة الى الشرق من المحيط الاطلسي (هو ١٠ بالمائـــة لالمانيا و ٢٠ بالمائة لفرنسا و ٣٠ بالمائـــة لانكلترا) تسجل حركـــة الصادرات في الولايات المتحدة ارتفاعا كبيرا . واوروبا مدينة بما لها من قوة في ميزان المدفوعات لاستثماراتها العديدة في الخارج . فهي تحتفظ بثلاثة ارباع الثروة المنقولة ، بينما بريطانيا العظمى وحدها تبز الولايات المتحدة في حساب الثروات الوطنية . وقد تبين من عملية حسابية ان الفرد الواحـــد ينفق في السنة ٢٣ الف فرنك بينما لا ينفق الفرد الانكليزي سوى ٢٠،٧٠٠ ، والفرد الفرنسي سوى ١٤،٥٠٠ فرنك . وهذا انما يعني انه اذا كانت اوروبا لا تزال تبـز سكان الولايات المتحـدة استهلاكاً في العام للمواد الاستهلاكية من اي نوع كانت ، فلا يزال الاميركيون في الطليعة بالنظر لعدد الفرقاء المتناولين . والشعور السائد في اوروبا هو ان ما تتمتع بـــه من مستوى اعلى في العيش ، يعود الفضل فيه لهذا التراث الذي خلفته لها العصور الماضية . ان اي تطور من هـــذا الشكل من شأنه الا يساعد قط على قيام حالة من التفاهم بين الدول ولا السلام الاجتماعي .

استثمار أقوى للبلدان الجديدة

لمـــا كان تم تقريبا اقتسام كل الارض القائمة على كرتنا الارضية ، فقـــد انصرف الاستعمار اكثر فاكثر الى استثمار بطن الارض وثرواتها المخبوءة في هذه المستعمرات . فبين ١٨٩٠ — ١٩١٣، زاد طول شبكة الخطوط الحديدية التي انشئت في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية (٢٦٥،٠٠٠) كلم مقابل ٢٢٢،٠٠٠ كلم في المستعمرات وفي البلدان الاخرى المستقلة او المتمتعة بشيء من الاستقلال الاداري . فبينما

يرتفع ، في المدة نفسها، مجموع صادرات الدول الصناعية من ٢٢ مليارا الى ٧١ مليار فرنك، زادت هذه الحركة ٢٤٪ داخل المجال الذي يسيطر عليه رأس المـــال ، و ١٤١٪ في هذه المنطقة التي لا يكاد يوجد فيها اي اثر يذكر لهذا الرأس المال . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار معدل الزيادة في حركة المبادلات التجارية نرى ان الدليل ١ في عـام ١٨٩٥ ارتفع في اوروبا الى ٢ عام ١٩١٣ ، والى ٤٤٣ في الارجنتين ، والى ٤٨٠ في اليابان . فمن اصل ٢٢ دولة سجلت تجـــارتها الخارجية مليار فرنك واكثر عام ١٩١٣ هنالك عشر بينها ، باستثناء الولايات المتحدة ،تقع خارج اوروبا.

وقد تركز الانتباه حول الاقطار التي تستطيع تقديم الخامات والمواد الاولية او تصلح للتجهيز الصناعي والتقني . ومن الامور التي لها دلالتها ان الولايات المتحدة رفضت اعطاء الفيليبين استقلالها بعد ان وعدتها به، في الوقت الذي انصرفت فيه لمد هذا الارخبيل وكوبا وبورتوريكو بما تحتاج اليه من عدة وعتاد وتجهيزات. وقد قبلت بلجيكا من جهتها ، هبة الكونغو الذي كشف عن غناه بفلزات الحديد وإنتاجه لها . وقد اتجهت اطماع الدول الكبرى الى المغرب وطرابلس الغرب حتى الى تركيا ، ولم يعتم شمالي افريقيا من جبل طارق الى قناة السويس ، ان وقع تحت احتلال الدول الاوروبية . كذلك اتجهت حركة التبادل التجاري في انكلترا بالاحرى ، نحو الهند وبـــلاد الدومنيون ومقاطعات افريقيا الاستوائية ودول اميركا الجنوبية ، بينما لم تسجل هذه الحركة مع دول القارة الاوروبية والولايات المتحدة الاميركية سوى تقدم خفيف . وانصرفت جهـــود فرنسا الى ادخال تحسينات محسوسة على وسائل ووجوه استغلال امبراطوريتها الاستعمارية وهي سياسة قامت بخدمتها وتمهيد السبل لاحقاقها ، الجهود التي قام بها بعض رواد الاستعمار الفرنسي أمثال اتيين وجونار ودومر، كما اتجهت هذه الجهوه لتقوية المصالح المصرفية والصناعية والتجارية. وهكذا اطلت علينا الجزائر كبلد تتوفر فيه محاصيل الكرمة وبواكير الفاكهة والمزيـــد من انتاج المعادن . وقد زاد انتاج البلاد من القمح مع بقاء المساحات الصالحة للزراعة على وضعها ، وادخلت وسائل جديدة على تخصيب التربة ورفع قدرتها الانتاجية . وقد جلبت زراعة الزيتون وثروات البلاد من الفوسفات الانظار الى تونس . وقد سار دومر قدماً في هذا المجال في الهند الصينية ولجأ الى فرض رسوم عالية على المشروبات الكحولية ، وعلى الملح لتغذية صندوق هـــذا القطر الذي يتمتع باستقلال اداري ، كما عمد الى تنشيط حركة الانشاءات الكبرى بفضل مساهمة الشركات الخاصة . وقد لفتت مصر الانظار بسرعة تطور صناعة السكر وزراعة القطن بفضل السدود الكبرى التي اقيمت على النيل في الصعيد. وكان اهم من ذلك بكثير قدرة الهند والانسولاند الانتاجية، وهذا الدفع الاستعماري الذي شهده العالم في هذه الحقبة ، ساهمت به على اقدار متفاوته كل من كندا واوستراليا وروسيا والصين والبرازيل . وهكذا برزت امام العـــين سمات الدول الاقتصادية العظمى التي تقاسمت فيما بينها اقطار القارات الخمس .

ومع ذلك فعندما ننظر الى النزعـــات القائمة نرى تضارباً قـــوياً بين السياسة التي ترمي الى توحيد السوق العالمية وبين السياسة التي تسعى الى تنشيط الحماية الجمركية .

فالى الـ ٦١ اتفاقاً دولياً عقدتها الدول حتى عام ١٨٩٠ ، يجب ان نضيف ٦١ اتفاقاً دولياً جـــديداً تم توقيعها بين ١٨٩٠ – ١٩٠٠ و ١٠٨ اتفاقات اخرى جرى توقيعها بين ١٩٠٠ – ١٩١٠ وقد قامت عبر الحدود والسدود عـلاقات اوثق واوطد . فشركة *Ritchie* الانكليزية الاميركية لاستثمار مناجم النيكل في كندا ، اقامت لها مصانع كبيرة في الولايات المتحدة وفي بلاد الغال وعلى مقربة من لندن . ومعامل الصلب في لنغواي تنضم الى معامل الصلب القائمة في روتشلنغ في ساربروك ونالت شركة *Thyssen* وشركة *Gelsenkirchen* امتياز استثمار فلزات الحديد في فرنسا ، وشركة دندل الفرنسية الالمانية لها معاملها الخاصة بصنع الحديد والفولاذ في مقاطعة اللورين ، ومصانع لاستخراج الكوك في الروهر ، ومصانع بوتيلوف وقعت تحت اشراف اصحاب معامل أسن وكروزو ، وتعمل معامل كروب سنيدرز وفيكرز على مد الدول القائمة فيها هذه المعامل والدول الاخرى ، بما تحتاج اليه من العتاد الحربي دونما تمييز فيما بينها . والرأسمال المال البلجيكي يساهم بشكل محسوس في بناء شبكة المترو في باريس ، كما ان ٦٠٪ من فنادق الشاطىء اللازوردي يعود لشركات اجنبية . وبناء خط بغداد الحـــديدي تم بعد عـــدد من الاتفاقات الدولية يشترك في التوقيع عليها ، عدد من المصارف والشركات في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا . والتضامن يبدو على اكمله في هذه المراكز الدولية التي تتحكم باسعار البضائع وبحركة البورصات في العالم . وبشيء من الاعتداد بالنفس ، راح الامين العام للجنة مناجم الفحم في فرنسا ، هو هنري بيريمهوف ، يصرح في حزيران ١٩١٤ قائلاً : « حلت سياسة المشروعات الاستثمارية محلاً مرموقاً وراء الحدود ، الى جانب السياسات الاخرى ، كسياسة المفاوضات الدبلوماسية والتنظيمات الكبرى » ويبدو ان عبقرية السان سيمونيين والكوبدنيين عملت دوماً بزخم مدفوعة الى ذلك بالتفاؤل وحب السلام للسير بالبشرية تحت قيادة وتوجيه نخبة من الاشخاص الدوليين ورجال الاعمال المتصفين بالدراية والحنكة . وهذه الشبكة الواسعة من رؤوس الأمـــوال التي تشد العالم بعضه الى بعض تتالف من ملايين المودعين ومن كبار رجـال المال المساهمين بعملية مسكونية باتساعها ، جماعية بالفعل لخير الانسانية الاكبر .

الا ان هنالك ، على كل حال ، ضغط مستمر على السلطات العامة والبرلمانات بحيث ان المنافسة الدولية لم تسبب اي اذى للنشاطات الوطنية . وهذه الغيرة ذات النزعة الخاصة التي افـــادت كثيراً من الازمات الطويلة التي اشتدت وطأتها بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ ، ومن الخوف من الحرب ، ومن الرغبة في التسلح لتأمين السيطرة والامتداد ، بقيت ناشطة بعد زوال الازمة وعودة الامور الى نصابها . فانتصار « لست » على كوبدن ظهر واتضح . صحيح ان بريطانيا العظمى رفضت الاخذ بالبرنامج الذي عرضته عليها عصبة اصلاح التعرفة الجمركية التي انشأها تشمبرلن . ونظام حرية

التبادل التجاري الذي اعتمدته وسارت عليه بعد ان ادخلت عليه تعديلات مستوحاة من نظام الدول الاكثر رعاية،عول كثيراً على اخراج الفكرة المرعية لاي دولة تعول على الخـــارج في امور معايشها ادهى مـــا تخشاه ارتفاع تكاليف العيش لديها. فمـــن ميلين الى بولوف ، ومن مـــاك كيلي الى وايت ، كان على التعرفة الجمركية ان تتيح للزارعين وللصناعيين المتضامنين بعضهم مع بعض ان يخضعوا المستهلكين للقوانين التي يخضع لهـا المنتجون ، الذين يرغبون في ان يكونوا بمأمن من هبوط جديد في الاسعار ، مما يسبب لهم انخفاضاً في ارباحهم . والحماية الجمركية ذات النزعة الوطنية التي اصبحت كالاتفاق المهني ، شكلاً لا بد منه من اشكال الاقتصاد المنظم ، تعتبر بفضل استمرار الاخذ بها والعمل بموجبها ، الدليل القاطع على تحول النظام الرأسمالي الحر.

اسس السياسة الاستعمارية الوطنية

تتصل السياسة الوطنية الاقتصادية بالسياسة الوطنية التقليدية، وتصدر مثلها من معين القومية الحـذرة ومن كره الاجنبي المتأصل في ابناء البلاد . بلغنا ، يؤكد ماك كنلي بصراحة ، عام ١٩٠١ ، هذه الدرجة من النمو الصناعي بحيث لا بد لنا من ايجاد اسواق جديـــدة للفائض من انتاجنا ، بعد ان تم لنا فائض يتحتم تنفيقه وتصريفه . وراح الفرد ملنر ، بعد ان قام باصـــلاح النظام المالي في مصر ، ورأس تكوين اتحاد جنوبي افريقيا ، يصرح ، عـام ١٩٠٤ ، امـــام مجلس ادارة الرابطة البحرية البريطانية ، قائلاً : « انا رجل استعماري، امبريالي مائة بالمائة ». والحال نرى مواطنه الاقتصادي الحر هوبسن ينسب الى الروح الاستعمارية الذي يصفه دريو، عام ١٩٠٧ بأنه الخـــاصة الاكثر تميزاً والاكثر جدارة بالملاحظة، التي برزت في اخريات القرن التاسع عشر، نطاقاً سياسياً – اجتماعياً واقعياً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باقتصاد رأسمالي يخضع للروح القومية . وهذا القول يتفق تماماً مع الرأي الذي قال به لنين وهلفردنغ ومعظم فـــلاسفة الاشتراكية . ومهما يكن من الامر ، فقانون التضخم التاريخي كما ورد على لسان تارب الذي قال باجتذاب الكتل الكبيرة للكتل الصغيرة ، هذا القانون الذي عبر عنه عـالم اجتماعي آخر، هـــو الاستاذ *Greef* ، احد تلاميذ *Corey* ، يجب ان يعمل لصالح الدول الكبرى ، التي جـاءت على مقاييس « امبراطوريات كونية » . وقد رأى هـــاز رئيس رابطة الجامعة الجرمانية في الامر مرحلة ضرورية في حركة تطوير اي جهاز عضوي حي سليم. فهذا الاندفاع الحيوي يحتاج الى مـــدى حيوي هو *Lebemstraum* .

ومن الطبيعي جداً ان تُشهد كل سياسة استعمارية الارض والسماء عالياً « بأن الامبراطورية الانكليزية ، بما هي عليه من مساوىء وعيوب ، تتمتع بنفوذ بشري، تمديني مسالم لا مثيل له في عالم اليوم » ، وبولوف نفسه يصرح قائلا : « يدعو الانكليز الى انكلترا عظمى ، ويدعـــو الفرنسيون الى فرنسا كبرى ، ومن حقنا نحن ايضاً ان ندعو لالمانيا كبرى » .

وفي سبيل الدفاع عن الوطن الام ، راح عدد من دعاة الاستعـــمار سوادهم من الفرنسيين يفكر باستثمار المستعمرات الواقعة وراء البحار . افلم يقترح ملكيور دي فوغويه ، عام ١٨٩٩،

حشد جيش من ١٠٠ او ٢٠٠ الف من هؤلاء الجنود البواســـل ، بين سنغاليين وسودانيين لا يعرفون للمنطق دوراً ولا للصفح محلا ؟ وقد كتب لويس سوبوليه ، عام ١٩١٢ ، قائلا : « على الزنجي ان يفهم ويدرك جيداً بان الدولة التي استقرت في داره وفرضت عليه سيادتها وسؤددها، هي سيدة مطاعة ، تبسط سيطرتها فوق السهول والاحراج والغابات ، هي اقوى وامجد من كل ما تعاقب عليه وعرف من اسياد وخبر في ما مضى من سلطات حاكمة . فما من شيء يأخـــذ بمجامع قلبه ويؤثر فيه اكثر من اطلاعه على هذه الامجاد وهذه الانتصارات الحربية المجيدة التي سجلها كل من لويس الرابع عشر والجمهورية ونابوليون ، وهـــذه المعارك الطاحنة التي دارت رحاها على مرأى منه »

« اني أقدم لكم هذه الامة المتشاوفة التي تدعي المسيحية ، العائدة اليكم بما هي عليه من ادران ووسخ ، ملطخة بالدماء ، مرضوضة ، فاقدة شرفها من اعمال القرصنة التي قامت بها في كياو – تشاو ، ومنشوريا وجنوبي افريقيا والفيليبين. فالدناءة والخنا ملء بردتيها وجيوبهـــا منتفخة من الذهب الذي سلبته ، ولسانها يفيض رياء وكفراً . اعطوها ثياباً نظيفة وصابوناً ، ولكن اياكم والمرآة ، ابعدوها عنها » (مارك توين).

الدليل العرقي والعنصرية

لم يلبث مبدأ القوميات الذي استشرى الأخذ به في القرن التاسع عشر ان اتخـــذ مظهراً له فكرة العرق او العنصر ، هذه الفكرة التي لم يعـــد مدلولها ليقتصر على الجنس البشري ، بل تعداه الى شتى الفرق ليذوب في مفهوم الدولة او الدول . وهكذا اخذ الناس يعتقدون بوجود عروق سامية ، وهي عروق مختـــارة او مصطفاة معدة لقيادة العروق الاخرى حتى راحت تعتقد ان مستقبل « الحضارة » مربوط، الى حد بعيد بقيام هذه العناصر المختارة وبالرسالة السامية المرسومه لهـا من قبل العناية الالهية. وفي الوقت ذاته اخذت الاوساط العلمية تتردد ، في ابداء رأيها، حول طبيعة العرق وجوهره ، وراح بعض الكيميائيين ، بدافع من الافكار الرجعية او بدافع من الغرض الشخصي يجعلون من العرقية حقيقة واقعية تتميز كلياً عن الدولة وعن الديموقراطية والطبقة الاجتماعية ، وغير ذلك من التجريدات المسلم بها اليوم .

بقي ان نعرف من هو لعمري العرق المختار. فقد سبق لغوبينو ان اقترح « العنصر الآري»، وجعله العنصر الارستوقراطي في الدرجة الاولى بشهادة اشتقاق الاسم . وهكذا شـــدد على المناقبية التي يتمتع بها الاوروبي الشمالي الفاتح او الغازي ، في الاصل ، وهـــذه النظرة تتلاقى والنظرة التي قال بها وعلم بولنفيليه ومونتلوزيبه اللذان راحا ، منذ القرن الثامن عشر يشيدان بما للفرنك من حق صراح بهذه المميزة بوصفه محارباً نبيـــلا ، مؤهلا ليحكم العنصر الغالو– الروماني ، الذي غُلب على امره وبرهن عن دناءة وخساسة .

ولكن ما هو السبيل للتمييز ،بين السكسوني والجرماني ، في اوروبا اليوم ؟ فبعد ان رحب

كل من كارايل وكنفسلي ومن بعدهما دلك وسيلي، وبعد ان غنى كبلنغ راح الاول يشيد بالمآتي والانجازات الحربية التي تمت على يد سكان الجزر ، سواء في قلب الشعوب القديمة او في سباسب اميركا وافريقيا واوستراليزيا العذراء .

تراثنا واسع رحب ومساهمتنا وافرة

وروابطنا اقوى وامتن من هذه الحياة السريعة العطب (كبلنغ)

ومع ذلك فالاعتداد الاميركي لا ينقص بشيء عن تطرف الوطنية البريطانية وغلوها . فهما من أرومة واحدة . ولذا احتار هذان الاخوان المتنافسان ما اذا كان عليهما ان يمضي في تنافسهما الحاد للسيطرة على العالم او ان يتحدا معاً على حكمة وتعقل وفرض سيطرتهما عليه .

ومهما يكن ، فقد شدت بينهما رغبة واحدة بالمحافظة على نقاء الاصل عن طريق الامتناع عن مصاهرة ومخالطة العروق الملونة المعترف بانحطاطها ، فقد اخذا بصورة غريزية بمبدأ العرقية او العنصرية في هـذه القارات الجديدة حيث يدعون انهم في ديارهم . فعن طريق الاستثناء او اقله عن طريـق التمييز العنصري ، اخذوا يحدون من تطـور الاسود والاصفر على السواء . فمن اجراءات فردية او جزئية اتخذت في كاليفونيا وفي فكتوريا ، توصلوا الى سن تشريعات منهجية منها :قانون تحديد الهجرة ، في الولايات المتحدة وفي استرال آسيا تجاه الآسيويين والميلانزيين ؛ وقانون التربية الوطنية في مدينة الكاب وفي بريتوريا،هذا القانونالذي اخذ يحدد مناطق الزنوج الاصلية (فجعلها ١٢٪ فقط من مجموع هذه البلاد ، وهو قرار تتبناه المحكمة العليا في واشنطون وتطبقه على الزنوج في الاتحاد الاميركي الذي يتسلح بشرط الجد البعيد او الاروعة ويحتج بهذا الشرط ليحرم الزنوج من حقوق الانتخابات العامة ، مـع الاحتفاظ شكلا ، بخرافة « المنافع المتساوية » . يجري كل هذا بصرف النظر عـن ردود الفعل الجماعية البديهية او العنيفة ، والدوافع التي تملي على هذه الاشتراكية التي لا تنهض على اساس ، يقول بها الاستراليون، تنحصر في قانون جزيرة العمال الهادئة الذي صدر عام ١٩٠٤ ، وهو قانون نم عن عقلية صالحـة لظهور ما يعرف بالاشتراكية الوطنية .

وقد راحت المانيا تدعي ، من جهتها ، التفوق العنصري او العرقي ،واستشهدت في هـذا السبيل بأرمينيوس وشارلمان والامبراطورية المقدسة والقوة المستعادة الـتي يعمل تربتشكيه وسيبل على شرحها وتفسيرها بأسلوب مشوق . فهي تستشهد بغوبينو لاثبات نظريتها هـذه وتعمل على نشر مؤلفاته وآثاره المخطوطة . وفي هذا الوقت بالذات ، ينشر الكاتب الانكليزي هوستن ستيوارت تشمبرلن،عام ١٨٩٩«من جهة نظر الشعور الجرماني »كتابه الموسوم :« اسس القرن التاسع عشر» نحا فيه باللائمة على الدور الضار الذي قام به انسان البحر المتوسط كما يشجب التعاليم الدينية التي جاء بها ابن البابوية ، ويروح غليوم الثاني ينذر ، وهو يرأس مجمع ستيودس سان جان في مارينبورج : « بالانقضاض على «السرمات» تأديباً لهم على وقاحتهم بحيث يمحقهم

محقاً » . ويعلل نفسه باقناع انكلترا – رهبة او رغبة – باقتسام الرسالة التمدينية امام الخطر الاصفر والمنافسة الاميركية التي تزداد حدة وسورة .

ما هي الاسس التي ينهض عليها التفوق الانكلوساكسوني ؟ يتساءل ديولين ومهما يكن فهناك سبيل لنبذ الفكرة المغلوطة التي تقول بالمساواة بين الشعوب والتكافؤ فيما بينها، كما يصرح الدكتور غوستاف لوبون الذي يرى التصالب او التهجين يذهب بصفات الجنس المميزة . ويمتدح فاشيه دي لابونج فضائل « الانسان المستطيل الرأس، المعروف بحبه للسيطرة وبرغائبه الملحفة » ويحذر من البورجوازي « هذا الفطر الطفيلي السام الذي ينمو في ظل المقصلة ويرتوي من ولغ دماء النبلاء والكهنة » . والدعوة الى الغرائز الدفينة تجد صداها ، على الاجمال ، بين العاملين في الارض، وهي دعوة تتجلى عند بارس في قصته : « النشاط الوطني » . وعند بورجيه الذي يتبنى نظرية *Vereinigung* و *Gobineau* ويدعو الى بعث فضائل الاسرة ، وعند موراس الذي كان همه الاكبر الرجوع الى نظام ملكية لا مركزية نقابية ، وعند باسكولي واونامونو . « ليكن لدينا ، يقول بارس في كتابه : « الاكمة الملهمة » الشجاعة على استئناف السير على هذه الارض البدائية بجرأة وان نعنى، بالرغم من الظواهر الباردة بجراثة مملكة الحماس القائمة ». فالكل ومن بينهم بيغي يشد العرق بالارض التي تغذيه وتنميه وتعطيه اسباب البقاء والديمومة . فاذا ما احتج احدهم ، فعلى الفوضى الجشعة وعلى اشتراكية الصراع الطبقي . فالعنصرية تهيء السبيل امام ثأر اللاتينية الكاثوليكية التي ترى نفسها مع « البعث الاسباني » عام ١٨٩٨ ، وفرنسا المنتصبة ضد دريفوس ، معدة هي الاخرى لمهمة تمدينية جديدة سامية .

العرقية اللاسامية وظهور الصهيونية الدولية

قبل عام ١٨٤٨ قام المستشرق لاسن يضع الساميين تجاه الآريين. فغوبينو يرى من جهته ان « الآري المتحدر من صلب يافث يسمو ليس على اقوام السود والصفر فحسب ، بل ايضاً على ذرية سام . وقد زعم بعضهم ان اليهود، خلافاً للمتعارف المألوف بين الناس، يؤلفون، بين شعوب اوروبا لعدم تزاوجهم الا فيما بينهم، العرق الصافي الوحيد، وهو الذي يستطيع وحده بالتالي ان يسود ويحكم . وعبثاً راح رينان الذي لم يكن مع ذلك ، دوماً فوق العنعنات والاخذ بالوجوه، يهاجم هذا الرأي الذي انتشر وشاع بين الناس بفضل جهود بعض الدعاة أمثال ادوار دروموند .

والحال ، هنالك دعاوة مناهضة للسامية كانت غافية تحت الرماد تنتظر من يبعثها ويوقظها. فالى الوراء من الغرب الاوروبي ، حيث كان العنصر اليهودي يتغلغل ويرسخ بفضل الروح التحررية البورجوازية وعرف ان يحافظ الى الشرق من على القارة ما اتصف به من حيوية ، حيث شكلت المجتمعات اليهودية العديدة أقليات تمسكت بشدة بتقاليدها وعاداتها، بالرغم مما تعرضت له من الاضطهادات والتضييقات واسطورة الذبيحة البشرية التي دعموا ان الطقوس التلمودية

نصت عليها واوصت بها ، كانت لا تزال تلقى اذناً صاغية وألسنة تتناقلها بالرغم من تلاشي نفوذ التلمود بين اليهود ، في الاوساط اليهودية .

من الاسباب التي ادت الى اشتداد حركة مناهضة السامية في الامبراطورية الالمانية والامبراطورية الاوسترو ـ مجرية ، توافد اليهود اليهما من بولونيا واوكرانيا . فاذا ما رأى الكثيرون في السامي، على الاجمال، مرابياً جشعاً لا امل باصلاحه ، فقد تبين بعضهم فيه ثورياً يتكالب على تقويض القيم المرعية وخلخلتها طمعاً منه بالصيد في الماء العكر. وصورة جانوس المزدوجة الوجه تذكرنا ملامح احدهما بملامح روتشيلد كما ان ملامح الوجه الآخر تنم عن ملامح ماركس . ومن جهة اخرى ، فالحسد مفسدة ويفضي للأذى في هذه البلدان وهذه الاوساط حيث يلاقي النشاط اليهودي ، بفضل التساهل الديني الذي يسود هذه البلدان والاوساط ، التسهيلات اللازمة للنجاح . وهكذا أطلت حركة منافسة اليهودية واتخذت شكل مناهضة السامية والتصدي لها ، واتجهت ضد الاجيال المتحررة ، بحيث راح اشخاص امثال برينو — بارادول وارنست هافيه، يرحبان بظهورها ويجملانها من المنافع التي طلعت بها الحضارة. فكيف نفسر الغنى والثراء الذي يرفل فيها اليهود ؟ أليسوا لانهم تفننوا في اساليب السرقة والابتزاز ؟ وكيف نفسر نجاحهم في الوظائف العامة ؟ فهم يحتلون عن غير استحقاق ، الوظائف التي يمارسونها . اما كفاءتهم العلمية والادبية والفنية فكثيرون ينكرونها عليهم ويشكون بوجودها، من بينهم دورمون ، مثلا .

قد يصرح بيبل قائلا : « ان عداء السامية ليس سوى اشتراكية المعتوهين »، كما ان باستطاعة فورنييه ان يوضح قائلاً : « لنا إلهنا ماركس ولنا شيطاننا الرجيم رورتشيلد » . هنالك عدد من انصار فورنييه وبرودون وبلانكي ، ومن اعضاء حزب شعبيين الروس حتى وبين تلاميذ غسد يتهمون الرأسمالية ، اليهودية في صميمها ، بينما يرى ماركس ان عبادة المال تؤلف حائلا دون تحرير اليهود وتحرير جميع الناس ايضاً . « ليسقط روتشيلد ، ليسقط اليهود » ، كانت تهتف باريس ، عام ١٨٨٠ ، وهو الهتاف نفسه الذي يحرك دوماً شفاه الفقير المعدم ضد الغني الذي انتفخت صناديقه». وراح المستمسكون بالتقاليد يستغلون هذه الاحقاد ويحولونها ضد هذه الفئة المشبوهة التي تحوم حولها الشكوك والظنون ، ويثيرون غضب الجماهير واحقادها ، ويذكون في النفوس البغضاء ضد العنصر السامي المعروف بشعوبيته وبعدم انتمائه الى اي وطن ، فيؤلبون الناس احزابا وعصائب تطالب باتخاذ اجراءات جذرية لصيانة المجتمع ، وبالتمييز العنصري ، والطرد ، واحياناً بالمذابح (وهكذا أطل علينا ممثلاً بشخص موراس فلسفة وضعية مضادة لليهود) . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء المنبوذين كلهم اغنياء . فاسمع ما يقوله هنا الكاتب الكاثوليكي المتحرر ، اناتول لاروا — بوليو : « لا اعتقد قط انه يوجد على كرتنا الارضية عنصر ذهب فريسة الاملاق والفقر المدقع مثله » ، كما ان بيغي يصرح من جهته قائلا : عنصر فقراء بين اليهود ؟ عددهم كبير، هم من الكثرة بحيث يتعذر عدهم او احصاؤهم، أراهم في كل

مكان » . وهذه البروليتاريا تزرع الخوف في نفس الغني ، يهودياً كان ام غير يهودي ، ولأنه يهودي وهذا ذنبه الاكبر ، والبروليتاريون الآخرون لا يطيقون منافسته لهم . فاذا ما راح القس ستوكير يشكل في بروسيا اتحاد العمال الاشتراكيين المسيحيين الذي اخذ يطالب بالحد من توظيف اليهود في الخدمات العامة وفي دولاب الاعمال ، وهو برنامج تبناه بحذافيره الحزب الوطني الالماني الذي شكله شونرير والذي مكن لويجر من الفوز بعمدة فيينا ، عام ١٨٩٥ ، فقد سنت انكلترا ، عام ١٩٠٥ ، قانون هجرة للاجانب الذي اوصد ابوابها دون الشرقيين المعوزين ، كذلك فعلت اوستراليا .

ومع ان حركة مناهضة السامية اخذت تمتد وتتسع في كل من النمسا والمانيا ـ مع ان بسمارك وغليوم الثاني يستخدمون رجال الاعمال من اليهود ويرعيان جانبهم ، والزعيم الوطني ترتشكيه يكتب : « اليهود هم مصيبتنا الكبرى - فروسيا هي التي تعلنها عليهم حرباً عواناً تتصف بالعنف والشدة بينما يحتفظ لفرنسا الجمهورية بعمل مشهود . أهو تلاقي الحلفاء ؟ فقد قابل فظائع كيشينيف وبياليستوك هيجان العواطف التي اثارتها قضية درايفوس . وعلى كل فبين الحادث الفردي الذي أثارته قضية الضابط الفرنسي وبين المأساة المشتركة التي وقعت في الشرق ، مأساة اليهودي البائس ، ليس من سبب مشترك اقله في الظاهر . فالفضيحة الكبرى في نظر القرن التاسع عشر المتحرر هي : « القضية التي وضعت وجهاً لوجه النظام والحركة ، التقليد والعدالة . فالمباديء الكبرى ، مبادىء عام ١٧٨٩ ، تعود فتتغلب وتفوز بالطبع ، ولكن بعد ازمة حادة طويلة خلفت وراءها ذكريات مريرة « الثورة الدريفوسية » كما يسميها جورج سوريل باسلوب غامض .

ولم تلبث نتائج هذا الدفع العنصري او الطغيان العرقي ان ظهرت دون تأخر . فيطل علينا « اليهودي التائه » الذي يمضي في سيره المـوصول ، فنشهد هجرة من اقوى واشد الهجرات ينتقل معها اكثر من مليونين من يهود روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، حيث اثار قدوم هؤلاء البائسين ، في الرأي العام الاميركي ، ردات فعل ضد دخول عناصر غير مرغوب فيها ، البلاد الاميركية بحرية .

ولما كان في العالم شعب يهودي يتميز عن غيره من شعوب الارض ، فلتعد اليه ، على الاقل ، البلاد التي عاش فيها قديماً والتي ألف فيها وطناً قومياً له ! ومنذ عام ١٨٦٢ ، راح احد حاخامات مدينة ثورن يدعى كاليشر ، يطالب بانشاء وطن قومي يهودي . وفي سنة ١٨٧٠ ، اي في السنة ذاتها التي تأسس فيه الاليانس الاسرائيلي ، انشأت هذه المؤسسة التربوية ، في مدينة يافا ، مدرسة زراعية لتدريب طلائع المهاجرين اليهود الى فلسطين . واذ قام جريتز يضع كتابه الكبير : « تاريخ اليهود » ليعيد الى اذهان ابنا جلدته ، امجاد الشعب اليهودي وانجازاته عبر الاجيال . فاذا ما مكنت الهبات المالية التي قدمها ادمون دي روتشيلد الى « اصدقاء صهيون »

من تأسيس اولى المستعمرات الزراعية في الاراضي المقدسة، فقد وقع اكثرهم، وفقاً لرغبة البارون دي هيرش، تحت تأثير الدعوة بالذهاب الى العالم الجديد. وقد جاء الحكم على الضابط اليهودي دريفوس وانتخاب لويجر عمدة لمدينة فيينا حافزاً حاسماً في توطيد عزم الزعيم المجري ثيودور هرزل على نشر كتابه الموسوم: «الدولة اليهودية»، محاولا بذلك ايجاد حل نهائي للقضية اليهودية، وهو كتاب صدر عام ١٨٩٦. وبالرغم من مقاومة فريق كان يخشى من ان يتحول اليهود عن الرسالة التي عهد بها الى اسرائيل – هذا الشعب النبوي، على زعيم بيفيي، – كما يخشى من استغلال المناهضين للسامية، لهذا الشعور القومي، فقد اخذت الفكرة الصهيونية بالانتشار والسريان في العالم. وهرزل الذي كان رسول هذه القضية، والمجاهد الاكبر الذي نهض بها دونما ملل ولا سأم، عرف ان يضمن لقضيته انصاراً ومريدين متحمسين، من بينهم العالم الاجتماعي المشهور ماركس نوردو، والكاتب الاسرائيلي زنجويل. وعمل على عقد المؤتمرات، واكثر من اتصالاته برؤساء الدول ومراجعتهم، وحاول ان يكسب لدعوته هذه عطف البابا والسلطان العثماني والامبراطور غليوم الثاني والحكومة البريطانية. ولما كان محمولا في مسعاه بفكرة سياسية اكثر منها دينية فقد اضطر بعد ان ذاق مرارة الفشل واليأس، الى قبول عرض قدم اليه يقترح انشاء وطن لليهود في اوغندا. الا انه بعد عام ١٩٠٠، طلعت علينا الدعوة (*l'alyah* او العَودة) الى فلسطين وانشاء الصندوق الوطني اليهودي في سبيل شراء فلسطين وانشاء مؤسسة تل ابيب وبعث اللغة العبرية.

الهيجان القومي في اوروبا واهم مناطق الخطر

في كتابه: مذكرات اوروبي، يصف لنا ستيفان زويغ الضيق الذي اعتراه، عندما حضر بوصفه يهودياً نمساوياً، في ربيع عام ١٩١٤ في احدى دور السينما في مدينة تورس حيث ظهر على الشاشة صورة غليوم الثاني وفرنسوا جوزف، والهياج الذي اثارته هذه الصورة بين النظارة والمشاهدين، في تلك الصالة المظلمة علاها الصفير الداوي وارتفعت جلبة جهنمية وقرع الارض بالاقدام... والكل يصيح ويعوي من نساء ورجال، واولاد يشتمون ويلعنون كأنما لحقت بهم اهانة نكراء. فقد اعتراني الخوف وشعرت بالقلق في الصميم، بعد ان تبينت الى اي حد بلغ تسمم مشاعر الجماهير وهياجها من جراء دعاية مغرضة مهيجة، استمرت سنوات بكاملها».

وهوس الحرب الذي تملك النفوس من جراء الحرب الالمانية الفرنسية (١٨٨٠ – ١٨٧١)، وسباق التسلح، هذا السباق الذى عجل في اندلاعها من جديد، وهذه الاستنفارات المتتالية – هذا الهوس الذي لا معنى له بدون هذه الهيجانات الدورية – زاد احتدامه عن طريق وسائل الدعاية المعروفة، اذ ذاك، كالصحافة مثلا، بما فيها من الانباء المثيرة والمقال الاخباري المأجور والخدمة العسكرية والمدرسة وبرامج التعليم حيث لم تلبث دروس الجغرافية والتاريخ ان استحالت مظاهرات وطنية. وراحت منظمات ومؤسسات عديدة تأخذ على نفسها الاشادة بقوة الامة وتتغنى بأمجادها الوطنية. وبينها من له من النفوذ ومن بعد الشأن ما يؤثر على مقررات

الحكومات ومقرراتها الحاسمة ، اما عن طريق مناورات وأساليب خفية واما عن طريق التلويح بالمظاهرات الشعبية. فأحاديث الحرب والتبجحات الصارخة ، هي من بعض هذه العملات الدارجة . فها هو غليوم الثاني يكتب بمناسبة المؤتمر الاول للسلام المعقود عام ١٨٩٨ : « لا بأس عندي من الاشتراك بتمثيل مسرحية السلام ، الا انني احتفظ بخنجري الى جنبي لرقصة الفالس » ، كما راح يهتف وهو متجه نحو طنجه : « اليد على مقبض السيف والترس ممدود امامنا على الارض ، عسى ان نجيب *Tamen* او ليحدث ما يحدث ! » وها هو كليمنصو ، يصرح عام ١٩٠٨ : « انا مؤمن بالحرب وأومن ان ليس بالامكان تفاديها ... لن نأتي شيء يطلقها ، ويجب ان نمتنع عن الاتيان بأي شيء يفجرها . ولكن علينا أن نكون على اتم استعداد لها » . وبول كمبون يصرح في السنة التالية لاحد مراسليه قائلا : تمسكي بالسلام لا يقل بشيء عن تمسكك به ، ويقيني ان خير طريقة للمحافظة على السلام هو ان نكون اقوياء . كل بلد ثائر الاعصاب يذهب فريسة اول طارىء يدهمه ، اما اذا كان هذا البلد مدججاً بالسلاح ، وتنبض الروح العسكرية في عروق شعبه ويكون على استعداد لخوض المعركة ، فهو على يقين بفرض احترامه على الآخرين ، وبتجنب فظائع الحرب » . والمصير ذاته يتجلى لثيودور روزفلت : « الحرب وحدها تتيح لنا ان نتحلى بصفات الرجولة التي لا بد منها للانتصار في حرب لا هوادة فيها ولا رحمة » . فخصوم دريفوس وقفوا منه هذه الموقف العسير ، دفاعاً عن شرف الجيش ، وذلك عندما راحوا يعارضون اعادة النظر في قضيته .

والرومنطيقية الحديثة نفسها التي تشيد بفضائل العرق والتي كثيرا ما تفننت بموضوعات هي موضوع احترام الجميع وتقديسهم ، مثل : ارض الوطن ، الجدود ، العَلَم ، لا تتحمل هنا اي شك ولا ترضى بأية مداعبة او مزاح في هذا الموضوع . « فالارستوقراطية الفكرية » التي يكشف برونتيير عن امرها ، و« التعقلية » او التعبد للعقل الذي يبدو للأب ديدون « العدو الذي ديدنه الوحيد الازدراء بالقوة والاستهانة بها » هما عرضة لهجوم عنيف. هل الامر مرتبط بروح نقدية او برأي مستقل ؟ ولذا رضخ الكثيرون ولم يجدوا جوابا والتزموا الصمت . هنالك بالطبع مسيحيون مخلصون يشجبون الحرب . فقد نشأت جمعية مسيحية هي جمعية *Gratry* للدفاع عن السلام والمحافظة عليه بين الدول لم تلبث ان استحالت عصبة دولية سلمية كاثوليكية ، تولى رئاستها البلجيكي اوغست برنائرت . الا ان « يقظة البطولة » التي يشيد بها رجل من عيار مارك سانييه ، لا يتحرج من قضية الضمير الا عملا بما هو عليه من قناعة مخلصة ؛ والعصبة المسيحية الديموقراطية الايطالية التي لم يلبث البابا بيوس العاشر ان شجبها ، تمنت من الصميم استئناف الجهاد ضد النمسا ، في سبيل تحرير تريستا وترانت . والاشتراكية التي رأت موجباً لتزكي نفسها بالقول : « ان العمال لا وطن لهم » ، وهو قول ينم عن مزاج عاطفي ويؤلف رداً منافيا للواقع ، يؤدي جداً الجدل الناشب بين البورجوازيين الوطنيين الذين رأوا في الشيوعية عنصراً هداماً للوطن » ، كما اعتقد جوريلس نفسه . وهكذا أعدت المأساة الدولية التي وقعت

عام ١٩١٤ .

« فباستثناء فرنسا ، لا يوجد في اوروبا دولة واحدة سلطتها وسيادتها هما صدى صادق لاماني كل الولايات وتعبير عفوي عنها » . هذا ما نقرأه في مفكرة جورج لويس سفير فرنسا لدى برلين ، وهذا ما يعترف به ياغوف وزير الخارجية الالماني ، عام ١٩١٣ . هنالك اقليات وطنية وفئات غريبة تنتفض وتتحرك في كل ناحية ومكان في اوروبا . صحيح ان مطالب كتالونيا لا يكمن فيها اي خطر على وحدة اسبانيا ، كما ان مطالب الفلاندر لا تؤلف اي تهديد لسلامة بلجيكا . الا ان موقف برشلونا يهيج اعصاب مدريد كما ان موقف مدينة غنت يزعج بروكسل . وعبثاً يسعى البريطانيون للوصول الى اتفاق حبي مع ارلندا يؤمن لها مصالحها وسلامتها ، يحوز على رضى طلاب الاستقلال في دبلين وطلاب الانفصال في مقاطعة الاولستر . فقد عجزوا عن اجتذاب بلفاست كما عجزوا عن ايقاف الحركة الاستقلالية او الحد من المطالبين بوطن قومي لهم المعروفين باسم *Sinnfein* بحيث ان الحرب الاهلية كانت على وشك الانفجار في الجزيرة عام ١٩١٤ .

وبقيت الالزاس واللورين مثاراً للقلق بين فرنسا والمانيا . فاذا لم تفكر الاولى بالركون الى الحرب لاسترجاع ولاياتها السليب ، فقد برهنت الثانية عن نزق شديد لعجزها عن امتصاص السكان وتمثيلهم في هاتين المقاطعتين ، الذين لم يرضوا قط بالتنازلات الواسعة التي قدمتها لهم الحكومة الالمانية ، في الوقت الذي خضعوا فيه لسلطة برلين وادارتها . . . ودون ان نذهب بعيداً في شرقي المانيا ، فالحركة البولونية التي عرفت ان تصمد في وجه سياسة جرمنة البلاد كانت مثاراً لازعاج اولي الامر في برلين وبعث القلق في نفوسهم . . . والاقلية الدنماركية في مقاطعة شلسويغ فشلت مساعيها للتحرر من السيطرة الالمانية كما ان النرويج تمكنت من زحزحة نير السويد عن رقبتها . ومهما بلغ من بطش وقوة الدولة التي كونها بسمارك ، فهي تخشى كثيراً الابتكارات الجغرافية التي ستتجاوب في اراضيها من جراء اي وهن او اي ضعف يبدو عليها .

وعلى كل ، فالامبراطوريات الثلاث : الالمانية والروسية والاوسترو هنغارية تتحسس الخطر الذي يتهددها من جراء الحركات والهزات التي تقوم بها هذه القوميات الواقعة بين البحر البلطيقي والبحر الابيض المتوسط . ان تحرر الفنلندي والبلط والبولونيين والرومانيين من سكان بسارابيا انما يعني عند روسيا ، فقدانها اسواقها الغربية التي امنت التصرف بها على هواها في هذه البلاد من عهد بطرس الاكبر والروجوع بروسيا الى طابع آسيوي اكثر منه اوروبي . ثم ان بروز حركة سلافية دانوبية قوية لا تُدفع كان من شأنه ان يؤلف خطراً يهدد جدياً وجود الملكية الثنائية ، قبل ان يتحقق حلم « ليست » بقيام اوروباوسطى تمتد من بحر الشمال الى البحر الاسود . وهكذا قضت الضرورة ، يوماً بعد يوم ، بايجاد صيغة جديدة تكون فدرالية الطابع او ثلاثية الاقنوم . والحال ان ادخال شريك جديد ، صربي — كرواتي على هذه الامبراطورية الثنائية ، سياسة

قوبلت بالعداء والتنكر من قبل المنتفاريين واليوغوسلافيين الذين يعملون لاستقلالهم الناجز . اما ضم البوسنه والهرسك فعمليـــة زرعت الشك في قلب بودابست ، كما اثارت بلغراد وقضت مضاجعها . ففي انصراف آل هبسبورج لكبح جماح الجامعة الصربية ، خطر يتهدد مصيرهم، كما انه يجر المانيا الى المجازفة بحرب عالميه كبيرة .

من سخرية القدر الغاشم ان يرتبط مصير المدنية الاوروبية بهذه الاقطار البلقانية التي قـــال عنها بسمارك انها لاتسوى عظام جندي بوميراني واحـــد . فالاوفق من جميع الوجوه الابقاء على التركي في مكانه بدلا من انتزاع التنازلات الاقتصادية منه شيئاً فشيئاً . ومـــع ذلك فشبه الجزيرة « يتبلقن » ، وهذه الاختلافات والمشاجرات التي تنشب بين الشعوب المحيطة بمقدونية ، واطماعها في البحر الادرياتيكي وبحر ايجيه تولد حرائق من الصعب احيانا حصرها والحد منها.

القوة الالمانية وسباق التسلح

كلف السلام اوروبا كثيراً منذ عام ١٨٧١ ، فقد تمتعت اوروبا بامتياز قد تكون الوحيدة فيه باستثناء اليابان التي زاحمتها وحدها فيه وهي ان ارض دولها كانت تفترشها الثكنات العسكرية ودور الصناعات الحربية والاستحكامات، كما كانت دولها تكاثر من حشد ادوات التقتيل واعتدة التهديم ، وتاخذ بنظام الخدمة العسكرية بحيث يستعد للحرب ويتدرب على فنونها ، الملايين من الشبان .

وليس من شك قط ان توحيد المانيا تم بسرعة وبشكل عنيد ، فظ. فقد وصفها كاير بأنها عملية بناء ضخم استخدم فيها السيمنت بخشونة وسرعة ، وبأنها كانت سبب هـــذه المنافسة العسكرية الموصولة ، وهي منافسة قامت بين شعبين جاشت احشاؤهما بالعداء ، اثارها خوف الالمان من عملية ثأر على نطاق واسع يقوم بها الفرنسيون ، والخوف لدى الفرنسين من غزوة المانية جديدة على فرنسا .

وهكذا استمر الصراع الفرنسي الالماني خلال فترة السلام، فسمم الاجواء وشحنها بالمخاوف والاراجيف. وعرفت الامبراطورية البسماركية ان تؤلب حولها روسيا والنمسا والمجر وايطاليا. وبذلك جعلت فرنسا في عزلة تامة . وهذا الحلف المقدس الجديد لم يتوقف عـن التسلح وانتهى امره الى القطيعة والتفرقه فالانحلال . والحال ، فقد جاشت المانيا بين ١٨٨٥ — ١٨٩٠ التي كان ازدهارها الاقتصادي مثار الاعجاب والدهشة، بروح استعمارية وشرهت نفسها الى بناء امبراطورية استعمارية لها . فمع غليوم الثاني طلع علينا جيل من الالمان قدر عالياً الانجازات التي قام بها الرواد وتطلع الى القيام بانجازات اكبر واروع . كان لا بد للشعب الالماني الآخذ بالنمو والازدياد وان يشتري وبالتالي كان عليه ان ينتج وان يبيع اكثر فاكثر كل يوم . ولما كان فخورا بآتيه وبما تم له من عدة وعتاد ، وبالسبق الذي حققه في مجـــال الصناعات الحديدية والكيميائية ، وبالمدن الجبارة التي قامت على ارضه ودياره ، وبثقافته النفسيـة والعلمية ، فقد راح ينظر شزراً الى الثروة الضخمة التي تمت لفرنسا ، والى عظمة الامبراطورية البريطانية ، وقد تشبع بفكرة حقه السراح

بتوزيع اعدل واقرب للمنطق ، للخامات والمواد الأولية في العالم ، وهو حق عرف ان يناله بعد فترة طويلة من القصور والعجز المشين، وبعد ان حقق مثل هذه النهضة العظيمة التي تمت له ، قام هنا في اوروبا الوسطى «شعب وقع تحت النير فطأطأ رأسه واقتصر وضعه على انضباط سلبي » كما يقول فيه بيغي ، ومجتمع جذل لخضوعه لدولة هي ظل العناية الربانية على الارض، ولهيئة من الموظفين المدنيين والعسكريين، وقدر عالياً قيمة النظام والبزة الرسمية وقد ثمل مما تم له من قوة العدد والتنظيم والقدرة على تأليف الشركات . وهذا المجتمع عرف جميل هؤلاء الاشتراكيين الذين ابطلوا فعالية الدولية كما قدّر عالياً هؤلاء الذين دافعوا عن العرقية او العنصرية فصقلوا لهذه الامة مرآة، ابرزت عند النظر اليها قسمات العنصر الالماني وسماته المميزة. فقد قرض واغنر على الاجنبي ذوقاً موسيقياً انبثق من المانيا ، وقد ارسل هذا الشعب هؤلاء التجار المتجولين الى جميع اقاصي الارض يرغّبون الناس ويدعونهم لشراء المصنوعات التي خرجت من يد النبوغ الالماني الخلاق ، ويحث بحارته في ان ينشروا العلم الالماني خفاقاً فوق جميع البحار كما دعا جيشه للاحتفاظ ببارود جافاً وان يتكلم قيصره عالياً . « فالدوران اعترى دماغه ، كما يقول رومان رولان ، عام ١٨٩٩ . فعند نيتشه وشتراوس والامبراطور غليوم شيء من النيرونية التي يعبق بها الجو » .

وبخلاف الاميركيين الذين يهدرون مواردهم هدراً ، يتفنن الالمان من جانبهم ، بالافادة مما تم لهم من هذه الموارد ، ومع ذلك فاقتصادهم يبقى ضعيفاً ، وهناً . وعندما يعجز الالمان عن تأمين التوازن في حساباتهم عن طريق الاستثمارات الناجحة في الخارج ، يضطرون للمضي في التوسع بعد ان يخفضوا اسعار الكلفة الى الحد الادنى . ولذا عاشت البلاد دوما تحت كابوس تضييق اسواقها التجارية. وبما ان موقفهم السياسي *Weltpolitik* يضطر بريطانيا العظمى للوقوف الى جانب فرنسا وروسيا ، فالسباق على التسلح البري تضاعف بسباق بحري لم يقل احتداما وخطراً وكلفة عن الاول . فبينما تعمد الدبلوماسية الالمانية الى الشانتاج احيانا والدعوة المكشوفة الى الحرب وهي طريقة لم تنفع في توسيع مدى المستعمرات الالمانية في الخارج ، وازداد الرايخ نرفزة بعد ان رأى نفسه محاطا من كل جانب. ان موقف المانيا الممتاز في قلب اوروبا جعلها في وضع ممتاز كذلك لبسط سيطرتها على هذا الجزء من القارة الاوروبية ، فهي تشعر بأن هنالك ما يحد من طاقتها من كلا الشرق والغرب على السواء ، مما يجعلها عرضة لفقدان حليفها الوحيد في الجنوب هو الامبراطورية الاوسترو – هنغارية ، اذ دهاها ما سبب انهيارها ، او اذا ما جرت الى مغامرة كبرى وقف هذا الحليف الى جانبها حتى النهاية .

وهكذا رزحت اوروبا تحت وطأة التسلح ، وهي وطأة شديدة شعرت بثقلها ليس الدول التي ارتبطت بعضها ببعض بمواثيق دبلوماسية او عهود عسكرية فحسب ، بل ايضا دول اخرى مثل بلجكا والسويد اللتان جزعتا جدا على استقلالهما وسلامتهما. فالاستعداد للحرب زادت نفقاته ثلاثة اضعاف بين ١٨٧٥ – ١٩١٤ ، في كل من المانيا وبريطانيا العظمى ، كما ازدادت ضعفين في فرنسا ، ومثلت ثلث الميزانية العامة في روسيا . اما ايطاليا فقد كادت تنفلق لفداحة هذه

التكاليف عندها . فبينما ترصد الموازنة العامة في فرنسا ملياراً ونصف المليار للجيش وللاسطول الحربي ، فالبرلمان الفرنسي يرصد ٣٠٠ مليون فرنك للتربية والتعليم ، و١٠٦ ملايين للاشغال العامة في البلاد وللاسعاف العام ، قبل عام ١٩١٤ . ان بناء طراد واحد كان يكلف الدولة بين ٣٠ – ٤٥ مليون فرنك ، اذ ان الطلق الواحد يكلف ٤٠٠٠ فرنك (اي ما يوازي المرتب السنوي لموظف متوسط) .

فالمبدأ القائل : اذا اردت السلم فاستعد للحرب ، فرض نفسه كمبدأ ساحر وبدا ان لا مناص منه ولا حيدة عنه لاوروبا هذه الطاعنة في السن . نحن امام انقسام تاريخي ولاشك . ولكن هل كان من المقدور ان يحول تنوع الطاقات الوطنية بين دول القارة في نهاية الامر هذا التنوع الذي كان وراء عظمة الحضارة الاوروبية دون تحقيق وحدتها السياسية التي وحدها تستطيع ان تحول دون الانقسامات الجغرافية الاخيرة المنذرة بانهيار محتوم ؟ فالمانيا التي رشحت نفسها لرئاسة وقيادة تجمع اوروبي ، حلت نوعا ما ، بعد فارق ٧٥ سنة، محل فرنسا التي حاولت هي الاخرى تحقيق مثل هذا التجمع، وهي محاولة ستبوء بالفشل امام الصخرة البريطانية، فمعاصرو غليوم الثاني والاميرال تربتز يستطيعون اكثر مما تم لمعاصري نابوليون، ان يضطلعوا بمهمات على مستوى عالمي . وانصار سياسة الـ *Weltpolitik* لن يعدموا وسيلة للنهوض بهذه السياسة ، ملوحين بالخطر الاصفر حينا ، وبالمنافسة الاميركية احيانا ، كما يحتجون ، من جهة ثانية ، بالعجز الذي نزل بالشعوب الاستعمارية القديمة والقصور الذي اصيبت به . ومع حرصهم على صيانة مصالحهم الاساسية والدفاع عنها ، فقد وقفوا الى جانب روسيا ، عام ١٨٩٥ ، لارغام اليابان ، على التخلي عن منشوريا والانسحاب منها وعملوا على تعيين قائد عام الماني لقيادة الجيش الدولي الذي عهد اليه اعادة نفوذ البيض الى العاصمة بكين. الا انهم نظروا الى الحلف المعقود بين انكلترا واليابان نظرهم الى خيانة مصالح اوروبا . وقد تجلت اطماعهم وبرزت بصورة اجلى واوضح في الوقت الذي اخذ فيه الاستعمار الاوروبي يصادف صعوبات جديدة .

ثلاث حوادث فشل تصاب بها اوروبا : الحبشة ، كوبا ، منشوريا

تمثل الحقبة ١٨٩٤ – ١٩٠٤ اكثر واوفر حقب هذا العصر حروباً بعد الحروب والفتن الدامية التي وقعت في منتصفه ، اذ وقعت خلال هذه السنوات العشر معظم الحروب الاستعمارية . يجب ان نضع جانبا قضية كوريا التي انتهت بتقهقر اليابان امام تدخل المانيا وفرنسا وروسيا . صحيح ان بريطانيا العظمى انتصرت على الترانسفال بعد تضحيات كبيرة ، في الوقت الذي تابعت فيه فرنسا تغلغلها في افريقيا السوداء باحتلالها جزيرة مدغشقر الكبيرة . الا ان الدول الاوربية خسرت ثلاث حروب خاضتها خلال هذه الحقبة ، فعجزت ايطاليا عن التغلب على الحبشة ، كما ان اسبانيا انهزمت في كوبا والفيليبين، وروسيا غلبت على امرها وانهزمت انهزاماً منكراً امام اليابان في منشوريا .

فانكسار ايطاليا في عدوة امام الاحباش يجب رده اصلا الى عدم تقدير الامور قدرها اللازم والى نقص جذري في الاستعددات الضرورية . ومع ان هذا النصر تحققه الحبشة امّن لها فترة من الهدوء والسلام ، فلم يستطع ان يوقف الحركة الاستعمارية في افريقيا . وقد اصيب المراقبون في اوروبا بدهشة كبرى لدى انكسار الاسبان امام الاميركيين . وقد رد اناتول فرانس صدى تكهنات هؤلاء المراقبين ، في كتابه « التاريخ المعاصر » . اما هزيمة الروس فقد كان لها وقع دونه وقع الصاعقة ليس في الاوساط العالمية فحسب ، بل ايضاً سبب ثورة ضد نظام الحكم العنصري هزته هزاً عنيفاً دون ان تسقطه ، كما سببت منافسة حادة بين فرنسا والمانيا نشبت حول قطر لا يزال حراً في افريقيا ، هو المغرب ، واخيراً ضد الرايخ الوليمي ، وتجمعاً انكليزياً فرنسياً روسياً ، جاءت اليابان تدعمه في آسيا .

هنا تكمن الاسباب الاصيلة لحادثين من اضخم الحوادث التي استهلت التاريخ المعاصر : الحرب العالمية الاولى ، ١٩١٤ والثورة البلشفية ، عام ١٩١٧

الدول الاستعمارية خارج اوروبا بروز الولايات المتحدة الاميركية واليابان

حوادث الخيبة والفشل التي لحقت باوروبا في المجال الاستعماري ، اصابتها في هذه الاقطار والاصقاع التي اصطدمت فيها بهذه الدول الاستعمارية الفتية المنافسة لها . وهذا الفشل يتفق وقوعه مع ظهور الولايات المتحدة الاميركية واليابان المتزامن ، بوصفها دولتين من الدول الكبرى الفازية .

فبالرغم من الفوارق التي تباعد بين مجتمعها ، والمفارقات التي تميز حضارة كل منهما ، فهنالك مع ذلك ، نظائر مشتركة بينهما اذا ما نظرنا الى سياستها العالمية .

فالولايات المتحدة بلاد العجائب والغرائب المدهشة تؤلف بيئة حليمة مسعفة الى اكبر حد للنجاحات الفردية كما تكون ملاذاً يكن اليه كل من تعذر عليه العيش او اصيب بالضيم والحيف في العالم القديم . كل شيء فيها تم على عجل وبدا ضخماً جباراً وكل شيء فيها يدل على ان حضارتها امتداد لحضارة اوروبا الشيخة ، في الوقت الذي راحت فيه الاذواق والنماذج الاميركية تتحرر وتتسع وتتنوع .

واليابان القديمة ، بما لها من طابع غريب محبب عرفت ان تسحر الشعراء والفنانين والهواة ، وبالرغم من هذا التحول الصاعق الذي حققته حضارتها الصناعية فقسماتها المميزة لم تتغير ولم تتبدل وما زالت تفتن بسحرها الاخاذ واحداً مثل انكاديو هيرن ، والذي عُرف عنها وذاع خبره بين الناس شرقاً وغرباً هو رخص البضاعة اليابانية التي اخذت تنافس الى حد بعيد مصنوعات اوروبا واميركا في الاسواق الآسيوية ، والاستوائية .

ويشيد جوريس « بهذا القطب الرأسمالي المتألق » ملمحاً بذلك الى جمهورية آل كارنجي وآل فندربلت وبيار بونت مورغان وروكفلر . فالفردية الليبرالية مهدت السبيل لطلوع طبقة

متنفذة من كبار رجال الثروات الطائلة لم تعد تحسب حساباً للحاكم والنقابة والنظريات الثورية فتحت لها في الداخل اسواق تبز اوروبا باتساعها . وقد اطل علينا عهد من الامتداد والضخامة بحيث ان حركة التجارة الخارجية تضاعف حجمها بين ١٩٠٠ - ١٩١٤ ، وزادت ثلاثة اضعاف باتجاه آسيا . واستثمرت اكثر من ستة مليارات من الدولارات في الخارج وانشأت لها بالفعل امبراطورية في اميركا الوسطى والمحيط الهادي كما ان اميركا اللاتينية هي على وشك ان تصبح منطقة نفوذ لها وحدها بفضل سياسة الرابطة الاميركية . فمداخلاتها كتحكم لحل قضية منشوريا والمغرب تشير بالفعل الى ما بلغته من اشعاع عالمي ، كما ان سياسة « الباب المفتوح » التي اتبعتها في الصين وفي افريقيا الوسطى جاءت تناهض سياسة مناطق النفوذ التي سارت عليها الدول الاستعمارية الاوروبية واليابان . وهذه الرأسمالية المركزة تلعب دوراً بارزاً في طوكيو ايضا ، يشد من ازرها عدد من السكان يشكو الفقر ابداً في نماء وازدياد ، تشحذ الحاجة فيهم الاطماع . ولما كانت اليابان بأشد الحاجة للتصدير بأي ثمن لتأمين اسباب العيش للاهلين ، فقد دخلت باندفاع وقوة لا تدفع عصر الاستعمار . فتحت ستار الدستور ، لا تزال احزاب الـ *Genré* تحكم البلاد باسم الميكادو وباسم النظام الاوتوقراطي المستبد الذي تسير عليه معتمدة فيه على الجيش والاسطول والبيروقراطية مبقية تحت قبضتها الجماهير العمالية . فبعد ان انتصرت على الصين وفازت بروسيا واصبحت حليفة لانكلترا وشريكة الإئتلاف الثلاثي في اوروبا ، احتلت نيبون (اليابان) فورموزا كما احتلت كوريا والقسم الجنوبي من منشوريا ، وأقامت لها علاقات تجارية وطيدة مع الهند والصين والهند الصينية واصبحت في آن واحد زبوناً للولايات المتحدة الاميركية تستورد منها وتصدر اليها ، زبونا من الدرجة الاولى ، وحاولت ان تكسب تجاريا على حساب اميركا ـ كل منطقة المحيط الهادي . فهذه الصين التي راحت فريسة الفوضى تسحرها بمالها من موارد وخامات ضخمة . فهي ان عملت على إيقاظ آسيا ، ففي سبيل طرد « البرابرة » البيض واخراجهم منها ، شريطة ان تعمل هي على استثمارها لوحدها .

طلائع الثورة الصينية

يؤلف انهيار الامبراطورية الصينية القديمة حادثا تاريخيا ضخما تتعدى نتائجه كل حساب . فمنذ الثورة التي قام بها اتباع الطائفة الدينية *taipings* ، عام ١٨٥٠ ، والصين تحاول البروز بصورة متجددة دون ان تحسن تحديد تقاطيع وجهها . هنالك قوى هادرة تعتمل في هذا الهيكل الصيني العتيق الضخم ، المتمسك بالتقاليد المستحكمة . فالرأسمالية حققت من جهتها نجاحات باهرة سريعة . فمنذ حادث البوكسر (الملاكمين) اخذت الصين تكثر من انشاء المصانع والشركات التجارية كما انشأت لها شبكة من الخطوط الحديدية ، ووثقت من الروابط التي شدت بين الطبقة البورجوازية التي اخذت تتكون وتقوى وبين الاجانب الذين ضاعفوا من استثماراتهم في البلاد خلال عشر سنوات . ثم ان وجود « البرابرة البيض » ، من جهة ثانية كان بمثابة جرح بليغ يجرح من كبريائها . فقد

اخذت المتضادات والمفارقات تبرز اكثر فأكثر . هنالك صين قروية ، ريفية زراعية يجري اعتصارها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . ولما كان الميزان التجاري يتسع يوما بعد يوم ، والوحدة النقدية الـ *Tael* تفقد من قيمتها الاسمية ، كانت تكاليف الحياة دوما في ارتفاع . ومن جهة اخرى ، فأزمة الشاي الناجمة عن انخفاض التصدير حملت الدمار والخراب الى الولايات الجنوبية بكاملها حيث كانوا يتخلصون بسهولة من المواليد الاناث . الا ان صين الاستثمارات وصين التجارة والاعمال الكبرى رفعت عالياً واجهتها البذخية ، فبدت مزيجاً غريباً من الروح الآسيوية ومن الروح الاوروبية ، كما بدت لنا في صورتها المثلى ، في مدينة شنغاي ، مثلا ، كما رآها جان رود ، عام ١٩١٠ الذي يقارن بين هونغ كنغ ، مثال النجاح البريطاني في هذه الناحية من العالم ، وبين كنتون « المربعة » بقناتها القذرة التي تغص بما يطرح فيها من النفايات والاوساخ فتزيد من سواد مياهها النتنة ... ومنازلها المتهدمة التي تغشاها طبقة لزجة من الاوساخ ، وهذه الارتال من المستعطين تتقزز النفس لرؤيتهم ، يقابل في الطرف الآخر منظر أخاذ من السحر والتصنع .

وبعد ان احبطت حكومة الصين محاولة اصلاح استمرت مائة يوم عولت الادارة الامبراطورية على المباشرة باصلاح من طراز اسكندر الثاني : يتناول الوظائف العامة والامتحانات والمحاكم والجيش . ومنعت منعاً باتاً محششات الافيون ، ووعدت بمد البلاد بدستور جديد . الا ان عجزها الواضح غل في يدها وعجزت عن تحقيق شيء من هذا . فهي لاتستطيع الاعتماد على الاجنبي ، كما انها تعجز عن محاربته وايقافه عند حده . فقد آلت حركتها هذه في نظر طلاب الاصلاح الى الانتقاص من كرامة البلاط والحط من هيبتها ، دون ان تتوصل الى اصلاح شيء .

قام بين المفكرين والتجار العاملين خارج الصين حركة ثورية رمت الى التخلص من الاسرة المنشوكية المالكة سعيداً ، ومن الـ *Meiji* . فالانتصارات التي حققتها اليابان ، والثورة الروسية التي وقعت عام ١٩٠٥ ، بعثت فيها النشاط وحركت فيها الرغبة بعمل شيء ما للخروج من الوضع الزري الذي انحدرت اليه الادارة والبلاد ، ووضعت لهذه الحركة منهجاً استمدت خطوطه الكبرى من المثل الانكلوسكسونية ، واضعة نصب اعينها : الحرية والديموقراطية واحلال نظام الاقتصاد الرأسمالي محل الوسائل البالية المتبعة في الانتاج . والدكتور سن – يات – سن الذي تلقى دروسه تباعاً في الكلية الاميركية ، في هونولولو ، ثم في كلية الملكة في هونغ كنغ ، ثم انتقل الى كنتون قبل ان يقوم برحلة طويلة الى اميركا واوروبا طاف خلالها على الجاليات الصينية الكبرى الموافقة حول الامبراطورية السماوية ، دخل عضواً في عدد من الجمعيات السرية ثم انشأ ، هو نفسه ، جمعية يقظة الصين » ، ودخل في عضويتها كثيرون من الصينيين ومن رجال الفكر ورجال المال والاعمال العاملين في مناطق الامتيازات الاجنبية او في اليابان وفي غير ذلك من المناطق والاقطار الآسيوية ، وراحت تنادي بسيادة الشعب وبتوزيع الاراضي

الامبرية على المزارعين . وحاولت هذه الجمعية ان تجر وراءها الطبقات المتململة ، المتذمرة وان تقيم لها علائق مع الجماعات الوطنية في التونكين التي تقوم بأعمال المشاغبة ، ولم تكن بغريبة قط عن محاولة انقلاب في كوريا ضد الاحتلال الياباني الجائر . وساعدت سلسلة من ازمات المجاعة وقحط المواسم المتعاقبة وبوارها على حمل جميع من يتأففون او يتذمرون لامر او لآخر على الوقوف موقفاً معادياً لبكين . وثار العمال العاملون على الخطوط الحديدية او العاملون في ترسانة هان – كيو ، كما تمرد قائد الجيش يوان – شي – كاي ، واعلن العصيان على الامبراطور . وهكذا وقعت ثورة عام ١٩١١ .

وعبثاً راح سن يؤسس حزب الشعب باسم كومين-تانغ الذي رمى الى المناداة بنظام جمهوري ديموقراطي ، فلم يستطع ان يعتمد على الجماهير الامية البائسة . ولما كان صينيا من الجنوب فلم يستطع ان يكون اكثر من رئيس لجمهورية الصين الجنوبية ، ولم يلبث ان انسحب من الحياة العامة . فعادت السلطة الى يوان الذي ما كان يتخلص من الاسرة الحاكمة حتى راح يفرض نفسه على البلاد بأجمعها ، وبعد ان امّن لنفسه ولاء بكين والجيش في الشمال اعاد تكوين وحدة البلاد لمصلحته الخاصة . وعرف ان يؤلب حوله كبار الموظفين وحكام الولايات وارباب التجارة واصحاب الثروات والقوى الاخرى التي اشد ما كان يقلقها رؤية الفوضى في البلاد . وهكذا تمكن هذا الجندي الذي جاشت نفسه بالاطماع ان يجمع بين يديه وان يحتكر لنفسه السلطة في هذه الجمهورية الناشئة . وهكذا فمصير هذه الصين الشاسعة الاطراف الغريبة الاطوار بقي لغزاً يحتار له العالم قبيل الحرب العالمية الاولى.

الحركات القومية خارج اوروبا بوادر ردة مضادة للاستعمار

فاذا ما «تحركت الصين وتمطت» فلم يكن ذلك للمرة الاولى. ولم ينتظر فكتور بيرار نهاية الحرب الروسية اليابانية ، ليضع كتابه الموسوم : «ثورة آسيا» . وعلى الاثر توالى على الظهور فيض من المطبوعات والمؤلفات التي تعالج القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى والستراتيجية التي اثارتها انتصارات جيوش الميكادو والصدى الداوي الذي احدثته والاثر البعيد الذي اطلقته في البلدان والاقطار المتصلة بالمحيط الهندي والمحيط الهادي ، حتى في تركيا. فالمعلقون السياسيون ورجال السياسة من اليابانيين انفسهم لم يكتموا قط الآمال العراض التي جاشت بها نفوسهم . فالمؤلفات التي وضعها المؤلف الياباني اوكاكورا بعنوان : «مُثل الشرق» و «يقظة اليابان» تؤكد بوضوح وحدة الآمال التي تجيش بها قلوب الآسيويين . صحيح ان المؤسسات الاوروبية والاميركية لم يبد عليها ما ينم عن خوف او ما يشعر بقلقها ، الا ان حوادث الاضطرابات الفردية التي يكاد لا يشعر بها احد هنا او تتخذ لها هنالك طابعا مزعجا ، اخذ يتكاثر وقوعها ، شيئا فشيئاً . فقد قامت حركات وطنية مناهضة للاستعمار . فالفتح الياباني اقلق خواطر كثيرة في بلدان كثيرة وراح سكان هذه الاقطار يقومون بحركات رجعية

بدافع مما ينبض فيهم من بغض شديد لما هو اجنبي ، لم يكن مع ذلك ليتنافى بالضرورة مع الرغبة باعداد محاولات اصلاح سياسية واجتماعية ، (وضع الصين خير شاهد على ذلك) ، كثيراً ما ارتدت شكل رفض لانماط الحياة الجديدة .

فحزب الاستقلال الذي غلب على امره في الفيلبين، عام ١٩٠٢ ، لم يستطع النهوض وراحت الولايات المتحدة تشدد من قبضتها على الارخبيل المذكور وتعمل بسرعة على مده بالاجهزة والاعتدة التي لا بد منها .

وفي الحين الذي اشتدت فيه مقاومة الكوريين لسيطرة اليابان ، وهي مقاومة لم يتمكن اليابانيون من كبحها وكمها الا بعد عام ١٩١٠ ، اخذت بنكوك تعمل عكس ذلك تماماً ، وتسعى الى توسيع حرياتها بالاعتماد على طوكيو . فالسلام هيمن على شبه الجزيرة الهند الصينية . فلم يقم في وجه الحاكم الفرنسي العام دومر اي حركة مقاومة يحسب لها حساب ، بعد ان امعن في إذلال الامراء وحكام الولايات قبل ان يبدأ بتطبيق برنامج واسع من الاشغال العامة . وقد راح خليفته بول بو يحاول تحسين العلاقات بين المثقفين وبين الفرنسيين مع قيامه ببعض الاصلاحات الانسانية . والخطر الذي ذر قرنه بين التونكين عام ١٩٠٨ حيث قامت حركة تمرد لم تلبث ان قمعت بسرعة ، بقي يراود ذكره الاذهان ، لا سيما في هذه السنوات التي تلت رأساً ، المساعدة التي يمكن ان يلاقيها خصوم فرنسا، في كل من الصين واليابان . وقد استؤنف العمل الاستعماري بين شعوب هذه الاقطار دون ان يتنكر احد منها للفوائد الناجمة عن هذا العمل .

اما في الهند ، فاليقظة القومية أخذت تنشط وتحتدم بسرعة . فعلى اللورد كورزن الذي يذكرنا نشاطه بنشاط دومر في الهند الصينية ، أن يحسب حساباً لهذه الجماهير الوطنية التي تعتمل فيها وتختمر قوى محافظة مشهورة بعدائها للبريطانيين ، وللذرائع والاساليب الاوروبية وطبقة من المثقفين تطمح بأبصارها الى التربع في الوظائف الكبرى ، وبورجوازية تساعدها الارباح التي تحققها في التجارة والصناعة الناشئة ، على تضخيم المطالب القومية .

فشبه الجزيرة الهندية ، كالصين نفسها، تفيض بهذه المفارقات والمتناقضات الحرية بالملاحظة . « فمدينة بمباي ، كما يلاحظ احد الاداريين الانكليز عام ١٨٩٩ ، مدينة صناعية عصرية حيث الصناعة الحديثة تأسر النظر بوجهها الكالح والمشع معاً . ففي بمباي احياء، منازلها واطية، غير صحية يتكدس فيها السكان على اشد ما بلغه تكديس السكان في المدن الاوروبية . فيها العديد من اصحاب الملايين الذين ساعدوا بهباتهم ومكارمهم الانسانية ، على تشييد الابنية الضخمة التي تزدان بها المدينة » . والتحقيق الذي أجرته لجنة من لجان العمل ، عام ١٩٠٧ ، يشهد عالياً بالفقر المدقع الذي تتخبط فيه البروليتاريا ، وينزل بالمصانع التي يُحلج فيها القطن حيث يعمل العمال من ١٧ — ١٨ ساعة في اليوم ، بأجر يتراوح بين ٢٥ — ٣٢ فرنكاً في الشهر الواحد ، كما يشير الى ان العديد من الاولاد ، بين السادسة والسابعة من اعمارهم يعملون ١٢ ساعة في اليوم

ويكسبون نصف هذا المبلغ في الشهر. إلام يؤدي نجاح حركة مقاطعة البضائع الانكليزية ياترى ؟ فقد تبدى لبعض المفكرين في الهند، أمثال رابندرانات طاغور ان استغناء الهنود عن استعمال البضائع الانكليزية من شأنه ان يزيد استثار الجماهير فداحة . اما فيما يتعلق بالاستقلال الذي يطالب به تيلاك والذي أقره المؤتمر الهندي عام ١٩٠٦ ، فهل يعني قيام دولة هندية تتطور على طريقة اليابان ، أو على الطريقة التي اقترح الاخذ بها غاندي منذ عام ١٩٠٧ ، اي اعلان المقاومة في وجه التقدم ، على اي شكل كان . وشجب التصنيع ، ومنع كل ما يولد الضجيج والرجوع بالبلاد الى المغزل . ومهما يكن ، فقد أطل على البلاد ، عام ١٩٠٨ ، عهد من الاضطرابات طلع اول ما طلع ، في البنغال ، لم تعمل على تهدئتها ولا على ادخال الطمأنينة الى النفوس القلقة، الاصلاحات التشريعية الجديدة التي أجراها اللورد منتو ومورلي . صحيح ان المؤتمر بقي تحت سيطرة المعتدلين الذين يخشون دوماً الحركات الارهابية المتسمة بالعنف ، والحادث المهم هنا هو ظهور العصبة الاسلامية لجميع الهند التي جاءت تردف هي الاخرى المعارضة لوجود الاجنبي في البلاد .عاد غاندي الى الهند ، عام ١٩١٤ ، وسيعطي بفضل ما له من شخصية بارزة ، الحركة الوطنية في الهند ، قوة جديدة ، ودفعاً شديداً الى الامام .

من اهم اغراض غاندي والاهداف الرئيسة التي وضعها نصب عينيه ، شد اواصر الوحدة بين المسلمين والهندوس . فهو لا يجهل قط ما للاسلام من اهمية وشأن كبيرين في آسيا وافريقيا. وقد لاحظ بعين ثاقبة الارتجاجات والهزات العنيفة التي واجه بها الضغط الاوروبي . وقد سلم المعتزلي خوده بخش « بأن القرآن يصح ان يكون دليلا ومرشداً للمؤمن لا ان يكون حجر عثرة او حائلا دون التطور الاجتماعي والادبي والقضائي والفكري » . كذلك ، شدد على إظهار المخاطر الكامنة تحت شعار بعض الفئات التي تدعى انها متطورة: «اخذنا عن الاوروبيين لباسهم وطريقة عيشهم حتى مساوئهم المعروفة من معاقرة الخمرة الى الميسر ، الا اننا لم نأخذ شيئاً من فضائل هؤلاء الاوروبيين » . هذا ما يتوجب معرفته لدى هؤلاء المعجبين بأوروبا . ولذا لم يتردد احد كبار ممثلي انكلترا في الشرق ، هو اللورد كرومر ان يكتب عام ١٩٠٨ قائلا : « لا سبيل الى اصلاح الاسلام .فالامر الذي يخضع للاصلاح لم يعد الاسلام ، بل شيئاً آخر ...لن يكون ممكنا كما يرجحون ان يصنعوا هميناً من الحرير الغربي من اذن خنزيرة شرقية» . فهو يرى ان المصريين المتخلقين بأخلاق الاوروبيين فقدوا اسلامهم واصبحوا اوروبيين من ذوي اللافقريات» . ولويس برتران ، هذا المراقب الحصيف يذكر ، عام ١٩١٠ ، في كتابه الموسوم « السراب الشرقي » ملاحظاً : « لن ندرك ابداً هذا الغضب والحقد الذي يثيره في قلب سكان المدن الجزائرية ، من ابناء البلاد الاصليين ، الواجب المترتب عليهم بافراغ سلة القمامة في ساعات معينة من النهار » .

فالمسلم اعتبر دوماً ، على اقدار مختلفة ، وجود الاوروبي في دياره ، ضرباً من الاهانة تصيبه في الصميم ، فهو لا يمكن ان يألف او ان يأنس الى وجود حكومة تدين بغير دينه ، كما يلاحظ موظف روسي عمل مدة طويلة في التركستان . فهو يصف بالجنون هذا السباق الى

التسلح الذي يستسلم له غزاته ومستبيحو ارضه وبلاده . « بلغت اوروبا اوج قوتها وبطشها ، كما يؤكد يحيى صديق . وبالرغم مما حققت من امجاد وعظمة وقوة فهي اليوم اكثر انقساماً على نفسها واكثر عطباً من اي وقت مضى » . ولذا قام دوماً بحالة كمون ، شعور بجامعة اسلامية تحمل المقت لما هو اجنبي غريب ، كثيراً ما برهن عن وجوده ، هنا او هناك ، بشكل او بآخر ، واحياناً بعنف شديد ... ففي الوقت الذي ارتدت فيه الحركة الوهابية الى نجد ، فالخوف بقي محور الحركة السنوسية التي تقوم بدعوة لا تمل تمتد من ضفاف خليج سرتا الى مشارق النيجر ونهر الغانج . وقد احسنت الصمود في وجه الايطاليين في طرابلس الغرب . «توهمت ايطاليا انها امام تركيا» كما يلاحظ هنوتو «فقد وجدت نفسها وجها لوجه مع الاسلام». فالطريقة السنوسية اختارت لها طرائق سرية تتصف بالفطنة والحذر ، وابت ان تربط نفسها بعجلة القسطنطينية عندما حاول السلطان عبد الحميد ان يرفع فوقها علَم الخلافة . فالجامعة الاسلامية ، هذه الرابطة السياسية الدينية التي سبق لغبرييل شارم ان حذر ، منذ عام ١٨٨٣ ، من الاخطار التي تمثلها ، اتخذت سلاحاً لها وعدّة الترهيب ودهاء الدبلوماسية ، لم تتورع عن هدر دماء المسيحيين في ارمينيا وكريت ومقدونيا ؛ والسلطان الاحمر نفسه طوح به الغرور لاقامة علاقات مع اليابان ، بعد أن راح بعضهم يبشر مهدداً بقرب اعتناقها الاسلام بالجملة . وهنالك حركة تقارب ظهرت سنة ١٩١٢ ، بين المسلمين وبين الوطنيين من الهنود والصينيين . فتحت تصرف الاسلام والمسلمين اكثر من ١٠٠٠ صحيفة اوروبية ، يخرج بعضها من القاهرة باتجاه بغداد وطهران وامرتسار ، والبعض الآخر من القسطنطينية باتجاه بمباي او باتجاه معاكس ، فتصدر عن كلكوتا باتجاه ايران وتركيا ومصر .

وهذه الجامعة الاسلامية الحميدية ينتصب في وجهها قوميات فتية . فلم تستطع كبت النفور المستعصي بين الاتراك والعرب ، في قلب السلطنة العثمانية وراح جمال الدين الافغاني يشيد عالياً بحضارة العرب وشهدنا في لبنان بعثاً من دعاته وحملته الكبار خليل مطران وجبران خليل جبران . ويقوم الكاتب السوري الكواكبي يطالب بوجود الخليفة – خليفة المسلمين– في مكة المكرمة . وفي عام ١٩٠٥ ، اذاعت عصبة الوطن العربي من باريس نداءها المشهور ، في الوقت الذي راح فيه نجيب عازوري ينشر كتابه : « يقظة الامة العربية » . ونشبت في الحين ذاته ، في الحجاز وفي اليمن ثورة عجزت تركيا عن قمعها بالقوة .

وبعد ذلك بقليل قامت في الاستانة ثورة استبدلت النزعة الاسلامية التي قال بها عبد الحميد، والتي باءت بالفشل وقابلها الناس بالاعراض ، بحزب وطني تركي هو حزب تركيا الفتاة .

وحوالي عام ١٨٩٥ ، أطلت علينا الجامعة الطورانية ، ظهرت اول ما ظهرت عند تتار روسيا ، اذ قام بعض اغنياء تجار باكو بدعم حركة تدعو للم شعث الجماعات الطورانية المتناثرة حلقاتها بين فنلندا وملشوريا ، الوقوف في وجه القيصرية الروسية التي كانت تدعو وتعمل

« لترويس » هذه الاقوام . فقد ضم اول مجلس تمثيلي روسي (دوما) عدداً محترماً من الاعضاء المسلمين كان لهم وقع مهيب في النفس اقلق خواطر اولي الامر في روسيا . فلم تتطور الامور ، من هذه الناحية ، الى ابعد من ذلك . الا ان اكشورا اوغلو ، احد تتار الفولغا، جاء الاستانة واسس فيها جمعية طورانية ، حيث قام احد مواطنيه المدعو احمد بك آغا يبث دعاية ناشطة بين حملة الفكر من خصوم حكم السلطان عبد الحميد . وظهر اذ ذاك الى الوجود حزب تركيا الفتاة عرف ان يكسب له اعضاء كثيرين في الاوساط التركية وفي صفوف الجيش ، مستغلا الفشل الذي بليت به محاولات السلطان ومعرضاً بالتنازلات التي تخلى عنها لخليفة ظل. وراح هذا الحزب يتغنى بفضائل الشعب التركي المسلم البعيد عن التعصب ونجح باقامته ، في وجه العربي الذي وصفوه بالمتقلب والفوضوي ، حركة قوميـــة متعصبة مستهجنة تسلمت مقاليد الحكم في البلاد بفضل جيش افراده من الرعايا والذميين ، اطلق عـلى لجنته الادارية اسم « الاتحـاد والترقي » ، اذ كانت تضم بين صفوفها ، مسيحياً ويهودياً ، وانتسبت بالمبادىء التي نادت بها، الى اوغست كونت والى « فلسفته الوضعية الكاملة » ، وراحت تنادي «بالعثمانية » بحيث يصبح كل رعايا السلطنة دون اي تميز عرقي فيما بينهم « عثمانيين » . الا ان الفشل جاء تاماً ، كاملا ، هنا ايضاً ، وذلك بفقدان تركيا طرابلس الغرب ، حيث تمثلت المقاومـة وتبلور الصمود في وجـه الغازي المستبيح، بالسنوسيين ، وبفقدان البلقان ، وبانفصال البلدان العربية تدريجياً من تركيا . وقد ظهر ان « الوطن العثماني » يجب ان يقتصر ، بعد امد وجيز على العثمانيين الاقحاح . ففـي الحين الذي راحت فيه انكلترا تظهر عطفها على العرب، كانت المانيا تؤيد الجامعـة الاسلاميـة الحميدية وتتظاهر بتأييد الحركة الوطنية التركية في الاستانة . وفي نهاية الامر ، لم يلبث حزب تركيا الفتاة ان دب سوء التفاهم بينه وبين الجامعة الجرمانية .

سقوط عبد الحميد عن كرسي السلطنة سبق بقليل سقوط الشاه محمد علي ، هذا الشاه المستبد في دولة راحت فريسة للفوضى المخزية . هنا حزب تركيا الفتاة وهناك حزب ايران الفتاة ، وقد تألف الاخير منهما من لميم الاعيان ورجال الفكر وبعض المغامرين جـــاؤوا من القفقاس ومن ارمينيا ومن بعض ائمة الشيعة . فتبريز تقف في وجه طهران. وقد راح الشاه فريسة هذا التقارب الذي تم بين الانكليز والروس ، فاضطر ان يجمع المجلس الوطني وان يعتزل الحكم عام ١٩٠٩ لابنه الشاب . الا ان الثورة التي تستجدي معونة المستشارين الاميركيين ، وتحاول لفترة قصيرة استمالة برلين الى جانبها ، لم تستطع الصمود امام التدخل المزدوج من قبل الروس والانكليـز . فحوادث الفتن والاضطرابات لن ينتهي عهدها بسرعـــة في ايران التي راحت فريسة الدول الاستعمارية المجاورة لها .

والحوادث الدامية التي وقعت عام ١٩٠٨ – ١٩٠٩ في كل من تركيا وايران تردد صداهـا في القاهرة . فقد كان سبق للورد كرومر ان غادر مصر بعد ان كان قد تولى ادارتها مـدة ٢٨

سنة، وعمل على تنظيمها وفقاً لمتطلبات المصلحة البريطانية. ولكن الروح القومية المصرية التي بدت طلائعها في ثورة عرابي باشا، لم تخمد جذوتها قط كما يلاحظ المستكشف شواينفورث عام ١٨٩٥. فاذا ما رضي جناحها المعتدل ممثلا بالشيخ محمد عبده، شكلاً من التعاون المؤقت، فقد راح يؤكد بصوت مصطفى كامل «المصريون لمصر ومصر للمصريين». ومع ذلك كان كامل يراعي جانب المحتل. وعندما توفي عاد الاضطراب الى البلاد واشتدت حركة المقاومة كما حدث في الصين والهند بفضل التطور الذي عرفته البروليتاريا الصناعية في البلاد. «ان كلا ضفتي النيل، كما يلاحظ لويس برتران، عام ١٩١٠ — تزخر بالمصانع ومعامل السكر ومعامل نسيج القطن التي ترتفع سحائب مداخنها السود فوق عزب الفلاحين ومنازلهم المتخذة من اللبن». وجاء كتشنر واسرع الى تعطيل الجرائد الوطنية واخذ يلاحق احرار البلاد ويضيق على زعمائها الخناق. الا ان المعلق الصحفي سدني راح يعترف بالحقيقة قائلا: «لسنا محبوبين في مصر». كما ان لوتي اخذ ينتحب قائلا: «مسكين هذا النيل، حقا مسكين... ما هذا الانحطاط الذي صار اليه! بعد هجمته السحرية التي امتدت عشرين قرناً نراه اليوم تنتقل على متن ظهره ثكنات وكالة كوك الطافية، ويغذي مصانع السكر ويجهد نفسه ليؤمن بما يفيض به من غرين خصب، المواد الاولية للمنسوجات القطنية الانكليزية».

حري بنا ان نلاحظ هنا ان الحركات الوطنية في العالم الاسلامي اخذت تستيقظ في هذا الوقت بالذات الذي بدا فيه ان الدول الاوروبية اخذت تقضم من جنباته وتمتضي فيه نهشاً وتتقاسمه. فغزو الدول الغربية للفحم وقع في الوقت بالذات الذي تم فيه غزو المغرب، فالضربة تلو الضربة، اذ يحتل الايطاليون طرابلس الغرب، ويفرض الفرنسيون حمايتهم على فاس، ويفقد الاتراك كل ممتلكاتهم في اوروبا باستثناء تراقيا الشرقية، وتبدو الاستانة وشيكة الوقوع بيد البلغار، وآسيا الغربية تتمخض بانقسامات وطنية وشيكة الوقوع. أفلم يُنشأ وطن قومي لليهود في فلسطين؟

والمقاومة في الغرب بدت عنيفة وطويلة، فتمركزت في جبال الاطلس وفي الريف وحدود الصحراء الكبرى. ومن الامور التي لها مدلولها هنا، مهما قل شأنها، ظهور الحركة الثورية لتونس الفتاة، التي ضمت بين صفوفها، عدداً من رجال الفكر وبعض الشيوخ مطالبة بتوسيع الحريات وتتسبب ببعض حوادث العنف، اذ ان المقيم العام في تونس مسيو ألابتيت، والسكرتير العام السيد روي إستمرا في ادارة المحمية وفقاً للمبادىء والنصوص التي حددها كمبون وروى نفسها، وهو اتفاق راعى مصالح الاقلية الاوروبية في البلاد والدولة الحسينية المتعاقبة على الحكم. وفي الجو الهادىء الذي ساد الجزائر حيث ازدياد حركة الاسكان بين الفرنسيين لم تستطع، بالرغم من النسبة العالية التي سجلتها ان يزيل الفارق الكبير لصالح الاكثرية الاسلامية. واخذت ترتفع في تلك البلاد، منذ عام ١٩١٠ بعض الاصوات من بين الاوساط الوطنية

التي تخرجت ، هنا كما في تونس ، المعاهد العصرية على النهج الاوروبي. وقد اغتنم هؤلاء الشبان الجزائريون مناسبة تقديم مشروع الخدمة العسكرية ليطالبوا ، بالمقابل ، بالمساواة في الحقوق والواجبات امام الضرائب ، ونشر التعليم وتمثيلا اكبر في مؤسسات البلاد . أما اصحاب العمائم الذين تختار فرنسا من بينهم القضاة والاغاوات ، فقد رفضوا مشروع الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي مدعين انهم انما يستجيبون ، في موقفهم هذا لمطلب الدفاع عن حقوق الاسلام .

صحيح ان افريقيا الجنوبية الغربية الالمانية شهدت عام ١٩٠٣ - ١٩٠٥ انتفاضتين قامت بها تباعاً قبائل الـ *Hereros* وقبائل الـ *Hottentots* احتجاجاً منهم على الاستثمار البشع الذي استهدفوا له ، وعلى سياسة العنف والبطش التي راحوا فريسة لها ، وهي سياسة اخذت الى حد ما ، تراعي جانب ابناء البلاد والتي استأنف الاخذ بها ، منذ عام ١٩٠٧ امين سر الدولة درنبرغ . الا ان الزنجي مسلماً كان ام وثنياً ، لم يكن سواء في السودان او في مناطق الكونغو على اختلافها ، لم تكن اعتملت نفسه بعد « بالروح الافريقية » .

ومدغشقر لم تعرف سوى فتنة بسيطة وقعت عام ١٩١٣. وعلى عكس ذلك يجب ان نسجل هنا طلوع روح قومية جياشة في قلب افريقيا الجنوبية التي تعد مليوناً ونصف مليون من البيض واربعة ملايين ونصف من السودان والهنود . فالمنافسة الحادة الطويلة التي قامت بين البيض من بريطانيين وبويرز لتأمين السيطرة لجانب من الفريقين انتهت ، عام ١٩٠٢ بغلبة الـ *Uitlanders* على الروح القومية التي يمثلها الـ *Afri Kanders* .الا ان الدومنيون الذي انشىء عام ١٩١٠ نهض على الشعار المعروف : القوة في الوحدة . ان تضامن الفئتين وتوحيد موقفهما تجاه سكان البلاد الاصليين عرف كيف يتغلب على وطنية الافريقيين ، وامّن قيام عهد من التعاون بينها وبين لندن نص على الدفاع عن حقوق البيض . وعلى غرار حادث شبيه بالحادث الذي وقع للولايات المتحدة الاميركية بعد حرب الانفصال ، فما كادت تنتهي حقبة « التعمير والانشاء » حتى راح العنصر الوطني المغلوب على امره يعمل على ترسيخ وشائج العنصرية التي قال بها وعلى إظهار عدائه للرأسمالية . وقد قام فريق من البويرز يلتفون حول الجنرال هرتزوغ يطالبون باتخاذ اجراءات تؤيد التمييز العنصري والتشهير بفريق ارباب المناجم . وفي كانون الثاني ١٩١٤ ، تألف حزب وطني في جنوبي افريقيا لم يلبث بعض المغالين من عناصره ان اتفقوا مع غلاة الوطنية في ايرلندا ، خلال الحرب العالمية الاولى ، على شن هجوم مشترك ضد بريطانيا .

لا نرى في ما تبقى من اجزاء الدومنيون البريطاني من قوة طاردة شبيهة بالقوة التي تبديها النزعة الافريقية في الكاب وبريتوريا . ولما كانت المطالب الاقليمية الكندية قد برزت على بعد متساو من لندن وواشنطون فلم تصب مصالح انكلترا الاستعمارية ،بأي اذىً او ضرر يذكر، واوستراليا تعتمد على اتحادها مع البلد الام لتصمد في وجه التهديد الاسيوي . والحقيقة التي

لم يتطرق اليها اي شك هي ان هذه الشعوب أخذت تشعر بوجودها ، كما اننا نلاحظ عندها رغبة بأن تصبح امة معترفاً بها .

ولكي يحطم اصحاب المناجم في جنوبي افريقيا قوة اتحادات العمال لجأوا الى عمال افريقيين لم يكن ليسمح لهم بذلك من قبل . وبعد حوادث اضرابات عنيفة وقعت عام ١٩١٣ – ١٩١٤، اقبل هؤلاء العمال على الدخول في عضوية النقابات العمالية بأعداد كبيرة . الا انهم لم يلبثوا ان خضعوا هم انفسهم للتشنيع بالزنوج الخاضعين لوضع فيه نصف عبودية .

اما بلدان اميركا اللاتينية حيث اخذت الرساميل تتجمع، فقد راح ارباب المال فيها يقيمون لهم علاقات ناجحة مع رجال الاعمال من الاوروبيين والاميركيين. لاشك ان العصا الضخمة التي اوح بها ثيودور روزفلت في اميركا الوسطى بعثت الريبة في النفوس وأبت الجامعة الاميركية ان تعهد الى « الولايات المتحدة الاميركية ، بسلطة بوليس دولي في المنطقة ، وهو مطلب وقف بوجهه بعناد رجل القانون الأرجنتيني المشهور داغو ، الا انة لم يقع شيء ضد سيطرة رؤوس المـــال الأجنبية . وحري بنا ان نذكر هنا مثل المكسيك . فالثورة التي انتهت عام ١٩١٠ نظام حكم الرئيس بورفيرو دياز ، عجزت عن احقاق مطالب جماهير الفلاحين المحرومين من الاراضي ، كما عجزت عن إشباع مطالب البروليتاريا ، الناشئة ، هذه البروليتاريا التي اخذت تترعرع في احضان النقابية والاشتراكية ، ولاارضاء البورجوازية المستنيرة بعض الشيء التي تمنت قيام نظام حر ، وهذه الحكومات الصورية او الوحشية التي تعاقبت على الحكم في البلاد كان عليها ان تراعي جانب واشنطون التي كانت دوماً على استعداد التدخل بشؤون البلاد.

وهكذا ، في مكسيكو كما في بريتوريا ، في القاهرة كما في نانكين ، لم تلبث ان برزت قسمات وجه هذه القوميات الوطنية التي تطمع ان تكون سيدة مصيرها . وهكذا فالحركة التي بدت طلائعها في اوروبا ، منذ القرن الثامن عشر ، اخذت تثير في القرن العشرين اهتمام بلدان القارات الخمس . فقد اصبح « التجمع البشري »في الوطن ، امراً عاماً ، شائعاً، شمل جميع المجتمعات البشرية بحيث ان فكرة الوطن لم تعد لتسند ، كما يلاحظ جوريس، على الاصول الاقتصادية وحدها ، ولم تعد « تنحصر في دائرة ضيقة هي من حق طبقة معينة » لان «اصولها تنبع من طبيعة الحياة البشرية » . وفي وسط هـــذا « التجمع البشري » ، راحت المشاعر الفردية « تتجمع وتنطلق » عارمة بحيث ان « المستثمرين »و«المستبعدين » اخذوا يتذوق طعم الكرى والنوم الهني عند ادنى درجات الصرح الشامخ ، وتشعر في صميمها بارتياح اكبر مما كانت تشعر به « في هذا العالم البراني الذي يحيش بالعداء العنيف ويتنزى بالقلق الصاخب » .

الفصل الرابع

الارتكاسات العالمية والدفع الاشتراكي

العاملون على تأمين ضروريات العيش هم اكثر الناس افتقاراً لها ، بينما هي تتوفر بسخاء للذين لا يعملون شيئا في انتاجها .
(أناتول فرانس : جزيرة البنغوين ، ١٩٠٨)

البروليتاريا ووضعها القائم في اواخر القرن

ان تحول النزعة الاقتصادية ، منذ عام ١٨٩٥ والانطلاقة الجديدة التي عرفتها حركة الانتاج والتبادل التجاري ، كل ذلك عاد بالخير العميم على الرأسمالية . غير ان الانتهاء من عملية اقتسام المستعمرات ، والمنافسة الحادة حول الخامات والمواد الاولية ، والسيطرة على الاسواق العالمية كل ذلك وقع في الوقت ذاته التي طلعت علينا اوليغارشية محتكرة شديدة البأس. ومن ثم، فقد اضطر اصحاب الاعمال للتخلي ، شيئاً فشيئاً، عن مواقفهم المفردة المتعذر بسطها التي لم يعد بوسعهم الدفاع معها عن مصالحهم . ففرنسا وحدها ، ارتفع عدد النقابات العمالية ، بين ١٨٩٠ – ١٩١٤ ، من ١٠٠٤ نقابة او رابطة الى ٤٩٦٧ ، كما ارتفع في الفترة ذاتها ، عدد الاعضاء المنتمين اليها من ٩٣ الف الى ٤٠٢ ٠٠٠ .

والثابت ان دنيا العمل المأجور اخذت تتطور ، من الوجهة العددية تطوراً عظيماً . فالى فئات العمل المختلفة العاملة في الصناعات الصغرى والوسطى والكبرى يجب ان نضيف هنا فئة اخرى تعمل في القطاع الذي يمكن ان نسميه : « القطاع الثلاثي » حيث يعمل اصحابه في توزيع المحاصيل والانتاج وتأمين الخدمات العامة ، والذين يتمثلون بهؤلاء العمال الذين يرتدون الياقة المستعارة وربطة العنق والقبعة اللينة . وقد كانت نسبتهم في فرنسا ، عام ١٨٦٦ ، بنسبة ١٠ موظفين الى ٢٤٠ عامل ، فارتفع الى ١٤٥ عام ١٩٠٦ ، والى ١٢٠ عام ١٩١٤ . ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٩٥ – ١٩١٤ ، قدروا أرباب الاسر التي لا دخل لها سوى اجر رئيسها ، من ٨ – ١٢ مليون ونصف المليون ، وعدد الطبقة العمالية ، بحصر المعنى ، في الولايات المتحدة من ٥ – ٧ ملايين ، وفي روسيا من ٣ – ٤ ملايين .

فالازمة الكبرى التي نزلت باليد العاملة في بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الغربية والانكلوسكسونية خارج اوروبا انقشعت كربتها عن بعض مكاسب تمثلت في تحسين ظروف العمل التي كانت تكتنفها . فاذا ما استمر ارتفاع الأجر الاسمي ، خلال الظروف التي اطلت. (راجع الجدول المثبت صفحة ٩٠) فالأجر الفعلي أجبر لحقه بعض التأخر اذا ما نظرنا اليه من ناحية تكاليف الحياة . فالارتفاع في هذه التكاليف ، اختلف من بلد الى آخر ومن مهنة الى اخرى ، وبصورة ابرز واوضح ، في ايطاليا حيث الاجر كان اقل (كان الدليل الاسمي ٧٦ عام ١٩٠١ مقابل ١٠٠ عام ١٩١٣) وبدا زهيداً في انكلترا (الدليل ١٠٠ عام ١٨٨٠ ، مقابل ١٣٢ عام ١٩٠٠ ، و ١٤٣عام ١٩١٣) ، وتوقف في بلجيكا منذ عام ١٩٠٤ ، ثم عقبه حالة من الركود الفعلي (دليل ٨٩ عام ١٨٩٥ ، و ١٠٤ عام ١٩٠٤ ، و ٠٠ عام ١٩١٣) .

والمرافق الاكثر حظوة هي المناجم والميتالورجيا اللتان زاد الطلب عليهما بصورة محسوسة . فعامل المناجم في الروهر كان يتقاضى ، عام ١٩١٠ ، ٦ ماركات عن كل طن فحم يستخرجه ، مقابل ٣ ماركات عام ١٨٩٧ . اما عامل مناجم الفحم في فرنسا الذي كان اجره ضئيلاً ، حتى ذلك العهد ، فقد حسنت اوضاعه وارتفع اجره (من فرنكين ، عام ١٨٥٠ الى ٣٫٣٠ فرنكات عام ١٨٨١ ، ثم ٤٫١٠ فرنكات عام ١٨٩٥ ثم الى ٥٫٤٠ فرنكات عام ١٩١١) اما عامل النسيج فقسمته ضئزى : فالاجرة التي كان يتناولها في معمل ورتمان للنسيج في مدينة غنت لم تكن توازي اكثر من ٦٣ ٪ من كلفة الانتاج ، عام ١٩١٣ ، مقابل ١٢ بالمائة عام ١٨٩٧ ؛ ومع ان الكلفة العامة تضاعفت قيمتها ، فقد امكن المحافظة على تكاليف التوضيب كما حُوفظ على معدل الربح اذ اتاح إدخال التصفيح تأمين زيادة في الانتاجية .

فالاجر يبقى متدنياً جداً في معظم قطاعات العمل . فاذا ما أوضح التحقيق الذي اجري في فرنسا ، عام ١٩١١ ان النجار وصانع الاقفال والسنكري يربح ١٠ فرنكات على الاقل ، في اليوم فعلى العمال المياومين ان يقنعوا بأجر يتراوح بين ٤ — ٥ فرنكات بينما تربح المرأة ما بين ٢ — ٣ فرنكات في اليوم ، وليس بنادر قط ان تقوم عاملات المنازل بعمل ١٥ ساعة لتربح ١٫٥٠ فرنك . اما في آسيا ، فالارقام تهبط الى ادنى من ذلك بكثير ، اذ يتناول الولد الياباني الذي يعمل في المصنع نصف فرنك و٢٥ سنتيما اذا ما عمل في مزارع الأرز .

بالاضافة الى هذا كله ليس ثمة عمل موصول او مستمر . هنالك ازمات بطالة مزمنة . وحركة النزوح او الهجرة بالجملة التي يقوم بها البائسون على نطاق واسع تشهد عالياً على الفقر العام الذي تتخبط فيها الجماهير .

حتى في هذه البلدان الاكثر أخذاً باسباب التطور ، تبقى اليد العاملة في وضع مجحف جداً بالنسبة لرأس المال . فقد كان العامل في الولايات المتحدة ، عام ١٩١٤ ، يتناول من الدولارات ضعفي ما كان يتناوله منها عام ١٨٩٩ ، بعد ان ارتفع عدد العمال في البلاد ٤٠ بالمائة بينما اصاب الرأسمال من الربح ما يعادل الضعفين ونصف في عدد من الاستثمارات وزاد قليلاً عن قبل .

(فالدليل الاعلى ١٠٠ لعام ١٨٩٩ ، انتقل الى ١٣٦ في قطاع الاجور ، والى ١٧٠ في قطاع الارباح ، و ١٣٧ في الانتاج الصافي ، و ١٤٦ في تكاليف المواد الاولية) . ففي الوقت الذي زاد فيه ربح المعدن الفرنسي ٢٠ بالمائة تضاعفت فيه ارباح شركات الاستثمار . فهل من يستغرب بعد هذا كيف ان ٨٥ بالمائة من الدخل القومي في انكلترا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، كان يذهب الى جيوب ٥ بالمائة فقط من مجموع السكان ؟ ، وان ٢٥ مليونا في فرنسا لا يختلفون ، لدى وفاتهم اية تركة تذكر ، وان ١٢ — ١٣ فرد منهم يملكون ٣٠ بالمائة من الثروة العامة ، وان اقل من مليون يملكون ٧٠ بالمائة ، وان في الولايات المتحدة الاميركية بين ٢٠ — ٢٥ مليون من المكلفين منهم ٣٢٥،٠٠٠ فقط مسجلة اسماؤهم في سجلات ضريبة الدخل ، وان دخل منهم يزيد ١٥،٠٠٠ فرنك ، وان في المانيا ٣ ملايين يتمتع الواحد منهم بدخل يزيد على ٣٠٠٠ مارك في السنة (بينهم ٩٠٠٠ يزيد دخل الفرد الواحد منهم على ١٢،٥٠٠ ، وان معدل ما يصرفه العامل يتراوح بين ٧٠٠ — ٢٢٠٠ مارك) .

التناجية اكبر وظهور التخصص التقني (او التيلورية)

للمحافظة على ارباحه وحرصاً منه على إنمائها ، راح رب العمل يدرس بعناية كلية قضية توزيع العمل في مصنعه والتخصص في كل وجه من نشاطاته . فلم يستطع يوماً ان يوحد نظرته الى العمال القائمين على تأمين الانتاج في معمله . فقد قسمهم الى فئات متميزة بين عمال مهرة وعمال ملفقين . كذلك لم يغفل قط عن ان العمل الفردي يختلف جودة واتقاناً بين عامل وآخر باختلاف ما هما عليه من اهلية ومراس واستعداد خلقي وتقنية مما يتوفر للواحد منهما . والشيء الذي فرض نفسه كنتيجة حتمية للتصنيع هو تقهقر العمل الموصوف بالتقني امام الآلة . ولهذا السبب نرى العامل نفسه يستنزل في مطلع العصر اللعنات والحرم على الآلة وعلى الذين استنبطوها بعد ان اتهمها بالقضاء على المهارة التقنية اليدوية . والحقيقة التي لا مراء فيها هو ان الآلة الميكانيكية اقتضت إعداد فئة خاصة من العمال المهرة المتخصصين يطلب اليهم إدارتها وتوجيه نشاطها . ليس مفروضاً في هؤلاء العمال ان يفقهوا دقائق سير الآلة في مجموعه وعمل كل قطعة على حدة . المطلوب منهم ان يكونوا مراقبين لعملها الفني المحض . وعلى هذا الاساس نرى عدد العمال غير المتخصصين يهبط من ٦٥ الى ٢٥ بالمئة بين ١٨٣٠ و ١٩١٠

فاذا ما ادركنا على وجهه الصحيح الدور الذي يلعبه التصنيع من هذه الناحية ادركنا الاثر الذي تتركه الآلة في رفع الانتاج ودفعه والتوفير الذي تتيحه من جهة اليد العاملة . ففي مناجم الفحم ، مثلاً حيث يخف الانتاج وينقص كلما عمق الاستخراج ، جاءت الآلة ترفع من كميته المستخرجة . ولما كانت نسبة ارتفاع الاجر مرتبطة الى حد بعيد بتطور الآلة التي تزيد من الانتاج فقد ساد الرأي العام ، الاعتقاد بأن تنظيم العمل تنظيماً دقيقاً يراعى فيه الاختصاص والمهارة والمراس ، يعود النفع فيه على العامل ورب العمل معاً ، وقد اتخذت الشركات الاستثمارية الكبرى حجة منه وذريعة للتعويل عليه اكثر فأكثر ، اذ تستطيع معه اكثر مما

يستطيعه صاحب الورشة الواحدة ، تطبيق خير اساليب الاستثمار واجراء توفيرات محسوسه في سعر الكلفة والانتاج ، وبيع المصنوعات بالتالي بسعر ارخص مع تحقيق ربح اكبر .

ولذا كان لا بد من توزيع العمال في المصنع حسبما تقتضيه طبيعة العمل ومقتضيات مصلحة التصنيع الآلي . ان تكييف العامل وافراغه وفقاً لحاجة التصنيع من شأنه ان يوطد فيه الثقة بينه وبينها . فالنظرية العلمية تبعث فكرة المنهجية في العمل والمصنع . فهي قضية تتعلق في صميم علم النفس التطبيقي . فبينما كانوا يعتمدون إختبارات الذكاء للكشف عن كفاءات العامل واستعداداته النفسية ، راح موتستربرغ وهو من تلاميذ رونتا الذي هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية ، يقترح عام ١٨٨٠ ، تطبيق علم النفس التقني على الصناعة .

الا ان المحاولة الاولى لتنظيم العمل تنظيما علمياً يجب ردها ، كما هو شائع للمهندس تيلور . فقد اقترح على شركة بتلهم لصنع الفولاذ ، تحديد معدل الوقت الذي يقطعه العامل للقيام بحركة ما، على ان يتولى قسم التخطيط في المعمل تحديد الوقت القياسي لصنع غرض ما قياسي *Standard* واوصى بالوقت ذاته بتنحية او إبعاد كل عامل لا يتقيد بالخطة المرسومة .

وهكذا نرى ان التيلورية لم تكن بحد ذاتها اساساً لتحسين ظروف العمل لدى العامل ، بل كانت تتوخى الوصول الى تسجيل اعلى انتاج يمكن عن طريق تطبيق الآلية الذاتية (الاتوماتيكية) هذه الاتوماتيكية التي تجعل من العامل قطعة من الآلة .فاذا ما جاءت الطريقة في مصلحة الرأسمالية فلم تلبث من ناحية ثانية ان احدثت ردة عكسية لدى اصحاب الاجور . وامر مجلس الكونغرس الاميركي في واشنطون القيام بتحريات حول الادارة العلمية في العمل . ولم يكن نقد هذه الطريقة باقل حدة في اوروبا.فقد رأى فيها العالم النفساني ساخس «تنظيماً للجهد البشري»،كما ان النقابي العمالي« بوجيه» استعمل هذا التعبير عنواناً لكتاب له يفضح هذه الطريقة التي تساعد على جعل العامل آلة ذاتية « بلهاء » .

وعندما راح فورد يخصص ، عام ١٩١٢ مكافئة للعامل المطيع الذي يستثمر وفره ويؤسس له عائلة ، لم يضع نصب عينيه ، من اقتراحه هذا ، هو ايضاً سوى تحسين وسائل الانتاج(فالدليل الأسمى للأنتاج الذي كان ١٠٠ عام ١٩٢٩ ، لم يكن سوى ٢٧٣ عام١٨٦٩ و ٤٢ عام ١٨٨٩، و ٥٩،٣ عام ١٩٠٩) .

وهكذا بدت العلاقات بين الانسان والآلة بشكل ابقى تابعية الانسان لمقتضيات الانتاج والسعي الموصول لتأمين المزيد من الربح وفقاً لمبادىء الرأسمالية .

المزيد من المؤلفات الاساسية

أطل علينا بعد جيل الرومنطيقية الاجتماعية أجيال عنت تباعاً بالواقعية والطبيعية ، وانصرفت بكليتها لدراسة اوضاع المساكن والبائسين ووصف ما يكتنفهم من اوضاع اجتماعية وصفاً موضوعياً قلما خلا من الشعورية او الاحساسية .

وقد انتشرت هذه النزعات الشعورية واستطال الاخذ بها حتى اواخر القرن ، ان لم يكن في فرنسا ، فاقله في عدد كبير من البلدان الاوروبية الاخرى ، وقد كان للكاتب الفرنسي زولا اثره البالغ في هذا المجال امتد من سهول الفلاندر حتى مشارف البحر البلطيقي ، وظهرت هذه النزعة بوضوح عند فان كرونتجن وكراين ، كما ظهرت بوضوح عند نكس وريمونت وهوبتمان وقد غزت حتى تشيخوف في قضية « الموجيك » وتغلغلت في روايه زولا : جرمينال ، والارض بالألوان مختلفة .

نحن الذين اصطلحوا على تسميتنا سفلة
بلغت منا الروح التراق ، نحن الافاكون
أفضل لنا الف مرة ان تذهب هياكلنا العظمية
مع هياكل اولادنا وبناتنا فننسج أكفاننا بأيدينا
(هوبتمان : الحان)

وانفجرت الثورة الاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية . من شق قلم كتاب امثال درايزر وأبتن سنكلر وهوايتلوك . اذ اخـــذوا بتحريك « الثقالة » وبلغت روسيا مع كورولنكو وغوركي ، وكوبرين .

الا ان الردة المثالية ليست بالضرورة هروباً من المشاهد المريعة . فقد وقف الى جانب المسكين : فرنسن بما عُرف عنه من حنوو ليون بلوا بقشعريرة انما بروح مسيحية حقة ، والروح المناهضة للدين ولرجاله التي جاش بها هذا الاخير كادت تتصل بابانيز وزولا .

والكذب التقليدي هو الذي يجر الى المعركة ويثيرها احتجاجاً على هـــذا الظلم الاجتماعي الذي يبدو من البورجوازية ، كتاباً امثال شو وويلز . وقـــد دفعت قضية دريفوس ، كاتباً فرنسيا هو جول رينار نحو الاشتراكية ، واخرجت من برجه العاجي اناتول فرانس ، هـــذا الكاتب الساخر المستهزىء الناعم الذي عالج او بحث اموراً جمة . بين هؤلاء الكتاب من يجعلنا نفكر بمسرح شعبي وبأغان شعبية ، فرومان رولان هذا الكاتب الرمزي الذي هو خير من يمثل الانسانية المسالمة يتوخى ان يترك لنا وصف عظام الرجال الذين تألموا وجاهدوا في سبيل رفع مستوى الحياة . فنحن امام طلع حقيقي من هؤلاء الشعراء والروائيين الاحقاق من ابناء الشعب لا يتورعون عن استعمال اللهجات الشعبية امثال شارل لويس فيليب ابن صانع القباقيب في مقاطعة البوربونية الذي كشفته لنا قصته المعروفة بوبا دي مونبارناس ، وجاره اميل غيوميه ، واضع القصة : حياة احـــد البسطاء والخياطة مرغريت اودو التي صرفت ٢٠ سنة في كتابة روايتها « ماري كلير » ، هم بعض هـــذا الفريق الذي يمثل في فرنسا ، شلة الكتاب المتواضعين ، الدائبين على انفسهم ، الثائرين خير من يمثلون جيل الادباء في فرنسا اذ ذاك . وغوركي الذي يبدو لنا اليوم بوهيمياً ، يصور لنا بعاطفة ملؤها الرومنطيقية مثال التائه البطل . فما اكثر الادلة والشواهد على الآلام الاجتماعية .

الحريات العامة وروح التماضد وقضية « ديموقراطية مسيحية »

ومع ذلك فقد راحت الطبقات العاملة تحتل يوماً بعد يوم ، محـــلاً اكبر في الحياة السياسية ، بعد ان افادت كثيراً من تطور الدول وتحـــولها نحو النظام التمثيلي الذي ارتضته البورجوازية المتحررة وساعدت على رواجه . فالتحرر السياسي سار وفقاً للمبادىء الداعية الى الفردانية ومتطلبات السيادة الوطنية بينما تنزع القوى الاجتماعية منذ ذلك الحين ، الى تنظيم نفسها عن طريق المواثيق الصناعية والجمعيات المهنية . فالى اي حـد يا ترى يتمازج المـــواطن « المواطن المجرد » بهذه المدنية الديموقراطية ، بهذا الانسان العالمي ؟

نرى ، قبل كل شيء ، ان النظام الاستبدادي او المطلق الذي استبدل في اليابان عام ١٨٨٩ بالنظام التمثيلي او الدستوري ، اخذ يتوارى تباعاً في كل من روسيا (١٩٠٥) وتركيا (١٩٠٨) وايران (١٩٠٩) ، والصين (١٩١١) . فالبلدان التي بقي فيها حق الاقتراع ، مدداً تقصر او تطول ، امتيازاً مقصوراً على اصحاب الثروات وحدهم ، استبدل بالاقتراع العام الذي اخـــذ يفرض نفسه في كل مكان. والتمثيل النسبي الذي عجل به في كل من بلجيكا وسويسرا والارجنتين، اخذ يلقى ارتياحاً ورواجاً لدى الفرنسيين .

ومع أن الرأي العام اخذ يهتم، بفضل الصحافة على الاخص ، بنشاط الهيئات النيابية، فحق الاقتراع الشعبي لم يكن ليعني قط اوليفيد ان المواطن اخذ يساهم ، اكـــثر فأكثر ، بتسيير القضايا العاملة في البلاد . فقد بقيت هذه المساهمة اسمية أو نظرية ، في هذه البلدان الـتي لا يهـتم فيها جمهور الناخبين ، جهلا منه او تكاسلا ، الالما ، لواجباته وحقوقه المدنية ، وهي مساهمة تأتي جانبية او غير مباشرة في معظم الحالات ، وكثيراً ما حدت منها أساليب الاخذ بالنظام التمثيلي ، والمؤثرات الشخصية والحزبيات ومداخلات ارباب المال. ومن جهة أخرى، فالخدمات العامة التي تتطور بسرعة تأخذ موظفيها من رجال « السلك » ؛ فاذا ما تغلغلت فيهـــا الروح النقابية ، كما هي الحال في فرنسا على الاخص ، فالدوائر العامة هي بمأمن من التيارات السياسية. الا ان الدولة التي لا يزال فيها انصار النظام القديم ينتقدون بشدة التدخل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ترى باستمرار دورها ينمو ويزداد بازدياد الضغط الذي تمارسه الهيئات والمنظمات النقابية المختلفة الحسنة التنظيم .

ان اعادة النظر في الليبرالية الفردانية الصرف التي بوشر بهـــا منذ جون ستيورات مـــل ورنوفييه اشتدت حركتها تحت تأثير الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع السبنسري ومدرسة دوركهايم. فالترابط القائم بين البشر رأى فيه كثيرون نتيجة حتمية للقانون الطبيعي الذي يشد بعضاً الى بعض، اعضاء كل جنس من الاجناس الاحيائية. فبدلا من حقوق الانسان التي تراعي الى حد بعيد جانب الفرد، راح ليون بورجوى يوصي العمل بالعقد ذات المفعول الرجعي المسلم به، والذي يقتضي قيام رابطة سابقة تشد الفرد الى المجتمع ، وذلك في بحثه الموسوم : « محـــاولة حول فلسفة التضامن » . يرسم لنا فيه الخطوط الكبرى لفلسفة اشبه ما تكون بالليبرالية المستحدثـــة التي

تبلتها الراديكالية الفرنسية . نحن أمام علمانية إنسانية تفرض على « من ينعمون بالامتيازات » ، واجبا اجتماعيا عليهم ان يؤدوه باسم العدالة ، على ان يمنحوا المواطنين الاكثر حرماناً ، عوناً ضد العجز الطبيعي والاخطار الاجتماعية مع التعهد بتأمين منافع التربية الابتدائية للجميع على السواء . وقد تبنى مثل هذا البرنامج عدد كبير من الاحزاب المتحررة المحافظة الموجودة في البلدان السكندينافية والانكلوساكسونية ، وفي سويسرا وبلجيكا و « التقدميون » في الولايات المتحدة الاميركية .

ان نظرية من هذا الشكل تتفق تماماً والمسيحية الاشتراكية كما يتمثلها بعض البروتستانت . فالكاتب الفرنسي شارل جيد الداعية الى التعاون يعرض علينا نظرية تعاونية أساسها الاختيار الادبي والاداري . وقد عرض لنا ولفرد مونو القضية بوضوح كلي في كتاباته العديدة ولا سيما بكتابه المعنون : « نهاية المسيحية » . « فالمسيحية ترزح تحت وطأة حرم ثقيل لأنها تأخذ بالجدية اللازمة ، العمل على محاربة البؤساء في العالم وازالة آثارهم » . فنظام الاجر المعمول به اليوم مقضي عليه امام محكمة العقل ومحكمة الضمير ومحكمة التاريخ . اما ألمانيا ، فتسيطر عليها روح انسانية رحبة تقود الحزب الوطني الاجتماعي الذي اسسه نوماف اكثر منه حزب العمل المسيحي الاجتماعي المعروف بروحه المحافظة والمناهضة للسامية . اما في بريطانيا العظمى ، فالروح البروتستانتية هي التي تتنزى بالنزعات الفابية ونزعة الجمعية الفابية الانكليزية التي نشطت عام ١٨٨٤ والتي سعى اعضاؤها الى نشر المبادىء الاشتراكية بالوسائل السلمية .

وبالفعل فقد راحت الكنيسة الكاثوليكية تبحث عن طريقة تحد معها من حركة تجريد الطبقات من الروح المسيحية . فـ « البراءة البابوية » التي صدرت عام ١٨٩١ شجبت بعنف ليس الكفر والروح المادية التي تطفو على التعاليم الاشتراكية ، فحسب بل ايضاً نزلت باللائمة على الرأسمالية التي تعمل على عزل العمال وجعلهم بغير دفاع عن حقوقهم في الوقت الذي وجدوا انفسهم واقعين تحت رحمة أرباب العمل الذين تجردوا من كل شفقة ، راحوا فريسة الجشع ومنافسة جنونية لا حد لها » . ورراحت تؤكد ان الطبقتين المذكورتين معدتين من قبل الطبيعة للعمل معاً بانسجام كلي ، وتذكر الدولة بأن عليها واجبات معينة نحو « اصحاب الاجور » وتوحي بتشكيل جمعيات اخوية مشتركة بين ارباب العمل والعمال ، وبعبارة اخرى ، تأليف نقابات مختلطة تخضع « لادارة رائدها الحكمة » .

غير ان الكثلكة الاجتماعية اخذت تتأرجح بين روح محافظة ذات نزعة نقابية مناهضة لكل تعاون يقوم بين العلمانية وبين الحركات او التيارات التي تنتسب صورياً الى « الديموقراطية المسيحية » . فاذا ما راح الحزب الكاثوليكي ينتزع بنجاح من الحركة الاشتراكية جانبا من العمال الناخبين في بلجيكا وفي المانيا ، فالمسيحيون الاجتماعيون في النمسا راحوا يتخذون من محاربة السامية ذريعة لهم ، ومناهضة السامية التي تميزت بها بعض الاوساط الكاثوليكية في فرنسا هي التي تهدد بالخطر ، الفوز الذي يبسم للحركة الديموقراطية المسيحية خلال قضية

درايفوس . الا ان الاب لومير اصطدم ، على غرار البير دي مون من قبل ، بالقضية العلمانية المحافظة وبعصبة ارباب العمل التي لا يهمها كثيراً ان ترتبط بروابط قانونية .

ولذا راحت البراءة البابوية التي صدرت عام ١٩٠١ ، توصي بالفصل بين العمل السياسي والنشاط الاجتماعي . ومنذ ارتقائه السدة البابوية ، راح البابا بيوس العاشر يدعو العمل الشعبي الكاثوليكي للامتثال لتوجيهات السلطة الكنسية ، بعد ان وافق على موقف الاساقفة الاجتماعية في فرنسا . وعندما راح مارك سانييه وألسون يعلنان عالياً موافقتهما على الغاء الاجر الرسمي وسيادة الشعب، راح الكرسي الرسولي يشجب « هذه النزعات المقلقة » حتى هذه الاتفاقات والمواثيق المعقودة بين عدة طوائف في قلب الاتحاد العمالي في المانيا، فقد نصحت بالتخلي عنها. اما في ما يتعلق بالانتائية الانطوائية فعلى البراءة *Rerum Novarum* ان تذكر بالقواعد والمبادىء التقوية : « كالفقر ليس حطة او اهانة ؛ وعلى الانسان ان يتسلح بالصبر لما هو عليه من وضع » .

الضرائبية الديموقراطية وتطور التشريعات العمالية

في اعتراف الليبرالية بضرورة المصالح العامة الدائمة اعتراف ضمني بحقوق الدولة باستيفاء ضريبة من افراد الشعب ، وفقاً لامكانيات الفرد وطاقته على الدفع . الا انه ظهر للكثيرين ان الضريبة المستوفاة يمكن ان تصبح بدورها ادادة لتوزيع هذا الريع . وهذا التطور في مفهوم الضرائبية تم في الوقت الذي كانت فيه النفقات العامة ترتفع بسرعة في الدولة...وبالرغم من شجب الاشتراكيين للضرائب غير المباشرة باعتبارها اعتصاراً بغيضاً للأجور والدخل الصغير فقد استمرت تبهظ بثقلها الجماهير التي رزحت تحتها . ومن العسير جدا ان لايطلب من اصحاب الثروات القيام بمجهود اضافي في هذا المجال . من هنا اللجوء الى الضريبة على الدخل التي تأتي تصاعدية نوعاً ما والتي قبلت العمل بها بعض المقاطعات السويسرانية ، مع ضريبة إضافية تم فرضها في الوقت ذاته على رأس المال ، في كل من بروسيا وساكس، على غرار بريطانيا العظمى التي سارت في تجارتها على سياسة حرية التبادل التجاري . وقد اعترض معارضون على هذه الضريبة ونعتوها بانها تفتيشية ، اذ انها تفرض التثبت من صحة الريع المعلن عنه ، وهي ضريبة عادلة ، على عكس ذلك ، لانها تصاعدية ، يجيب انصارها ومعظمهم اشتراكيون او من محبذي الاشتراكية . وهكذا تم في انكلترا نوع من التحالف اطرافه الاحرار والعمال لاقرار ضريبة عام ١٩١١ تعرف بضريبة الدخل ، وفرض رسم معين على التركات ذي طابع تصاعدي وهي ضريبة تقع بكاملها على ارستوقراطية اصحاب الاملاك، ولهذا راح لويد جورج يصرح قائلاً : « دوق واحد يكلف ما يكلفه صنع دارعتين » . ومن المستحب الاستشهاد هنا بمثل اوستراليا التي « آثرت ان يكون لها مجلس شيوخ اعضاؤه من الكنغورو على ان يكون لها مجلس لوردات». فقانون البرلمان انقص من سلطة هذا المجلس ومهد الطريق امام تشريع اكثر تشبعاً بالروح الاشتراكية. اما في فرنسا، فالمعركة استمرت ١٢٤ سنة ؛ فمشروع القانون الذي قدمه كايو للمجلس

٣٣ – اول استعراض للعمال الاميركيين بمناسبة عيد العمل في نيويورك (١٨٨٢) .

٣٤ – سوق لبيع العبيد في مدينة الجزائر .

٣٥ – دخول النقيب (بنجر) الى (كونغ) (افريقيا الغربية الفرنسية) .

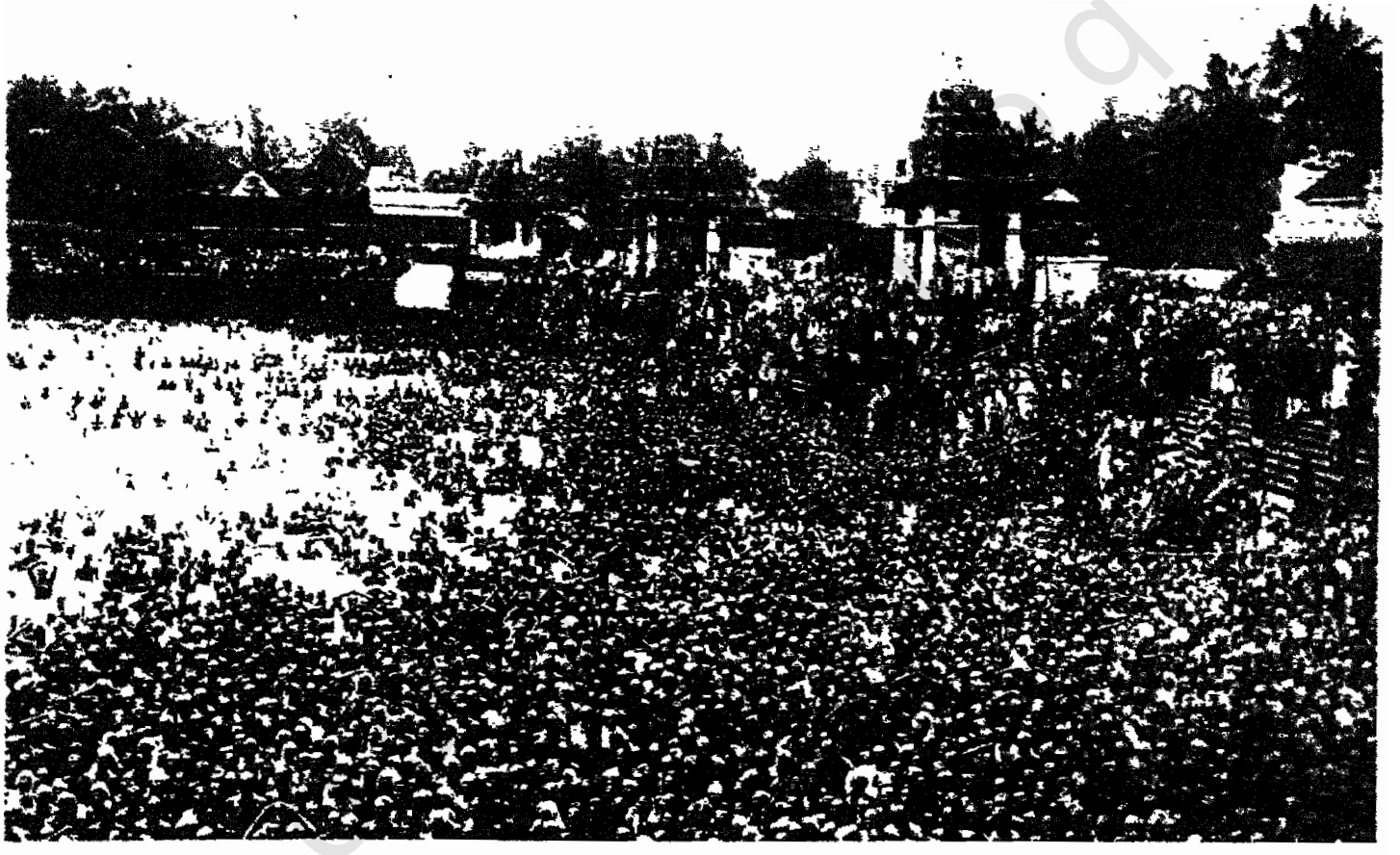

٣٦ – حمامات الفانج المقدسة

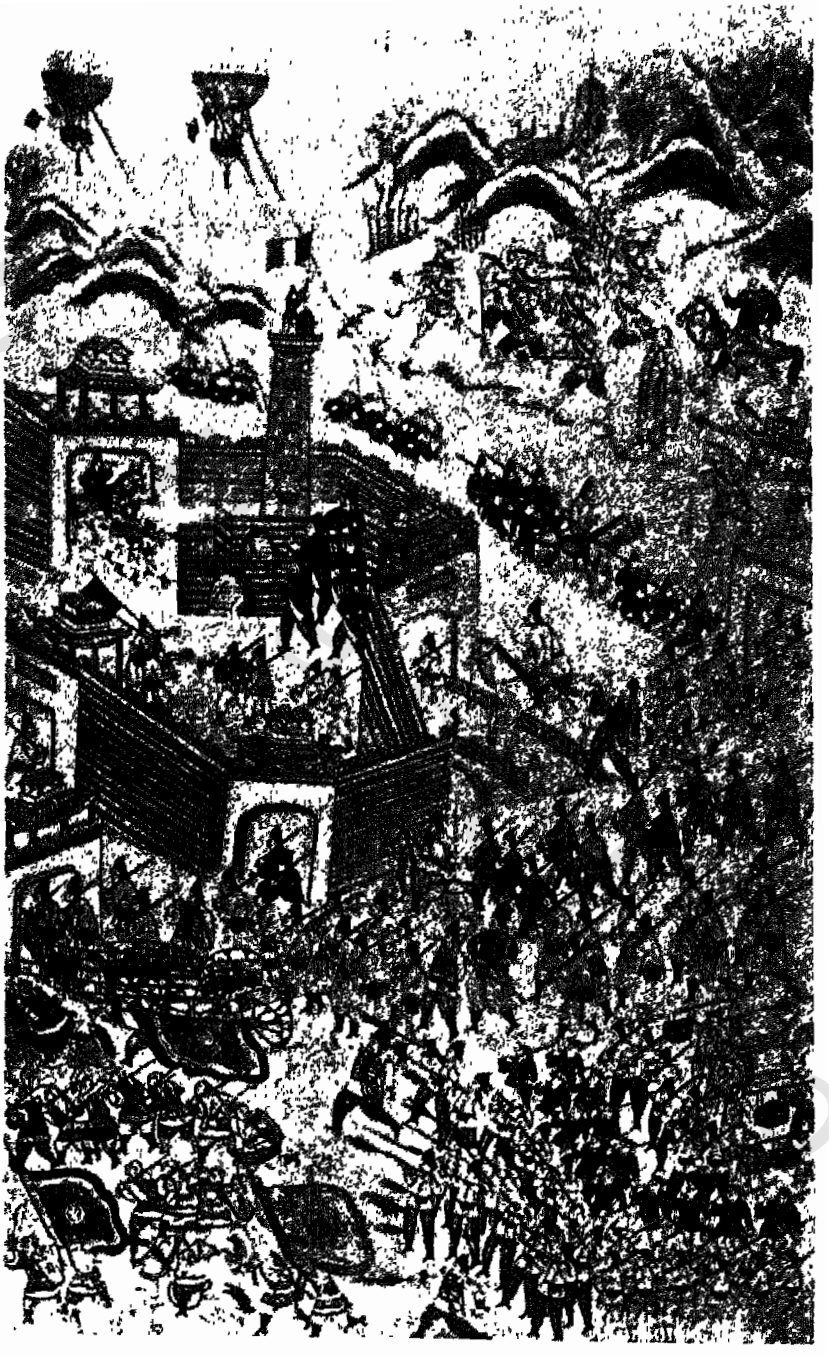

٣٧ – دخول الجيوش الفرنسية الى قلعة (هونغ ـ هوا) ، في ١٣ نيسان ١٨٨٤ .

٣٨ – مسرح في اليابان ، في اوائل القرن التاسع عشر .

٣٩ – مصائب الحرب : النزوح عن (سان ـ كلود) (تشرين الاول ١٨٧٠) .

٤٠ – الاقتراع العام : قلم اقتراع في انتخابات ٧ كانون الثاني ١٨٧٢ .

٤١ – الافستين .

٤٢ – اخراج الفرش من بيت الرهن .

٤٣ – كليمنصو يلقي كلمة في اجتماع عام في ميدان (فرنندو) (١٨٨٥) .

٤٤ – عظمة البورجوازي وانحطاطه .

٤٥ – انطلاقة السيارات المتسابقة (باريس – برلين ، ٢٧ حزيران ١٩٠١) .

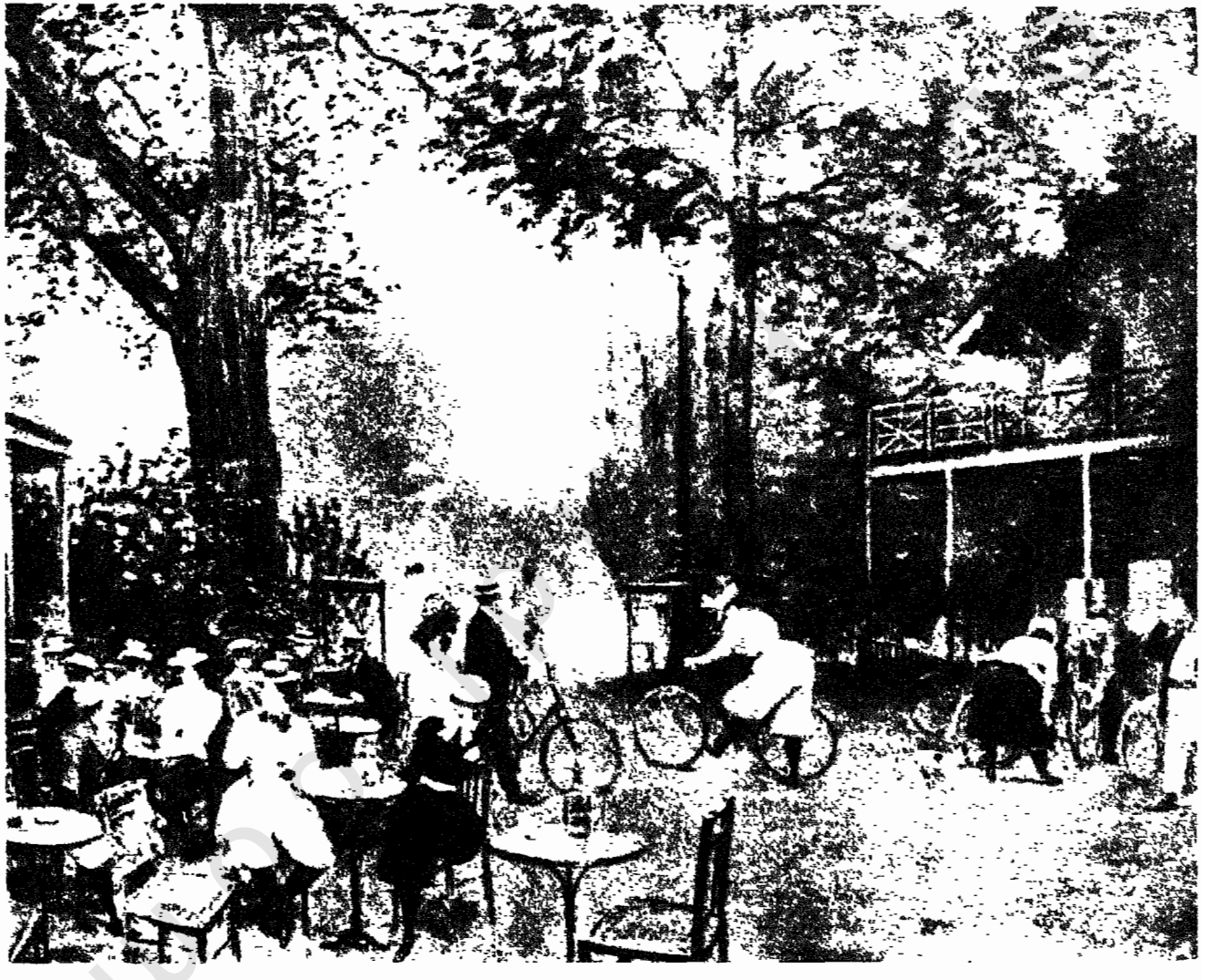

٤٦ – متنزه الدراجة فى غابة بولونيا .

٤٧ – حفلة راقصة في (طاحونة الطلة) .

٤٨ – النزهة الباريسية .

بشان الضريبة ، على الدخل ، وهو قانون صادف معارضة قوية في البرلمان ، ما كاد يمر في مجلس النواب حتى قام مجلس الشيوخ بدفنه الى عام ١٩١٤ . اما في الولايات المتحدة الاميركية وفي انكلترا في عهد بيل وكوبدن فالتخفيف من الرسوم الجمركية ، عـــام ١٩١٣ ، قابله فـرض ضريبة الدخل .

اما في نطاق سياسة الاقتصاد التفضيلي حيث لا نلاحظ اي تاثير للحركة الاشتراكية ، فقد تطورت التشريعات ضد الاتحادات الاحتكارية *Trust* في الولايات المتحدة الاميركية التي بعد ان رأت خطراً يطل من « التباين » التصاعدي فقد امر الحزب الجمهوري الحـاكم حل شركة ستاندره أويل والشركة الاميركية للتبغ اللتين اعادتا تنظيمهما بشكل آخر . ولما عـاد الحزب الديموقراطي الى الحكم من جديد عام ١٩١٢ ، عمد الديموقراطيون الى تشديد الاحكام المنصوص عنها في قانون شرمان الصادر عام ١٨٩٠ الذي جاء الاختبار يبرهن عن قلة جدواه واخذ الناس يتشككون في صلاحه .

ففي الوقت الذي لم تكن انطلقت فيه بعد في اوروبا ، حركة مناهضة الاتفاقات الصناعية ، راح عدد من الدول يحاول شراء شبكة الخطوط الحديدية في ارضها كلها او جزءاً منها ، وانتشرت من كلا جانبي المحيط الاطلسي عملية تأميم البلديات *Municipalisation* لمصالح المياه والغاز والنقل وجعلها خاضعة للبلدية إدارياً . ففي مدينة برمنغهام ، قام جوزف شمبرلين المعروف اذ ذاك بنزعته الراديكالية يوصي بفرض الضريبة التصاعدية ، وفرض ضريبة على الدخل ، وهي ضرائب تتيح جبايتها للبلدية تعمير مساكن شعبية .

وراح الاشتراكيون ينظرون ، تارة شزراً وطور نظرة رضى وارتياح ، الى هـذا التطور الذي حققه التشريع الاجتماعي الذي هدف الى تلافي المساوىء الفاضحة التي رافقت ، في الماضي ، النظام الرأسمالي ، بقصد تحسين العلائق والروابط بين العمال وارباب العمل . الا ان تدخـــل القانون وتحكمه لم يقم على نظريات منهجية . فقد تباينت نصوص التشريعات الصادرة وتضاربت بين بلد وآخر باختلاف طبيعة التركيب الاجتماعي والمزاج الوطني في البلاد ، مع العلم ان التشريع في الولايات المتحدة الاميركية هو من اختصاص الولاية اكثر منه الحكومة الاتحادية .

والروح الفردية في فرنسا رأت نفسها ملزمة بمقاومة عنيفة ، هذا الالتزام الذي كان وقعه اخف في المانيا وبعض البلدان الانكلوسكسونية منه في فرنسا . فبلدان استراليا التي مثلت هنا دوراً رائداً وجاءت ابداً في الطليعة ذهبت الى حـــد ضمان حد ادنى للاجر ، بينما انكلترا حيث اقر القانون المعروف بـ *Trade Board Act* المبدأ الذي اقترح الاخوة *Ebb* تعيين « حد ادنى رطني » ، اقصرت تطبيقه على عمال المناجم لا غير . وتنظيم يوم العمل الذي قوبل بالاحترام على درجات مختلفة ، اخذ في الانتشار والتوضيح ، وان قصّر عن تحقيق مطالب العمال كلها : فاذا ما تبنت استراليا قاعدة العمل ثمان ساعات في اليوم ، منذ عـام ١٨٩٠ — ١٨٩٣ فهذا

الاقتراح لا يطبق في انكلترا الا على العمل في المناجم ، وفي الولايات المتحدت الاميركية ، على عمال الخطوط الحديدية . اما تعطيل يوم الاحـــد ، فعادة دينية وصلتنا عبر الاجيال ، لم تشأ الروح الليبرالية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، الاعتراف بها كواجب او عادة ملزمة . ومع انه لم يعد من يرتاب او يشكك بشرعية الحركة النقابية في البلدان الصناعية – باستثناء اليابان نرى بين ارباب العمل فريقاً يشمئز كثيراً من رسوخ هـــذا الامر ويرفض التسليم للمنظمات العمالية حـق التكلم في المفاوضات باسم اصحاب الاجـــور . ولذا حرصت حكومات البلاد البورجوازية دوماً على قبول العمل بهذه الطريقة او باخرى ، في مفاوضات التحكيم ، فهي تقترح بعض القواعد التي لا بد من الاخذ بها في عقود العمل وضمـان الاجر وتأمين الامـور الصحية ، وراحت الدول الاوروبية ، على غرار المـانيا ، تدرج في تشريعها العمالي نصوصاً معينة تؤكد الضمان في حوادث العمل الطارئة . ونظمت كل من انكلترا والنرويج وبلجيكا الضمان ضـد البطالة ، بينما اقصرت فرنسا مساعدتهـا على التبرع ببعض المـال لصندوق النقابة . وسار البريطانيون بعد الالمان بزمان ، في طريق إقرار الضمان الالزامي ، عندما سنوا ، عام ١٩١١ ، قانون الضمان الوطني . الا ان تلك التدابير الجزئية التي اقرها البرلمان الفرنسي لم تـؤد قط الى تشريع عام خاص بالمرض وبالشيخوخة قبل الحرب العالمية الاولى .

فمنذ انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٩٠ ، بُذلت جهود كبير في سبيل وضع تشريع عام خـاص بالعمل . فالاهداف الاقتصادية كانت تسبق دوماً الاهداف الانسانية وتتقدمها . فقد رأى احد اعضاء مجلس بال المعروف بنشاطه الجم هو السويسري فراي في تخفيض معدل ساعات العمل ، علاجاً ضد اغراق الانتاج ، وقد اقر مؤتمر برن المعقود ، عـام ١٩٠٥ ، مبدأ تحـريم الفسفور الابيض في صناعة عيدان الثقاب او الكبريت الا ان السويد أبت ان توقـع الاتفاق اذا تمنعت اليابان التي لم تحضر المؤتمر عن قبول مقرراته وتوقيعها . وتحريم العمل ليلا للاولاد والنساء اقتضى الوصول الى إقراره الكثير من الجدل والنقاش ، خلال هذه المؤتمرات التي تناولت بحث هـــذا الموضوع حتى عام ١٩١٤ . وقد وقعت بعض اتفاقات ثنائية ، مثلا بين فرنسا وبلجيكا ، وبـين ايطاليا والمانيا نصت على حماية العمال بين البلدان التي ترسل او تقبل اليد العاملة التي يمكن لهـــا استخدامها .

الاضطرابات الاجتماعية والهجوم الكبير التي هيأت اسبابه النقابية في كل من اوروبا واميركا

ازدادت اضطرابات العمل ومصادمات العمال حدة بين السنوات ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، وبرزت الحركة العمالية اكثر رهبة من الدولية الاشتراكية الثانية ، في هذا النشاط الذي جـاشت به ، ممثلا بهذه الاضرابات الواسعة العنيفة التي قامت بها وبهذه الاحتفالات الواسعة بعيد اول ايار ، تضخم الروح النقابية واستشراؤها .

فقد بدأ الاضراب والاعتصاب في اعين العمال خير الاساليب واسرعها للحصول على مطالبهم

والفوز بتحقيقها . فقد قام العمال في فرنسا وحدها عام ١٩٠٩ بأكثر من ١٠٢٥ إضرابـــاً ، ونظموا في المانيا ١٥٣٧ اعتصاباً ، وفي انكلترا ٧٣٥ ، اشترك فيها اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ عامل وجرت اضطرابات في مناجم الولايات المتحدة عـام ١٩٠٠ ، و ١٩٠٢ ، و ١٩٠٣ ، ١٩١٢ ، و ١٩١٤ ، كما اخذ عمال مصانع الحديد يتحركون في هرج ومرج عام ١٩٠١ و ١٩٠٩ ، وعمال الخطوط الحديدية ، عام ١٩٠٤ و١٩١١ ، وعمال النسيج وصنع الالبسة عام ١٩١٠ ، و ١٩١٢ ، و١٩١٣ . اما ايطاليا فقد وقعت فيها ١٢٥٠ حركة اضراب بـــين ١٨٧٠ — ١٨٩٠ ، وحدث فيها ١٧٠٠ حركة اضراب بين ١٨٩٠ — ١٩٠٠ و ١٤٠٠ ، في سـنة ١٩٠١ وحدهـــا ؛ وهي انتفاضات وهيجانات رأى فيها جورج صاند « ملحمة »

لنتصفح مذكرات نقابية مجاهدة هي الاما جونز التي ساهمت بنشاط في هذه المعارك العمالية التي وقعت في اميركا . فالوصف الذي تركته لنا عن هذه الاضطرابات شيء مزعج مقلق . ففي كولورادو ، عام ١٩٠٣ ، اعلن الاضراب في التاسع من تشرين الثاني ١٩٠٣ ، مطالبة بثمان ساعات عمل في اليوم ، ولتعيين مدقق اوزان من قبل العمال وللمطالبة بعملة فضية ونقد عيني بدلاً من بونات ... فلم يستخرج من المنجم اي قطعة فحم . فالبرد قارص في تشرين الثاني في الكولورادو واخذ الناس يشعرون بوطأة الاضراب ... اخيراً وجه انذار للعمال ... فالمعارك الحامية العنيفة وقعت حول *Creeple Grack* ، وتم طرد العمال من منازلهم التي كانت ملكـــاً للشركة ، فالتجأوا الى الجبال الموحشة بعـــد ان نصبوا خيامهم وسط زمهرير الشتاء الذي سقطت درجة الحرارة فيه الى ٤٥ درجة تحت الصفر . ولفوا أرجلهم بالثياب الرثة اتقاء لقرص الزمهرير ، وضمرت وجوههم بعد ان عضهم الجوع كالذئاب في الغابات . ، فاضطرهم الجوع وحده لاستئناف العمل في المصانع .

وفي اوروبا اتصفت الاضرابات في المناجم بكثرتها وشدتها . ومما يلفت النظر تطور التضامن الصناعي ، اذ تضامن عمـــال الروهر عام ١٩١٢ ، مع عمال الفحم في انكلترا ، ممـــا افضى الى زيادة محسوسة في الاجور وتحسين اوضاع العمل لدى هذه الطبقة المحرومة .

فاذا ما اكثر العمال الباثسون في روسيـــا من إظهار تململهم من الوضع الذي يرسفون فيه ، فالعمال العامـــلون في المناجم والموانيء البحرية في كل من المكسيك والارجنتين والشيلي ، اخـذوا ، هم ايضاً يتململون بشيء من الحدة في التسعينيات ووقعت بعض حوادث العنف في اليابان . فأضراب عمال مناجم الفحم ، عام ١٩٠٠ صادف نصف نجـاح . وفي عـام ١٩٠٧ ، ظهرت لاول مرة المقاومة ضد شركات الفحم في افريقيـــا الجنوبية ، حيث تميزت السنوات ١٩١٣ و ١٩١٤ بالحوادث العنيفة التي وقعت فيها .

والجديد في الامر هو دخول موظفي المصالح العامة الحلبة : ليس فقط عمـــال الفحم وبحارة الاسطول التجاري ، بل ايضاً عمال المناجم وعمال الشحن في المرافىء ، وعمال البناء .

والاضرابات في الريف ارتدت هي الاخرى ، بعض الاهمية . فقد هزت القلاقـــل والاضطرابات روسيا واميركا الجنوبية وعلى الاخص اقطـار جنوبي اوروبا التي نزح عنها اهلها بعد ان وقعوا فريسة الازمة التي حلت بزراعة الكرمة . وقامت بالفعل فتن عديدة في الارياف الايطالية كما تكاثرت حركة الاضراب بين فئة *Braccianti*. في كل مكان من البرتغـال الى غاليسيا، اخذ القلق يساور الفلاحين ويدفعهم الى حركة انتقال واسعة تحملهم الى مجاهل اميركا . وهنالك قطر آخر مشهور بأستثماراته الكبيرة هو انكلترا حيث تقوم بروليتاريا من المياومين تُلحِف بالمطالبة وتتشدد بها . ويقوم في فرنسا الكرّامون بعـــدة حوادث من الاضطرابات والمظاهرات الصاخبة : فقد ضاقوا ذرعاً بتصريف الكميات الضخمة من النبيذ والنبيذ المزغول ، التي انتجوها ، كما يعلل كايو قيام هذه المظاهرات في مذكراته . « فقد اشترط رئيس الحكومة اذ ذاك (كليمنصو) ان يعود كل شيء الى الهدوء ، وقد اكثر من ارسال الجيش الى المقاطعات الثائرة ، وسالت الدماء في ناربونا » .الا ان القائمين بأعمال الحصاد في حوض باريس والفحامين وجـامعي صمغ الراتنج يرون انفسهم مدعوين للمظاهرات بدافع من البؤس الذي يتضورون منـــه .

وفكرة الاضراب العام الغاشم الذي لا يقهر ، المنتصر ، الفكرة القوة التي لا تدفع ، هـذه الفكرة التي خطرت لجورج صوريل ، سارت طريقها في الاتجـاه المرسوم ، بالرغم من الفشل الذي منيت به المحاولة الاولى التي قامت في ايطاليا ، عام ١٩٠٤ . فبعـــد ان نظر اليها الماركسيون نظرتهم الى شيء مستحيل ، إنتشرت الفكرة على الاخص ، بـــين انصار الحرية واللاسياسيين .

« فمع ندرته في الغرب ، كما يـلاحظ تروتسكي في مذكراته : « حياتي » ، فالاضراب السياسي هو الطريقة الناجعة المثلى في روسيا » . فالاضراب يجر وراءه نحو مليون رجل الى قلب الثورة ، عام ١٩٠٥ ، واكثر من مليون في النصف الاول من عام ١٩١٤ .

ومن الامور التي لها دلالتها الخاصة هنا هو وقوع الاجماع على اختيار اول ايار واتخاذ العـلم الاحمر لدى الطبقة العاملة تأييداً لمطالبها الحقة . « يوم » ورمز ذو طابع دولي . « ومـما هو ادهى من ذلك ، كما يلاحظ سان سيمون بمناسبة الاحتفال بأول ايار عام ١٨٩٠، هو هذا التفاهم الدولي بهذا الشأن من فوق الحدود ، والاتفاق على نص واحد للتعبير عن المطالب المشتركة ، وطريقة واحدة مشتركة للتعبير عن المطالب الواحدة المشتركة . نحن امام تحول عظيم للنظام الاجتماعي» . سجل عيد العمل ، والحق يقال ، فترة قصيرة الامد من البطولة : فقـــد قامت عام ١٨٩١ ، مظاهرات شعبية حماسية وفتن في مدينة كليشي واطلاق العيارات النارية في مدينة *Fourmies* بفرنسا ، واصطدامات حامية في ايطاليا وفي فـلورنسا وفي اسبانيا والمجر ، واضطرابات حامية في شيكاغو وفي البرازيـــل وحوادث في لودز وقعت عام ١٨٩٢ . هذه هي المناسبة التي راح فيها جان باتست كليمان يضع هذه الاناشيد الحربية :

لهذه الرأسمالية التي تتكلم بلهجة السيد الآمر
لنجعل هذه اليقظة اليوم رداً حاسماً قائلين
لكل انسان محله تحت الشمس
لكل انسان حقه من الراحة والرفاهية

ثم هبط الحماس وخمدت جذوته . وعند حلول العيد في تاريخه المعين كل سنة لم يعد اول ايار يلهب الخيال ويرعب الطبقات ويسمر الخوف في قلوب الاثرياء. فالمسيرة التقليدية تسير سيرها العادي المألوف وتتجاوب الارجاء صدى نشيد الدولية ، هذا النشيد الذي وضعه اوجين بوتييه ، عام ١٨٧١ ، وقد يرتفع فيه احياناً العلم الاحمر الذي رأى فيه ابناء الكومون « رمز السلام والمساواة » ، وقوى الامن تسهر على الامن وتكبح جماح المتظاهرين وتجبرهم على التزام الانضباط ولن يلبثوا ان يتمزقوا من حيث جاؤوا . وقد علق المجلس الشيخ في اليوم التالي لاول ايار عام ١٨٩٢ قائلا . « كان عيد اول ايار هنا (في لندن) جميلا جداً ، اذ انه اصبح شيئاً من هذه الاشياء العادية التي تمر كل يوم او بالاحرى كل سنة . فقد ذهب رواؤه الاول وولى رونقه » . ونشرت الجمهورية الصغرى ، في اول ايار ١٨٩٥ ، قائلة : « في الامس الغابر كانت تقوم ثورات اما اليوم فتنظم مسيرات . في الامس كان لابد من جيش يكبح هياج الجماهير وحماسها في الضاحية ، اما اليوم فبضعة انفار من قوى الامن تكفي لتشتيت بضعة الوف من المتظاهرين ». ما الفائدة لعمري من التظاهر في الشارع اذا كان لا بد من الانتهاء الى مثل هذه النهاية .

حاول زعماء الحركة النقابية مراراً ان يستغلوا عيد اول ايار . وبمناسبة الاحتفال به عام ١٨٩٦ ، وجه بلونييه نداء بأسم بورصات العمل ، وهو يرى ان على البروليتاريا ان تؤلف ، قبل كل شيء « جمعية عملاقة ، مدركة لمصالحها الحيوية عليمة بالوسائل والذرائع المحققة لها» . وراح مؤتمر العمال العام يحاول سنة ١٩٠٦ ، اثارة حماس المعركة لاجل تكريس العمل بثمان ساعات عمل في اليوم ، وذلك بالاستعداد وللاحتفال بعيد اول ايار بشكل مثير ؛ انه « لعيد فخم » بالحقيقة كما جاء على لسان ادوار فيّان ، ولكنه عيد لاغد له .

في هذه البلدان التي يشتد فيهـــا الروح النقابية والاقبال عليها بحيث ارتفع عدد الاعضاء المسجلين فيها الى ٤ ملايين، كما هو الوضع في انكلترا ، ومليونين ونصف في المانيا ، ومليونين في الولايات المتحدة الاميركية ، عام ١٩١٤ ، يستنكف العمل السياسي تبني برنامجاً اصلاحياً بصراحة .

فاتحاد العمل الاميركي الذي يرأسه غمبرز يصطدم بمقاومة عنيفة لا تلين من قبل ارباب العمل الذين يسخرون بمنظمي الاضراب والسلطة القضائية لكسر حدة الاضراب . ولذا وضع نصب عينية تحسين وضع العمال باحترام اللعبة نفسها بتحقيق المزيد من المكاسب . الا ان حركه العمال

الصناعيين في العالم تبدو اكثر اخذاً بالاصول ، عام ١٩٠٥، وفي السنة نفسها يؤسس أبتن سنكلار الجمعية الاشتراكية الجامعية التي آلت رئاستها الى رجال لندن .

وفي المانيا راحت الحركة النقابية تنشق على نفسها نتيجة النزعات المختلفة والتيارات الفكرية التي هبت عليها : مسيحية ليبرالية لـ (هرش – دونكر) ، واشتراكية وراحت الفئة الاخيرة بزعامة ليبجيان تنظم نفسها بيروقراطياً لا سيا وزعماء الحزب الاجتماعي الديموقراطي الماركسي لم يضعوا نصب أعينهم التضامن معها .

والحركة النقابية العمالية ساندت في بريطانيا العظمى كما في استراليا حزب العمال البريطاني. فقد شجعت العمل المباشر الذي اوصى باعتماده كل من فبلت وتوم مان في انكلترا ، ولاركن في إرلندا . فنظام العمل الذي إستنّه لا يختلف كثيراً عما كان متبعاً في بلجيكا والبلاد الواطية وفي النمسا حيث المنظمات الدينية الطابع تنبذ جانباً كل ما يشتم منه العنف .

اما فرنسا، فالوضع فيها على عكس ذلك، اذ ان الروح النقابية توصي بعدم الثقة بالاشتراكية السياسية : ماركسية كانت ، ام اصلاحية ، وبالقيام بعمل مستقل يتفق ومنهج اتحاد العمل العام الذي عد بين اعضائه نصف مليون عضو منتسب ، عام ١٩١٤ . وتحت توجيه رؤساء امثال بلوتيه وبوجيه وغريفويلز ومرهايم الذين ينتسبون نوعاً ما الى برودون وباكونين وجان غرايف والى المذهب الفوضوي ، اكثر من انتسابهم الى ماركس، وهو اتحاد كان يرمي « التخلص من ارباب العمل ومن اصحاب الاجور معاً . وقد ذهبت الى ابعد من ذلك ، الى التوصية بمقاطعة (*boy cottage*) رب العمل المعروف بعدائه ، والى اللجوء للتصنيف تمييزاً لهم ، او الى اعمال التخريب ، كما يدعو بجزم الى اتحاد البروليتاريا في كل العالم ، وادعى لنفسه بانه حزب العمال الحقيقي ». وبميثاق أميان الذي تم وضعه وتبنيه عام ١٩٠٥ ، راح اتحاد العمل العمام *C. G. T* يؤكد رغبته في تزعم حركة « الصراع الطبقي .. بعيداً عن كل مذهب سياسي» . وقد ظهر تأثير المطالب التحررية ، بشدة في ايطاليا وفي قلب غرفة العمل والنقابات الزراعية ، كما ظهر للخارج باولى تجربة يقوم بها ، اذ اعلن اضراب وطني عام وتشكيل منظمات مناضلة ؛ منها مثلاً : لجنة المقاومة ، والعمل المباشر ، والاتحاد النقابي . وراح لابريولا وليونيه يعملان على ترويج مؤلفات سوريل ويضمان جانباً المذهب الاصلاحي الذي تبناه اتحاد العمل العام الايطالي . وفي سنه ١٩٠٧، راح الفوضويون يعقدون مؤتمراً لهم في امستردام أقرّ اقتراحاً قدمه مالاتستا يحبذ العمل النقابي المستقل . وقد ادى ذلك الى ظهور منظمة التضامن العمال في كتالونيا التي عرفت بموقفها المعادي للدين وللحرب معاً ، ثم في عام ١٩١١ ، الى تأسيس اتحاد العمل العام الذي وقف في كل اسبانيا ، موقفاً مناهضاً لاتحاد العمال العام ، الذي تأسس سنة ١٨٨٨ ، أي في هذه السنة بالذات التي تشكل فيها الحزب العمالي الاسباني . ونلاحظ مثل هذه السيطرة عند الايديولوجيا في اميركا اللاتينية .

وكان من عمق الاختلاف والتباين بين هذه الفئات والمنظمات ما أفسد كثيراً عمل النقابية الدولية . فقد تألفت ضمن كل منظمة سكرتيرية وطنية ، منذ عام ١٨٨٩ ، وقام منها حتى عام ١٩١٤ ، ثمانية وعشرون سكرتيرية عامة ، منها ٢٤ جعلت من برلين مركزاً أساسياً لها . وبالاضافة الى هذا كله ، فقد اتخذت تدابير خاصة لاعداد اجتماعات دورية يحضرها ممثلون عن هذه النقابات المركزية . وتأسس عام ١٩١٣ ، اتحاد نقابي دولي جعل من مدينة زوريخ مركزاً له .

ومهما يكن ، فسواء تعلق الامر بالكفاح ضد الرأسمالية او بموقف دنيا العمال من الامة ، خلال الحرب ، لم يكن في وسع المنظمات العمالية ان تتجاهل ما للحركة الاشتراكية من عمل سياسي .

الدفع الاشتراكي وتركة ماركس

حققت الاشتراكية ، كالنقابية ، مكاسب جوهرية حتى في الولايات المتحدة الاميركية حيث لم يستطع مرشح الحزب ان ينال قسماً كبيراً من اصوات الهيئة الانتخابية . الا انه استطاع ان يؤمن لمرشحه ، في انتخابات الرئاسة ، عام ١٩١٢ نحواً من مليون صوت بينما عجز عن اعطائه ١٠٠،٠٠٠ صوت في انتخابات عام ١٩٠٠ . اما في اوروبا ، فقد قفز الحزب الاجتماعي الديموقراطي الالماني ، من ١،٥٠٠،٠٠٠ صوت الى ٤ ملايين ، بين ١٨٩٠ – ١٩١٢ ، وبلغ عدد اعضائه في هذا التاريخ بالذات المليون ، ونال الفرع الفرنسي للدولية العمالية ، عام ١٩١٤ ، نحواً من ١٠٣ مقاعد بقطع النظر عن الاشتراكيين المستقلين . وقد كان للفئات الاشتراكية ٧٩ مقعداً في المجلس النيابي الايطالي ، عام ١٩١٣ . ودخل حزب العمال في انكلترا الحلبة بحزم فنال ٢٩ عضواً في انتخابات ١٩٠٦ ، و ٤٠ عضواً عام ١٩٠٩ . ومقابل ضعف الحركة الاشتراكية في بلد كأسبانيا بالنسبة لعدد البروليتاريا فيها (عضو واحد في الكورتيس ، عام ١٩١٠) تقوم من جهة اخرى المكاسب السريعة التي حققتها المنظمات السياسية الاشتراكية الديموقراطية : كالحزب الاشتراكي الثوروي ، وحزب العمال والحزب الشعبي في روسيا ، وهي مكاسب كشفت عنها بسرعة ثورة عام ١٩٠٥ فقد نالت هذه الاحزاب مجتمعة ٤٠ ٪ من المقاعد في الدوما[1] الاولى . وكان لا بد من قانون الانتخاب الشديد الوطأة الذي اعلن عام ١٩٠٧ لتخفيض عدد ممثلي هذه الاحزاب في المجلس النيابي .

فمنذ الثورة الفرنسية ، عاد الى النبلاء – هم في مجموعهم من الطبقة البورجوازية – حق سن القوانين . فلم يقم حزب ما أصيل من الفلاحين . ولذا فظهور منظمات سياسية فيها تأخذ على نفسها الدفاع عن مصالح طبقة اجتماعية معينة وتفرض على اعضائها التقيد بالتزام سلوك معين في الانتخاب ، كان له دوي كبير في الخارج .

صحيح ان الاشتراكية بمساهمتها في الحياة النيابية لم تتخل قط عن الاساليب التي سارت عليها ،

(١) الدوما هو مجلس النواب في روسيا قديماً .

ولم تنبذ ما عُرفت به من اعراف وعادات . فقد استمرت بعملها في البلدان الانكلوسكسونية «دون ان يكون لها فلسفة خاصة بها. فنحن امام حركة عمالية مشبعة بالروح النقابية الاصلاحية، لها اهدافها المعينة ومؤتمراتها الاخلاقية الخاصة . « لا يمكن لنا ان نرتبط بهذه النظريات الاشتراكية المعمول بها في اوروبا، يصرح العضو العمالي الاسترالي وطسن . نحن نؤمن بالمبادىء الاساسية التي تنادي بها الاشتراكية . كل شيء يجري على مهل » . عظيم هو النفوذ الذي تلعبه الطوائف والجمعية الفابيانية لدى البريطانيين على حزب العمال . فعامل المعادن بورت، لا ينقطع عن الوعظ في الكنيسة المتودستية او انتخابه عضواً في مجلس العموم . ويحدثنا زميله كير — هاردي عن تجلي الحقيقة الكبرى التي اعلنها السيد المسيح باذلاً حياته في سبيلها ، وهي ان لا سبيل لخلاص النفس الفردية انّ لم تخلص النفس الجماعية » . فمن رسكن الى وليم موريس الى وب الى رمسي مكدونالد ، فنقد المجتمع الرأسمالي لا ينتهي قط بالدعوة للثورة والانتقاض على المستثمر . فهذا يضع نصب عينيه، في الدرجة الاولى ، مصلحة الامة الكبرى . « غايتنا الاولى محو الرأسمالية وليس ازالة طبقة اصحاب الاجور ، كما يؤكد الاخوة وب الذين يفكرون بجعل كل الناس موظفين يتناولون اجورهم من الدولة » . ان تأميم وسائل الانتاج والخدمات العامة يجب ان يفسح المجال لنظام اجتماعي عادل . ومهما يكن فوضع البروليتاريا لا يزول من العالم تدريجيا الا تحت تأثير تشريع سلمي ملائم. فكما ان حزب العمال البلجيكي الاصلاحي الصميم يكسب انصاره على حساب حزب الاحرار وينحاز مع ذلك اليه ضد الاكثرية الكاثوليكية ، يقدم حزب العمال اصواته الى حزب الاحرار برئاسة لويد جورج الذي اعاد اللوردات الى الصواب . اما في فرنسا ، فالاكثرية بين البرلمانيين الاشتراكيين في المجلس إضطرت، لاغراض انتخابية ، الى مساندة « كتلة اليسار » المعروفة بمناهضتها للروح الوطنية المشهورة بروحها الرجعية والدينية، وذلك نزولاً منها عند «نظرية اتحاد الاحزاب الاصلاحية» التي في مقدورها وحدها ، كما يؤكد هريو ، عام ١٩٠٨ ، ان تعد السبيل امام طلوع « السلام الاجتماعي » عن طريق التطوير المطرد للديموقراطية .

والامر الذي استأثر باهتمام الولايات المتحدة الاميركية ، وبريطانيا العظمى هو غزو الماركسية لاوروبا الغربية ، الوقت الذي راحت فيه الفوضوية تتحصن وراء النقابية في الغرب. أو في قلب الحزب الاشتراكي الثوري في روسيا . فقد عاش انجلس حتى عام ١٨٩٥ . « تجلى امامنا هذا الرجل كأنه نصف اله ، كما يلاحظ فندرفيلد ، هذا الرجل العظيم الذي عرف ماركس وعمل معه » . فقد كان من نشاطه ان حال دون الانتفاع ، كما يجب ، بهذه النصوص الاساسية التي وضعها المعلم ، بدلاً من هذه المقتطفات النادرة التي قدمها لنا . فالطبعة الاولى لكتابه « الرأسمال » صدر منها ١٠،٠٠٠ نسخة ، لم تكن نفذت كلها بعد صدور الكتاب بـ ٢٥ سنة . فتعاليم المعلم حملت في طياتها شيئاً غريباً ، نوعاً من ايمان جديد أخذ بالانتشار . وكما ان طلوع العصر الجديد من شأنه ان يرسم امام الناظر علامات استفهام كبيرة ، راح تلاميذه

يتساءلون قائلين : « ان ماركس كالتوراة، كان يقول ولهلم لبكنخت ، فالكل يفسره على هواه ويؤلهتأويلا مضاداً للآخر » .

وقد سبق لأنجلس ان استشعر بالخطر ، قبل وفاته اذ يقول : « نظرتنا ليست بعقيدة ، بل هي تعبير عن سير تطور ، وهذا التطور يفترض حدوث ادوار وعهود متتابعة » . وبدون ان ينكر اهمية المكاسب الديموقراطية التي تحققت فقد حذر من ان تفوض الاشتراكية في رمال الليبرالية البورجوازية . وفيما كان يؤكد ان « عصر الانقلابات المفاجئة والثورات تقوم بها اقلية واعية قد مضي وانقضى » فقد جعل من دكتاتورية البروليتاريا التي لا بد من طلوعها شراً ترثه البروليتاريا المنتصرة في صراعها من اجل تخفيف فوز الطبقات » .

ما لم نستنتج مع باريتو ان « تنبؤات ماركس والمجلس ليست بحقائق قط » ، ومع ليروى – بوليو ان الاشتراكية ليست الا خيمياء علم الاجتماع » هنالك امكانية الخروج ببرنامج عملي من هذه التعاليم المقصورة على فئة خاصة . الا انه يجب قبل كل شيء الوصول الى تفاهم حول المعنى الصحيح للحكم بالموت الذي صدر في اعقاب محاكمة الرأسمالية . فاذا كانت الفاجعة وشيكة الوقوع ، تحتم علينا ان نكون على استعداد لمواجهة هذا الحادث الرهيب . اما اذا ما تأخرت ساعتها وجب علينا ان نعرف ما هو سبيل البورجوازية لتأخير سير عقرب الساعة . فاما ان تلعب الاوتوماتية الاقتصادية دورها او انه يُولِعَ جداً في تحديد دورها (هنالك رائحة مذهب اللاحتمية في الجو) . ومهما يكن يجب فحص النصوص بدقة وتوضيحها على نور الايضاحات التي تقدمها الحوادث وفاقاً للمنهج ذاته .

ففي الوقت الذي تكشف فيه الفوضى بلسان كتاب امثال غرايف وركلو وكرمبوتكين بأنها تربط الصراع ضد استثمار رأس المال بالصراع ضد اي اضطهاد او استغلال ، فهي تشدد دوماً على الحرية الفردية ، وتختار دونما تردد ، جانب التعاون العفوي المتبادل، مع العلم انهم كثر عدد هؤلاء الاشتراكيون الذين مع انتسابهم الى الماركسية يخضعونها للنظر والنقد ، تحدث جورج سوريل، عام ١٨٩٨ ، عن ازمة الاشتراكية . وبعد ان انصرف لتحديد علم الاخلاق جعلها وفقاً لوجهة نظر برغسون ، في خدمة الاخلاقية الديناميكية ويصفق استحساناً لموقف جوريس الذي اندفع، بالرغم من نصيحة غيسد له ، وراء معركة درايفوس . وبعد انتهاء « القضية » وامام عملية « التنظيف » يشتد انزلاق سوريل في الوقت الذي يعمل الفشل الذي مني به ، على ابعاد بيغي عن الاشتراكية .

غير ان الهجوم الداوي وقع عام ١٨٩٩ وفي المانيا بالذات ، قام به الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي بالرغم من استفحال شأنه الظاهر اخذ يصطبغ بطابع البيروقراطية . وينتقد برنشتاين في كتابيه : « الاشتراكية النظرية ، والاشتراكية الديموقراطية » ، العمالية الدياليكاتيكية والمادية التاريخية ، ونظريات التمركز ونظرية تقييم العمل ، والازمات والكنتية

المستحدثة ، ويطالب بإيلاء الثقة للنزعة الحرة نحو الخير . وبعد ان رفض الاخذ بنظرية الكارثة الخيرة التي تقول بها الماركسية البلانكية التي كانت تصلح لعام ١٨٤٨ راح يدلي ببراهينه على جدوى التكتيك الانتهازي . وقد تنطح كونسكي للرد عليه وروزا الكسمبورج محتجين على هذه الاقوال بالارقام ، موضحين مغالط التفسيرات المعطاة (من ذلك مثلا ان برنشتاين خلط بين اكتناز الثروات وبين حشد وسائل الانتاج في ايد قليلة) ، مع انه اعترف ، من جهة أخرى بفائدة المعركة البرلمانية ، وهو يتوقع « صراعاً طويلا مريراً » (الاصطلاح للكسمبورج) . وبعد هذا اوصى كونسكي ، في الاقتراح الذي عرضه على مؤتمر العقود في باريس ، عام ١٩٠٣ ، « بتنظيم البروليتاريا على غرار جيش مستعد للحرب الاجتماعية » ، وينبذ بعيداً ، وفقاً لرغبة غيسد ، فكرة كل تحالف اشتراكي مع الاحزاب البورجوازية الاخرى . الا ان الوحدة لم تتم بدون جهد طويل .

وقد تصادم غيسد وجوريس في فرنسا ، بعد أن اتجه جوريس في تفكيره نحو المصالحة التأليفية : « نحن إصلاحيون وواقعيون في الصميم وفقاً لطريقتنا بقدر ما نحن ثوريون في اهدافنا » . ومن جهة « الحياة الاقتصادية هي التي كانت في صميم مدار تاريخ الانسانية ، غير ان الانسان ، هذه القوة العاقلة يتطلع بأنظاره الى ملء الحياة الفكرية ويشرئب من كل جوارحه الى مشاركة العقل القلق ، المتطلع دوماً الى الوحدة والى هذا الكون الغريب... فالشجاعة هي في طلب المثل وتفهم الواقع .. اذ ان قيادة البشر وتوجيههم يقتضي له نور الفكر ... » ، اخلاقية الرجاء والشجاعة بقدر ما هي اخلاقية العدالة اولا واخيراً .

فاتباع الديموقراطية الاجتماعية لدى الروس ، بين منشفيك وبلشفيك ينقسمون على انفسهم عام ١٩٠٣ حول السلوك الذي يتوجب عليهم اتخاذه. فالاول من هذين الحزبين يحبذ قيام حزب يضم الجماهير ، بينما يحبذ الثاني حزباً نظاميا قوامه المركزية . فالأول يقول بالتحالف مع الاصلاحيين البورجوازيين ، بينما يعتقد الحزب الآخر بفائدة التعويل على طبقة الفلاحين .

ومن جهة اخرى فقد خسر الثورويون والاصلاحيون المعركة في قلب الحزب الديموقراطي الاجتماعي الألماني ، وذلك عندما دعا مؤتمر الدولية المنعقد في امستردام عام ١٩٠٤ ، بصراحة المنظمات الاشتراكية الفرنسية الى الاتحاد وبعد ان امتثل جوريس للدعوة طلعت علينا المنظمة G. F. I. O. .

وفي هذه الغضون ، وقع حادث خطير احدث هزة عنيفة في قلب الحركة الاشتراكية كلها الا وهو نشوب الثورة في روسيا .

الثورة الروسية عام ١٩٠٥ واثرها في الحركة الاشتراكية

عام ١٨٧١ ، قامت الكومون في باريس ، وعام ١٩٠٥ وقعت ضد النظام القيصري ، ثورة الفلاحين والبحارة الروس ، فقد اسقط في يد الدولية الاولى وعجزت عن انقاذ الكومون ، بينما شاهدت الدولية الثانية ، وهي عاجزة ، المعركة الثورية تضطرم وتتأجج من بطرسبورغ الى مدينة اوديسا على البحر الاسود .

بعد ان ثُجر الشعب الروسي ، إثر ازمة اقتصادية حادة قسراً منه وعصباً عنه ، الى حرب نائية ضد اليابان ، قام هذا الشعب واعلن الثورة التي جاءت ضربة قاصمة على النظام القيصري لم ينهض منها . وقد دار في خلد نيقولا الثاني انه « للحؤول دون قيام الثورة لا بد من ضربة قصيرة رابحة » . الا أن الحرب استمرت اطول مما اراده وزادت من اوصاب الشعب وآلامه . وجاءت الهزيمة فيها وصمة عار في جبين الشعب الروسي ، كما جاءت تحقيراً له وانتقاصاً من كرامته ومنزلته . فثورة الكومون في باريس جاءت نتيجة الحماس الوطني ، وقامت في وجه حكام بورجوازيين انتقدت عالياً قصورهم الفاضح وخيانتهم . اما في روسيا فلن يكن من ينكر او يتغاضى عن مساوىء الحكم القيصري المستبد . ومع ذلك فقد راحت البروليتاريا تجر اذيال الخيبة والفشل .

تطور الاقتصاد الرأسمالي في امبراطورية القياصرة على غرار التطور الذي عرفته فرنسا خلال الامبراطورية الثانية . فبينما يستمتع الاعيان والنبلاء في غربي البلاد بتقاليدهم المتحررة ويحكمون بمساعدة طبقة من اصحاب الاملاك الفلاحين ، كان القسم الشرقي منها لا يزال بعد بحاجة ماسة لمثل ثورة ٩٨ الفرنسية ومن جهة أخرى ، فالبورجوازية الروسية لا تتوفر لها بعد قوة العدد ولا الاستقلال الاداري (يكفي ان نشير هنا الى الدور الحاسم الذي لعبته الدولة ورأس المال الاجنبي في التنمية الاقتصادية) في الوقت الذي لقي فيه حشد المشروعات الانشائية بعض التضامن وتأييد الطبقة العمالية . ولكن ما هو الدور الذي لعبه سكان الريف ، يا ترى؟ ثم لو افترضنا عجز البورجوازية وفشلها واستيلاء بروليتاريا فقيرة معدمة على مقاليد السلطة والسيطرة على دولة طابعها نصف طابع الأجيال الوسطى ، فهل في الأمر ما يُرغب فيه او يُرضى عنه من الوجهة الاشتراكية ؟

فقد دهش ماركس لأول وهلة من النجاح الباهر الذي حققته نظرياته وتعاليمه في روسيا . فقد هزئوا طويلا من هذا الشعب الذي « بقفزة مميتة مفاجئة وجد نفسه ضمن مملكة فوضوية ـ شيوعية ـ ملحدة . فالانكسارات التي توالت عليه لم تفاجىء لنين : كل حرب تشنها دولة متأخرة تلعب دوماً ، كما حدث ذلك مراراً عبر التاريخ ، دوراً كبيراً في تعجيل الثورة وتفجيرها ، بمثل هذه الافكار والتأملات واجه سقوط بورت ارثور بيد اليابانيين . الا ان موقف الاشتراكية بدا هنا في غاية الدقة : « لا نستطيع الخروج فجأة عن الحدود البورجوازية للثورة الروسية » كما لاحظ رئيس الحزب البلشفيكي ، في الوقت الذي كان يستعد فيه للرجوع الى روسيا .

فقد جاءت الحوادث تثبت بصورة لا تدع مجالا للشك ، حدة الازمة وعجز الثوار : ماركسيين كانوا او شعبيين ، عن اسقاط النظام القديم . فقد وقعت ثورة قام بها الفلاحون وحدثت فتنة على يد البروليتاريا من سكان المدن ، واسعة ، وحركات عصيان وتمرد في الجيش والاسطول . من الحوادث البارزة ، اذ ذاك ، الأحد الأحمر الدامي الراقع فيه

٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ ، في بطرسبورغ ، وتمرد الطراد الذي يحمل اسم الامير بوتمكين ، وبيان ٣٠ تشرين الاول الذي اذاعه الامبرطور نيقولا الثاني يعد فيه البلاد بتشكيل حكومة دستورية ، ومعركة الشوارع في موسكو في كانون الاول . وقد خيل لبعض الماركسيين لمدة قصيرة ان سلطة شعبية ستطلع وتتولى الحكم من بين هذه الجماهير التي انتظمت صفوفها فجأة في السوفييت. فالشاب بروتشتاين ، يقول تروتسكي ، شارك مشاركة فعالة في تشكيل مجلس السوفييت في بطرسبورج . اما لينين فقد رأى ان المحاولة مكتوب لها الفشل التام لافتقارها للتنظيم . الا انها افادت كثيراً في ضرورة وضع خطة منظمة لكل ثورة او فتنة .

وقامت القيصرية بتجربة الدوما (المجلس النيابي) لاول مرة ، هذا النظام الهجين الذي فشل في اعادة الحكم الاستبدادي الى البلاد كما عجز عن اقامة وترسيخ بورجوازية ليبرالية ، كما عجز عن تأمين نجاح عملية الاصلاح الزراعي التي حاول ستولبين القيام بها والتي رمت الى تشجيع الملكية الفردية في البلاد ، وما أدت الى تأمين الازدهار للانتاج الزراعي والصناعي الذي كان من شأنه ان حداً للاضطرابات الاجتماعية .

احدثت هذه الهزة ردة بعيدة المدى في الغرب. فاذا ما راح جوريس يتنبأ « بان تحرير الشعب الروسي سيلاقي تعبيره الكامل في قيام نظام عمل في البلاد تبرز معه البروليتاريا الروسية ، الى الطليعة بين صفوف البروليتاريا في اوروبا » ، فقد راح اناتول فرانس يصرح من ناحيته قائلا : « مهما كانت نتائج هذه المحاولة الضخمة المريعة ، فقد لعب اتباع البروليتاريا ، منذ الان دوراً حاسماً في مصائر بلدانهم ومصير العالم. فالثورة الروسية هي ثورة عالمية ». وقد رد ارثر مايز على هذا القول في جريدة الفولوا قائلا : « كل ثورة كبرى قامت في العالم زرعت حولها جراثيم ضارة مؤذية ، الا ان الثورة الروسية لها جانبها الاحمر المرعب » ، ثم زاد قائلا : « انا ضد ثورة معاكسة شاملة تستطيع وحدها تجنيبنا اسوأ الكوارث » . اما غليوم الثاني فقد اعرب للامبراطور نيقولا الثاني عن رأيه قائلا : « ها هي روسيا تطوي صفحة جديدة من سفر تاريخها .. فالوسائل التي يجدر لها التذرع بها ، والذرائع التي يحمل اعتمادها ، والاشخاص الذين يدعون لتنفيذ هذه المهمة ، كل هذا سيترك اثره المباشر على الدول الاخرى الواقعة على حدودها » . ليس من ينكر قط ان الضربة التي نزلت بالنظام الاستبدادي القيصري كان لها صداها البعيد في آسيا حيث نفوذ الغرب كان اخذ يتغلغل اليها كما تغلغلت الرأسمالية الاستعمارية الى روسيا .

وقد جاء الحادث يكرس نهائيا انقسام الماركسيين الروس . وعلى ضوء هذا الحادث ، فقد رفض لنين ان لا يرى في مجلس السوفييت سوى « جهاز اداري ليس الا على شكل ما تمناه المنشفيك . فقد اولاهم دور « اجهزة للفتنة » على طريقة تروتسكي الذي بقي مصراً على رأيه وتفكيره في ان « السوفييت يؤلف جامعة عمال الروس التي يمكن لها ان تستلم ، في المستقبل ، ادارة الجماهير الثائرة وتوجيهها » . فقد سبق لانجلس وكتب قائلا : « ان اسوأ ما يمكن ان

يصيب زعيم متطرف هو ان يرى نفسه مجبرا لاستلام الحكم عندما لا تكون حركة تاريخية معينة اتت أكلها بعد ، بحيث يؤمن السيطرة للطبقة التي يمثلها » .وقد حلا لبلاخانوف وبارتوف ودان ان يرددوا هذا التصريح مراراً . ولكن بخلاف هـؤلاء المنشفيك الذين لم يرضوا بمساهمة البروليتاريا في اقامة ديموقراطية بورجوازية ، وبعد ان اعادوا الى الاذهان الفشل الذي اصاب البابوفية الزراعية وبعد ان اتهموا بالتحول الى البلانكية ،توقع لينين، وهو اقوى يقينا واكثر ايماناً،قيام « دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية » في اعقاب ثورة بورجوازية يترتب على الديموقراطية البورجوازية دعمها قبل كل شيء . وفي مؤتمر براغ ، سنة ١٩١٢ ، حدد البلشفيك اكثر من اي وقت مضى مهمة تحقيق اطار ضيق وادارة صارمة تشرف على القوى البروليتارية ، اذ ان القضية لا تطرح على بساط البحث في اي مكان من اوروبا كما تطرح عندنا في روسيا » . وهذا الاضطراب الاجتماعي الشديد المتجدد النشاط نمّى فيه اليقين الوطيد بان ازمة فاصلة هي وشيكة الوقوع في الامبراطورية القيصرية ، فوجه من كراكوفيا ، عام ١٩١٣ – ١٩١٤ تعليماته الدقيقة بحيث تلاقي هذه الازمة لدى وقوعها ، حزباً ماركسياً مستعداً للعمل يستطيع ان يجر القوى الشعبية ويقودها بفضل ما له من قوة وما تم له من دهاء التنظيم .

وعلى عكس ذلك ،كانت الحركة الاشتراكية في اوروبا الغربية والوسطي تدفع عنها بمشقة، هجمات الايديولوجيا الوطنية ومغريات الحركة الليبرالية . وليس في سبل الشيطان راح لينين يستعرض في كتابه « المادية والنقد التجريبي » المحتوى البورجوازي لمذهب اللاحتمية العلمي والفلسفي . وجهد جوريس في فرنسا ، بما اوتي من فصاحة وبلاغة ، على تحديد المثل الاعلى للاشتراكية التي تلهج دوماً بالاخوة والعدالة . وراح جورج سوريل من ناحيته يهاجم بعنف الديموقراطية البورجوازية ويدفع بعيداً العلمية وينادي بتفسخ الماركسية وانحلالها ، ولم يعد يتوقع التحرر الا من « الشعور بما هو سام » و « بالاسطورة » وهكذا يرى نفسه الى جانب المستمسكين بالتقليد . وراح احد تلاميذه ، هو ادوارد برث يتحدث عن الفسق الديموقراطي » ولم يتوان قط عن قرع جرس الحزن معلنا انتهاء حكم « الادباء » امثال بيغي وانتهى الى الوقوف بجانبه ، عام ١٩١٤ . اما الاشتراكيون « المستقلون » فلن يتقاعسوا عن التعاون مع الجمهوريين الراديكاليين والمعتدلين . «فالبورجوازية تصفح بيسر للذين تهددوها عندما يتضح لها ان في مكنتهم الدفاع عنها وحمايتها » ، كما ألمع الى ذلك بوانكاريه في مذكراته . من الغريب جداً ، كما يلاحظ بول كمبون من ناحيته ،ان رجاءنا الوحيد منوط في الاعتماد على آباء الاشتراكية امثال بريان او ملران . فهم يدينون بوصولهم الى سدة الحكم لما اوتوا من فهم حاد وذكاء متوقد ... فلم يحبسوا انفسهم ضمن مدرسة خاصة ضيقة، ولم تجش نفوسهم بروح حزبية،فهم قابلون للتطور».

وفي قلب الديموقراطية الاجتماعية الالمانية ، كتب النصر في نهاية الشوط « للتبديلية » المحكوم عليها حسب الظواهر . فبعد ان رفض بيبل وشيدمان القول : « بأن سنة واحدة من الثورة امنت للبروليتاريا الروسية التربية او الخبرة التي عجزت ثلاثون سنة من الصراع التمشياي

تأمينه ولو بشكل مصطنع ، للبروليتاريا الالمانية » ، وحملتها على رفض الاضراب العام ذات الهدف السياسي الذي اقترح اللجوء اليه روزا لكسمبورج .

غير انه لا يمكن للاشتراكية ان تبقى خالية البال امام تطور الاقتصاد الرأسمالي . فهلفرنغ، في كتابه : الرأس المال النقدي ، وروزا لكسمبورغ في كتابه الموسوم : حشد رأس المال ، يشددان على الضرورة المترتبة على رأس المال الاحتكاري بالسيطرة على مجالات غير رأسمالية، ليحافظ بذلك على وجوده وفقاً لمبادئه. فهذه المؤلفات الموضوعة اصلا باللغة الالمانية، انزلت القلق والاضطراب في قلب الديموقراطية الاجتماعية التي راحت فريسة تفكيرها بالمنافع والمكاسب التي من شأن الامبريالية ان تؤمنها للدول الصناعية . فهل تساعد هذه الامبريالية في نهاية المطاف ، على طلوع الاشتراكية ، وذلك برفع مستوى العيش في هذه الدول التي بلغت في تطورها الصاعد الى المستوى الاعلى، او انها تعجل في انقضاض الحرب وتقرب ساعة اعلانها لسقوط النظام البورجوازي ؟

الفصل الخامس

من السلم الى الحرب الأوروبية

عدم جدوى مقاومة العالم العمالي للامبريالية وللحرب

علمت الاشتراكية « الخيالية » نفسها بحلول سلام شامل في العالم ورؤية جميع شعوب اوروبا في جسم سياسي واحد مع احتفاظ كل منها باستقلاله الوطني كما عبر عن هذا الحلم المعسول سان سيمون واوغستين تياري ، منذ عام ١٨١٤ ، او مجـــيء جمهورية الله كما تمنى ذلك قسطنطين بكور عام ١٨٤٤ .

ومنذ عام ١٨٤٨ ، راح الديموقراطيون الانسانيون امثال هوغو يرددون كلمـــة السر : الولايات المتحدة الاوروبية ، وعقدوا في هذا السبيل عدة مؤتمرات للسلام . فقد تمنى بلانكي المعروف بروحه الوطنية إلغاء الجيوش المحترفة واستبدالها بميليشيا شعبية ؛ وبرودون نفسه وضع كل آماله في النظام الفدرالي . أما موقف ماركس فقد كان مغايراً لهذا كـــله : فالحرب ، هذه الفكرة الملازمة للنظام الرأسمالي ، سترتفع من هذا العالم بارتفاع هذا النظام والغائه الا انها قد تولد مجتمعاً جديداً . واذ خشي ماركس ، خلال الدولية الاولى من ان تغدو البروليتاريا ، في الغرب وفي ألمانيا هدفاً لعدوان مسلح من قبل الحكم القيصري المستبد ، فقد نبذ جانباً فكرة نزع السلاح . الا انه عدل من موقفه بعد الفشل الذي منيت به الكومون . ولم يعـــد المجلس يتوقع ، بعـــد ذلك بطويل ، خيراً من اي حرب تقع في اوروبا « لدينا وسائل اسلم للسير قدماً » ، كما راح يؤكد عام ١٨٩٣ ، فوسيلتنا الكبرى وحيلتنا المثلى هي العمل الحازم الذي تمثله البروليتاريا ، في بروزها الذي لا يُرد .

وجاءت امثولة عام ١٩٠٥ . فالحرب في منشوريا كالحرب في جزيرة القرم انزلت الوهن في النظام القيصري . وفي مؤتمر امستردام ، عام ١٩٠٤ ، راح بلاخانوف يعانق المندوبين اليابانيين قائلا : « لو قيض للقيصر وربح الحرب على اليابان ، لبات الشعب الروسي هو الخاسر الاكبر

والمغلوب على امره » . وقد وجد هذا القول صداه في كلمة القاها ستولبين : « الحروب وحدها تضمن فوز الثورة ، فبدون حرب تبقى الثورة عاجزة » . فالدرس يدعو الثوريين امثال لينين للتفكير جدياً في الامر .

وقد رفضت الاشتراكية في الغرب التسليم بالقول ان الحرب هي سبيل الخلاص . فقد « دلل جوريس على بطلان هذه النظرية ، الثورية ».. « لا نريد ان نعرض ايماننا الوطيد بتحرر البروليتاريا المتصاعد للقدر الغاشم الطالع من حبات النرد الدامية » .

ولكن أليست الامبريالية ، من هذه الذرائع المثلى الكفيلة بتخفيف ضغط الطبقة العاملة على ارباب العمل ؟ فقد ذكر جيوليتي في «مذكراته» «عام ١٨٩٣» « ان الرأي العام في ايطاليا ذهل لهذه الفضائح المصرفية وان الطبقات الحاكمة كانت جد وجلة من جراء هذه الاضطرابات الاشتراكية الطالعة ، وسنحت فرصة استعمارية مثلى لصرف الانظار وتحويلها عن الوضع المتأزم » . ولذا راح سيسل رودس يكتب عام ١٨٩٥ بفظاظة قائلاً : « أليست الامبراطورية هي قضية بطن ، كما كنت دائماً اردد ؟ فاذا ما رغبتم في تجنب الحرب الاهلية ، عليكم ان تنصرفوا للاستعمار » . وهكذا ندرك تماماً كيف ان برنشتين ، رغبة منه في التوفيق بين الامبريالية والماركسية ، يبرر نزعات الرايخ الى المستعمرات . ثم ألم يلاحظ انجلس ، منذ عام ١٨٥٥ ، ان العمال الانكليز كانوا جد مرتاحين لعملية توسع وانبساط عادت عليهم بتحسين مستوى العيش عندهم ؟

يبقى بعد هذا ان بقدر ما تعمل الامبريالية على ديمومة النظام الرأسمالي وتأمين استمراره ، بقدر ذلك تحرص الاشتراكية على اصلاحها حرباً عواناً لا هوادة فيها . اما السباق الى التسلح ، فلا مبرر له على الاطلاق عندها ، اذ ان النفقات الباهظة التي يتطلبها التسلح يقع عبؤها على الجماهير .

ففي فرنسا وايطاليا واسبانيا حيث النقابات تتحسس عميقاً كلمة السر وتأتم بها ، حرص الفوضويون من ناحيتهم على بث فكرتهم بوجوب القضاء على الجيش باعتباره اداة الفتح وعدة الحرب ، كما يجب ، في نظرهم كذلك القضاء على الكنيسة والدولة وارباب العمل . فالدسائس يحبكون خيوطها تتخذ ذريعة لسن القوانين « الجرمة » من قبل المجالس الفرنسية . فبعد قضية دريفوس راح جانب كبير من الرأي العام في فرنسا يتقزز من موقف اركان الحرب في البلاد واقلقته القلاقل الوطنية ، يتجه نحو مجافاة الروح العسكرية ومناهضتها ونحو الدعوة للسلام . واخذ فاكيه يعبر عن تذمره ، عام ١٩٠٤ ، قائلا : « يقتضي المعلم شجاعة كبيرة ليعبر عن ولائه لفرنسا » .

والاضراب العام الذي اقترح باكونين الدعوة اليه ، احتجاجاً على الحرب ، عام ١٨٦٨ ، امام الدولية الاولى ، بقي من هذه المستحبات والاماني الاثيرة لدى النقابية الثورية . « فالديماغوجيا الهرفستية » التي يمجها بيغي تتبنى هذا الاقتراح وتعرضه على الحزب الاشتراكي

الموحد . « نحن لسنا بوطنيين » يصرح هرفيه ، ولا يمكن لنا قط ان نكون وطنيين ، طالما نحن اشتراكيون ». وجوهو ، السكرتير العام لاتحاد العمل العام ، يصرح في ٢٩ تموز ١٩١٤ قائلا : « الاضراب العام ... واجب يترتب على جميع العمال دونما تمييز ». وعند وقوع حوادث المغرب ، عام ١٩٠٩ اعلن عمال المرافىء في برشلونة الاضراب وحالوا بذلك دون ركوب وحدات الجيش البحر . وعلى أثر ذلك ، اطلقت النار على المجاهد الحر فرنسيسكو فرار ، احد رواد المدرسة الحديثة .

غير ان الماركسيين لم يمتثلوا . فالروح العسكرية ، في نظر غيسد ، ليست سوى نتيجة الرأسمالية : فليس من مبرر ، والحالة هذه لمحاربتها ومناهضتها منفردة . واحسن من ذلك « هو ان الدول تمثل شيئا كبيراً في تطوير البشرية وتطورها . فهي تؤلف مرحلة من هذه المراحل التي يترتب على الاسرة البشرية ان تقطعها ، والدور الذي تلعبه هذه الدول الآن لن ينتهي امره غداً . وقد زاد جوريس على ذلك واخذ يوصي بتأليف « جيش جديد » يكون بشحمه ولحمه ديموقراطياً ، شعبياً ، « قادراً على الدفاع عن الوطن ويكون اعجز من ان يلحق أي أذى أو ان يقوم بأي عدوان ضد الجمهورية » . فهو لا ينبذ من حب الوطن الا ما يغله من بغض وحقد . ولم يتردد بيبل قط عن الافصاح عن عزمه وعن استعداده لتناول بندقيته للدفاع عن المانيا اذا ما هوجمت .

ومهما يكن من الامر فان قادة الاشتراكية الفرنسية يخشون كثيراً من هذا الالتباس المفجع الذي يغشى موقف الدولية العمالية . لا شك ان « عقبة اللغة » جعل من العسير تبادل وجهات النظر الضيقة والمباشرة بين رؤساء الفئات الوطنية المختلفة . ففي رأي فندرفولد ، هذا العائق لم يكن موجوداً ، في الدولية الاولى و« اركان حربها » الذين تألف سوادهم الاكبر من نازحين ومبعدين . وكثيراً ما ردد المجلس هذا الامر وتمته بأكثر من ١٧ لغة ولسان . وكان ماركس يكتب براحة دونما فرق لديه ، الفرنسية والانكليزية والالمانية . . . اما في الدولية الثانية ، فالامر على عكس ذلك تماماً . فتعدد اللغات والالسن ، باستثناء بعض الشواذات النادرة — هو من نصيب الاعضاء اليهود ، امثال تروتسكي وادلر وبلاخانوف . . » ولذا لم يكونوا يتفاهمون دوماً .

والى هذا ، فلم يتخل ممثلو الاشتراكية الالمانية عن مشاعرهم المعادية للروس . ألم يُسر المجلس في اذن احد مراسليه ، في اثر توقيع الاتفاق الفرنسي الروسي قائلا : « اذا ما اعلن الروس الحرب علينا ، تحتم على الاشتراكيين الالمان مهاجمة الروس والفرنسيين وحلفاءهم ، ايا كانوا ، بعنف شديد » واذ كان الالمان يخشون كثيراً الامبراطورية القائمة شرقيهم ، ابى افراد امثال ادلر وبوير وريتر ان يتصوروا احتلال او امكان انحلال الامبراطورية النمساوية المجرية . ومن ثم فالتعديلية وفقاً لنظرية برنشتاين كانت تركت اثرها عميقاً في الديموقراطية الاجتماعية التي كان انصارها ومؤيدوها بمثابة عرفاء حسني التدريب في خدمة القيصر ، بينما جعل بيغي من جوريس « داعية للجامعة الجرمانية وعميلا للحزب الالماني ».

ففي ظروف كهذه ، ليس من عجب قط ان تكون احتجاجات الدولية واعتراضاتها على التسلح مجرد مطالب افلاطونية . فقد اسقط مؤتمر شتوتغارت ، عام ١٩٠٧ ، اقتراحاً باعلان الاضراب العام في حالة نشوب حرب مع تحريض العمال على القيام بأعمال التخريب بأي طريقة أو وسيلة يرونها ناجحة والتي تختلف باختلاف ضراوة كفاح الطبقات والوضع السياسي العام » . وقد لوّحوا في مدينة بال عام ١٩١٢ ليس « بصورة هذا التعاون العظيم بين العمال في جميع ارجاء العالم فحسب ، بل ايضاً بالخوف المستحوذ على الطبقات الموجهة ، من جراء قيام ثورة بروليتارية تعقب حرباً عالمية ». كل شيء ثم قبوله والتسليم به منذ ان غير جوريس رأيه قائلا: « اذا لم ينص الاقتراح عن طريقة معينة للعمل ، فهو لم يستثن أية طريقة على الاطلاق . وهكذا تعاقبت الاجتماعات وتوالت الخطب والاقتراحات . والصحيح هو ان المسؤولين عن الحركة الاشتراكية تركوا الامر مربوطاً بالقرار المتخذ . ولدى اجتماع مكتب الدولية الاشتراكية في بروكسل في ٢٩ / ٣٠ تموز ١٩١٤ وقع الحاضرون نص محضر عدم وجود. فالحزب الديموقراطي الاجتماعي ، اذ اعتبر روسيا المسؤولة الاولى عن الحرب ، صادق على الاعتمادات المرصدة للدفاع عن الحضارة وعن الاستقلال « الالماني » ، وقد رأى روزا لكسمورج في هذا القرار « انهياراً لا مثيل له في التاريخ على مدى الاجيال » .

وعندما غادر جوريس بيت الشعب في بروكسل ، أسر في اذن فندرفلدت قائلاً : « ما اشبه القضية بقضيه اغادير . سنشهد ارتفاعاً وهبوطاً ولكن الامر سينتهي بنسوية في نهاية المطاف. امامي ساعتان قبل ركوب القطار لنذهب للمتحف لنشاهد اسلافك الفلامان البدائيين».

«شعرت البروليتاريا ان مصير الانسانية ومستقبلها متوقف عليها في هذه الساعة الحاسمة...» كما راح يؤكد المؤتمرون المجتمعون في مدينة بال . ولم يُخف جوريس قط انه يضع امله الوحيد في « قطاع المصالح الاقتصادية والمالية » التي تلزم الشعوب بمراعاة مصالح بعضها البعض ، وفي تجنيب الكوارث التي تجرها الحرب معها». ومن جهته راح هآز احد اعضاء الحزب الديموقراطي الاجتماعي الالماني يصرح ، عام ١٩١٢ ، بالاتفاق مع برنشتاين وكوتسكي ، امام المؤتمر المنعقد في شمنتز ، بأن الفئات الرأسمالية ، في شتى البلدان المترابطة والمتعاقدة دولياً فيما بينها ، ترى من الافيد والاصلح لها ان تتقاسم الاسواق العالمية بدلا من ان تنهك نفسها في عراك دام لا يعرف احد ما ستكون نتائجه ، يهدد بالخطر كل المكاسب» وسيفضي التفكير بكاوتسكي الى وضع هذه النظرية التي يصفها لينين بأنها بلغت « منتهى الحماقة » ، وهي النظرية التي بموجبها ستتعاون الامبرياليات تعاوناً دولياً بحيث تتفادى الحرب .

وبانتظار ذلك ، وبسخرية من القدر العابث تعتمد الاشتراكية الانسانية النزعة على الرأسمالية في مهمة انقاذ السلام بانقاذ نفسها.

اولى « مؤتمرات السلام » . فشل التحكيم الدولي والدعوة الى نزع السلاح

والرأسمالية لا ترغب في الحرب ، الا ان الفوضى التي تثيرها تحول دون تفاديها » ، هذا ما كان يصرح به جوريس . ليس من شك قط ان بعض ارباب الاعمال لم تشعر بدنو الحرب كما لم تكن لترغب فيها ، بينما قامت بعض الاوساط الاخرى ، من حيث تدري او لا تدري بنشاط لا يخلو قط من خطر . يصف لنا اناتول فرانس « القوى المالية » ، قوى هدامة للروح الوطنية والقومية » ثم يكشف لنا ، من ناحية اخرى كيف ان كبار رجال الصناعة ينشطون لصنع المدافع وبناء البوارج الحربية غيرة منهم على الدفاع عن الوطن واستدراجاً للطلبات . ويطمئن كمبون ، عام ١٩٠٠ الى ان الامبراطور غليوم الثاني ليس سوى واحد من رجال الصناعة يسعى لاستثمار معمله واستغلاله » . كذلك هو يضمن ما لليهود من نفوذ عظيم ... بيدهم السلم والحرب . فلا مجال للدهشة هنا ولا للاحتجاج . هذا هو الواقع القائم ، علينا ان نأخذه بعين الاعتبار . وبالفعل ، نرى مديراً يهودياً لاحد مصارف فرصوفيا هو جان دي بلوخ يشترك الى جانب الاقتصادي البريطاني فريدريك باستي من انصار سياسة حرية التجارة ، والى الجهز الحربي نوبل في « صليبية السلام » التي من اجلها يؤسس نوبل جائزة خاصة ، «هل من الممكن الاعتقاد ، امام هذه الارقام الفلكية ، المجازفة ، باعلان الحرب؟» ، يتساءل الالماني نيارك عندما راح يلمح الى هذه الملايين التي تمثل قيمة السندات الدولية . والمعروف ان كل هزة سياسية او ضغط سياسي شديد كان يولد قلقاً او اضطراباً في الاسواق المالية . « انا آخذ على نفسي جانب الاوساط المالية الكبرى ، تدبروا انتم امر الدولة ، كلاهما يريد السلام . فاذا ما ارادتا ذلك استطعنا إنقاذ السلام » ، كان يقول كايو لالبرت توماس خلال ازمة اغادير .

حاول الاشتراكيون تأمين الاخوة الانسانية بين البشر عن طريق الاشتراكية والديموقراطيون عن طريق الديموقراطية ، والمسيحيون عن طريق الكنيسة ، وانصار سياسة التبادل الحر بالتجارة الحرة ، والفقهاء بالقانون . فالازمة الاقتصادية الكبرى عزاها العديدون من رجال الاعمال ، الى هذه الاخبار التي يأخذ الناس بترويجها باستمرار . وبمناسبة المعرض الدولي العام الذي اقيم عام ١٨٨٩ ، تأسس مكتب دولي ومكتب برلماني دولي عام لنشر فكرة التحكيم الدولي بين الشعوب . ودوى اذ ذاك صوت البابا ليون الثالث عشر في مجمع الكرادلة ، كما اجتمع في واشنطون مؤتمر الجامعة الاميركية . ولكن هذا النشاط كله لم يخرج بشيء يلزم حكومات الدول الكبرى بالاتفاق

واخذت بعض موازنات الدول ترزح تحت وطأة اعباء التسلح الاوروبي . وهذا الوضع يفسر لنا الاقتراح الذي تقدمت به روسيا عام ١٨٩٨ ، في اعقاب الحرب الصينية اليابانية والحرب الاسبانية الاميركية . فموارد اوروبا لا تنهض باطماع القيصرية . وارسلت ٢٦ دولة الى مؤتمر لاهاي المعقود عام ١٨٩٩ ممثلين لها الى « اول مؤتمر دولي للسلم » . صحيح ان الفشل

كان كامناً ، لم يتمكن المؤتمرون ستره ، لهذه القرارات التي اتخذوها بشأن قوانين الحرب ، وبالتوصية التي اتخذوها بانشاء محكمة دائمة للتحكيم الدولي . فكيف التوفيق ، والحالة هذه ، بين مبدأ السيادة الوطنية التي تعتصم خلفها كل دولة ، وتحديد التسلح « الذي اعتبر امراً مرغوباً به جداً لتأمين المزيد من الرفاهية للجنس البشري » . ألم يقدم غليوم الثاني للامبراطور نيقولا الثاني هذا الاحتجاج الحازم ، الشديد : « هل يمكنك ان تتصور ملكاً أو الرئيس الاعلى في الدولة يأمر بتسريح وحداته العسكرية ، هذه الوحدات التي كرستها اجيال متطاولة عبر التاريخ المديد ، لترفع على جدران دور الصناعة وفي ابهاء المعارض هذه الاعلام والبيارق المجللة بالاسجاد ، والتنازل ، بهذا الشكل ، عن هذه المدن والحصون والقلاع للفوضويين والديموقراطيين؟» والمؤتمر الثاني الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في مكسيكو ، عام ١٩٠١ ، بدعوة من الولايات المتحدة الاميركية ، تخفيفاً منها للتأثير السيء الذي تركه فيها اصطدامها باسبانيا ، لم يتمكن ، هو الآخر من التوصية بالرجوع إلزامياً الى التحكيم في كل مشكلة دولية يستعصي حلها .

قامت الحروب في الترنسفال والصين ، ومنشوريا ، ونزلت أزمة حادة في المغرب . وبناء على اقتراح ثيودور روزفلت ، عقد عام ١٩٠٧ فقط مؤتمر دولي في اعقاب المؤتمر الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في الريو . ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية تجر وراءها اميركا اللاتينية « فقد حضر المؤتمر ٤٤ دولة . أعيد ولا شك تنظيم محكمة التحكيم . الا ان سلطتها التي تعوزها صفة الالزام والاستمرار ، تحد من آمالها وتقصرها على أقضية نادرة حول مشاكل وقضايا ثانوية ، اقتصرت على الجلوس في قصر منيف فخم ثم تشييده بفضل هبة سخية قدمها كارنجي . وقد جرى تبني النص الذي يوصي بانشاء محكمة عدل للتحكيم الدولي تجلس باستمرار ، غير ان تعيين القضاة الاعضاء بقي مجرد مشروع . ولذا راح القائد الاميركي هوميروس ليا يصرح قائلا : « ان التحكيم الدولي يتجاهل تماماً ما للشرائع الطبيعية من تصلب لا يقبل الرحمة . . . » اما الحد من التسلح فهو يصطدم بالاعتراضات ذاتها التي اصطدم بها عام ١٨٩٩ . لتكن راحتهم في الحرب » ، أخذ ينادي الصحافي وكهام ستيد . وبصعوبة كلية توصلوا الى إكمال التوصيات المتخذة عام ١٨٩٩ ، المتعلقة باعراف الحرب واخلاقها ، وبالتخطيط لمؤتمر تال يعقد عام ١٩١٥ ، الذي كان سيفضي من جراء الفشل المرتقب ، الى تطوير الجامعة الاميركية التي اقتنعت ، حتى الآن بالنتائج التي طلع بها مؤتمر بونس ايرس ، عام ١٩١٠ .

واذ ذاك ، أخذت الازمات تتعاقب آخذ بعضها برقاب بعض : من أزمة البوسنه الى أزمة المغرب ، الى أزمة طرابلس الغرب ومن جديد الى أزمة البلقان . فلا ايطاليا ولا الدول البلقانية فكرت بعرض اختلافاتها مع تركيا على محكمة العدل في لاهاي . فلا عجب والحالة هذه ان تغرق الدول في تسلحها وتغوص في إعداد العدة للحرب الى ما فوق أذنها . وأخذ الجنرال هيرلجن وزير حربية المانيا ، يصرح امام مجلس الرايخشتاغ قائلا : التجربة التي تمت لنا بعد الاتفاق

المعقود بشأن المغرب والكونغو ، عام ١٩١١ ، علمتنا ان حشد قواتنا المسلحة لم يؤلف رادعاً كافياً » .

وعبثاً راح مدير شركة *Hamburg - Amerika* الملاحية، والمتمول الانكليزي كاسل يخططان عام ١٩١٢ ، لوضع حد لهذه المنافسة الحامية بين انكلترا والمانيا للسيطرة على البحار. وعندما وصل الكولونيل هاوس ، سكرتير الرئيس ولسن الى اوروبا ، في ربيع عام ١٩١٤ ، حاول دعوة برلين ولندن الى الجلوس حول طاولة مستديرة للمفاوضات وصولاً الى اتفاق بحري. فالقضية النمساوية الصربية التي نجمت عن مقتل ولي العهد الارشيدوق فرنسوا فرديناند، في سيراجيفو وضعت حداً نهائياً لمحاولة تخفيض التسلح تخفيضاً جزئياً . وفي ٣٠ تموز رفضت المانيا الاقتراح الروسي بعرض المشكلة على محكمة العدل في لاهاي .

وقد بد ان الجماهير اصابها الدوار فعطل فيها كل قوة على التفكير الصحيح حتى ان الجماهير في باريس توهمت انها ترى في ١٩١٤/٨/٢، كوكب المشتري منطاد زبلن يحوم في سماء العاصمة الفرنسية.

ساد صمت عميق عاجز او مشارك جو الكنيسة
وكتب النصر للنزعات القومية والامبريالية

من الجميل ان يحارب المرء ويداه نقيتان والقلب بريء وان يضحي بحياته مرضاة للعدل الالهي (لويس جيليه الى رومان رولان ، في ١-٨-١٩١٤)

يتمنى الجميع هذه الحرب من الصميم وهم راضون بالتضحية بدمائهم على هيكلها (رومان رولان : يوميات سني الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨)